١ — عدد ٣ ديسمبر ١٩٤٥

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

جائزة الكاتب المصرى للقصة

قررت دار الكاتب المصرى التى يشرف عليها الدكتور طه حسين بك من الناحية الثقافية إنشاء جائزة سنوية للقصة قدرها مائة جنيه .

وهى تدعو الكتاب والمؤلفين إلى الاستباق لنيل هذه الجائزة .

وستحكم بين المستبقين لجنة مكونة قوامها خمسة من كبار الأدباء الممتازين فى مصر — وقد حددت آخر موعد لتقديم القصة يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ .

١ — المسابقة مفتوحة للكتاب العرب جميعاً على اختلاف الأقطار العربية فى الشرق والغرب .

٢ — الكاتب حر فى اختيار الموضوع الذى يكتب فيه لايقيد بزمان ولا مكان ولا بيئة ولا اتجاه .

٣ — يجب أن تمتاز القصة بالابتكار وقوة الخيال وجمال اللغة العربية فى الشرق والغرب .

٤ — القصة التى تظفر بالجائزة ملك لدار الكاتب المصرى تطبعها وتذيعها على أن تحتفظ لصاحبها بحق المؤلف وقدره عشرون فى المائة من ثمن البيع الفعلى بعد الخصم — وهذا الحق مستمر مهما تتعدد الطبعات . وكل ذلك يجرى طبقاً للنظام المعمول به فى دار الكاتب المصرى والذى يستطيع كل كاتب أن يطلع عليه .

٥ — يجوز لدار الكاتب المصرى أن تطبع القصة الثانية إذا أوصت بذلك لجنة التحكيم وقبله صاحب القصة فى حدود النظام الذى أشير إليه فى البند السابق .

٦ — يرسل الكاتب نسختين من قصته مكتوبة على الآلة الكاتبة أو بخط واضح بعنوان دار الكاتب المصرى شارع قنطرة الدكة رقم ٥ — القاهرة — ولا تقبل أى قصة تصل بعد تاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ .

الكاتب المصرى

ذو الحجة ١٣٦٤ — ديسمبر ١٩٤٥



مجلد ١ — عدد ٣

صور من المرأة فى قصص ڤولتير

موضوع غريب فيما ترى ، وفيما أرى أنا أيضاً ، ولكنى دفعت إلى أن أتحدث إليك فيه . وقد تسألنى لماذا اخترته دون غيره من الموضوعات التى يمكن أن يساق فيها الحديث ؟ فأجيبك فى غير تكلف ولا تردد بأنى لا أفكر فى القارئ حين أريد التحدث إليه ، أو بعبارة أدق لا أفكر فيما يحب أو لا يحب ، وفيما يلائمه أو لا يلائمه لأنى لا أتملق القارئ ولا أترضاه ولا أبتغى إليه الوسيلة ، وإنما أعطيه ما عندى وأتحدث إليه بما يخطر لى وأسير معه سيرتى مع ذوى خاصتى الذين ألقاهم مصبحاً وممسياً ، والذين لا أسألهم فيما يريدون أن أتحدث إليهم ولا يسألوننى فيما أريد أن يتحدثوا إلىَّ ، وإنما هى الحياة تجرى بينهم وبينى سهلة سمحة يسيرة ، تضطرنا إلى أن نحياها كما تضطرنا إلى أن نتبادل فيها الرأى وندير فيها الحديث .

وقد كان ڤولتير جزءاً من حياتى العقلية منذ شهر سبتمبر الماضى ، كما كان ديديرو جزءاً من حياتى العقلية قبل الصيف . ولو أن مجلة الكاتب المصرى ظهرت فى يونيو أو يوليو لتحدثت إلى قرائها عن ديديرو كما أتحدث إليهم الآن عن ڤولتير . ولكنها ظهرت فى أكتوبر حين كنت أغرق نفسى فى الأدب العربى وجه النهار وفى أدب ڤولتير آخر النهار . ومن أجل ذلك تحدثت إلى القراء عن الأدب العربى فى السفرين الماضيين ، وأنا أتحدث إليهم عن لون من ادب ڤولتير فى هذا السفر ، والله يعلم عما أتحدث إليهم فى السفر المقبل . فالقارئ يرى أنى أجرى الأمر بينه وبينى على أذلاله لا أتكلف له شيئاً ولا أحب أن يتكلف لى شيئاً .

ولست أدرى لماذا اخترت هـذا اللون بعينه من هذه الألوان الأدبية التى يقدمها إلينا ڤولتير، ولـكنى أعلم أنى كنت أسأل نفسى وأنا أقرأ قصص ڤولتير عما يمكن أن يكون حظ هذا الرجل العظيم من التحليل النفسى ومن تعليل ما يُحدث أشخاصه من الأحداث وما يعرض لهم من الخطوب . وكنت أحاول أن أضعه فى طبقة من طبقات الـكتاب هذه التى نعتمدها فى العصر الحديث أساساً للتقسيم والتصنيف . فمن الـكتّاب من يستغرق همه كله فى تحليل دقائق النفس حين تفـكر وحين تشعر وحين تعمل . ومن الـكتّاب من يفرغ همه فى تحليل الصلات بين الناس فيتجه إلى الناحية الاجتماعية من الحياة الانسانية . ومنهم من يعنى بغير هاتين الناحيتين من نواحى الفن الذى يصـدر عنه الـكتاب ويقصدون إليه فيما يكتبون .

كنت إذاً أحاول أن أضع ڤولتـير القاصّ فى طبقة من هذه الطبقات دون أن أبلغ من ذلك ما أريد ، فهو لا ينحاز إلى طبقة دون طبقة ولا يضاف إلى فريق دون فريق ، ولعله أن يشارك فى خصائص هذه الطبقات جميعاً . والشئ المحقق هو أنه لم يفكر فى شئ من ذلك . ومن يدرى ! لعل معاصريه لم يكونوا يفـكرون فى شئ من ذلك ، وإنما كانوا يصدرون عن طبائع فى غير تكلف ولا تصنع يرسم لهم الفن نفســه مذاهبهم فى القول وطرائقهم فى التصوير والتعبير .

على أن هناك حقيقة واضحة معروفة ، وهى أن القصص عند ڤولتير لم يكن غاية تطلب لنفسها وإنما كان وسيلة يبتغيها الـكاتب ليصل بها إلى غرض من الأغراض الفلسفية ، سواء أكان هذا الغرض متصلا بما بعد الطبيعة أو بالنظام السياسى أو بالنظام الاجتماعى أو بالنظام الدينى أو بكل هذه الأشياء جميعاً .

وإذا كان القصص نفسه وسيلة لا غاية ، فمن الطبيعى أن يكون الأشخاص الذين تجرى على أيديهم أحداث هذا القصص وسائل لا غايات . فإذا عرض علينا ڤولتير شخصاً من الأشخاص الذين يعملون أو يتأثرون فى قصصه فطبيعة هذا الشخص لا تعنيه ، ولا تعنيه الخصائص التى تأتلف منها هذه الطبيعة ، وإنما الذى يعنيه هو ما يصدر عن هذا الشخص من قول أو عمل وما يلم بهذا الشخص من حدث أو خطب ، وما يكون لهذه الأقوال والأعمال والأحداث والخطوب من أثر فى حياة الناس .

ومن أجل هذا كانت الأشخاص فى قصص ڤولتير وسائل من جهة ورموزاً من جهة أخرى . رموزاً لهذه الأغراض التى كان يسعى إليها ولهذه الآراء التى كان يريد أن يثبتها أو أن ينفيها . ومن أجل هذا أيضاً كان ڤولتير يتخذ لبعض قصصه عنوانين ، أحدهما الشخص الذى اتخذه رمزاً ، والآخر الفكرة التى أراد أن يرمز إليها . فقصة «كانديد» تسمى كانديد أو التفاؤل ، وقصة « زاديج » تسمى زاديج أو القدر ، وعلى هذا النحو .

أشخاص ڤولتير إذاً ليسوا أفراداً من الناس يعملون كما نعمل ويشعرون كما نشعر ويحسون كما نحس ويتأثرون كما نتأثر ، وإنما هم أشخاص قد خلقهم خيال ڤولتير وعقله خلقاً . وقد استمدهم هذا العقل وذلك الخيال من المعانى التى قصد إليها وأراد تصويرها أكثر مما استمدهم من الحياة الواقعة التى يراها كل إنسان والتى يستطيع كل إنسان أن يلاحظها من قرب وأن يتناولها بالنقد والتحليل والتعليل . ولعل من الخصال التى تفوق فيها ڤولتير تفوقاً ظاهراً انتهى به إلى براعة فنية لا يدانيه فيها كاتب فرنسى آخر أنه لا يحفل كثيراً بالحياة الواقعة ولا يقف عندها إلا بمقدار . فهو يأخذ منها ما يحتاج إليه ويضيف إليها ما يحتاج إليه أيضاً ، مزدرياً هذا المنطق الطبيعى الذى نفكر به ونتخذه مقياساً لتصورنا للأشياء وحكمنا عليها . فهو لا يحفل بالزمان ولا بالمكان ، وهو من أجل ذلك لا يحفل بالتاريخ ولا بالجغرافيا ، وهو لا يحفل بالطبيعة التى يمكن أن تلاحظ ولا بالخرافات التى ليس إلى ملاحظتها من سبيل . وهو لا يحفل بما يوجد بيننا بالفعل ولا بما ليس له وجود . وإنما يأخذ من هذا كله ما يريد ، ويرتب هذا كله كما يريد ، ويقدم لنا منه مزاجاً رائعاً نعجب به أشد الإعجاب ولا نستطيع أن ننكر منه شيئاً ؛ لأن إنكارنا لا يؤثر فى الفكرة الأساسية التى أراد أن يعرضها علينا . فأميرة بابل مثلا تعيش فى أقدم العصور التاريخية بل تعيش فى أقدم العصور الانسانية قبل أن يوجد التاريخ ، وهى مع ذلك تطوف فى أقطار الأرض وتتخذ للتنقل وسائل منها ما يلائم الأساطير ، ومنها ما يلائم العصر الذى كان ڤولتير يعيش فيه . وهى تزور مدناً لم تنشأ إلا فى عصور متأخرة جداً وتشهد أجيالا من الناس لم يوجدوا إلا بعد أن تقدمت الحضارة الانسانية حتى انتهت إلى الطور الذى انتهت إليه فى القرن الثامن عشر الفرنسى .

هذه الأميرة تعيش فى مدينة بابل التى وصفتها الأساطير، وهى تعيش قبل سيمراميس بقرون طويلة. وقد أراد أبوها الملك أن يبغى لها زوجاً فقرر أن يجرى مسابقة بين الملوك قوامها أن يشد المتسابقون قوس نمروذ وهى قوس لا يتاح لأوساط الناس ولا للمتفوقين منهم فى القوة أن يشدوها. فأيهم قدر على أن يشد هذه القوس فعليه بعد ذلك أن يقهر أسداً لم تعرف الدنيا مثله قوة وبأساً وعنفاً. فاذا قهر هذا الأسد فعليه بعد ذلك أن يقدم إلى الأميرة هدية نادرة لم يعرف العالم مثلها قط. وقد أقبل ملوك ثلاثة للاشتراك فى هذه المسابقة، أحدهم فرعون جاء يركب الثور أبيس وهو يقدم إلى الأميرة هدايا من تماسيح النيل وجرذان الدلتا. والثانى ملك الهند جاء يركب فيلا هائلا تتبعه فيلة كثيرة تحمل من طرف الهند ما عرف الناس وما لم يعرفوا. والثالث ملك السيتيين من أهل البادية فى شرق أوربا وجنوبها جاء ومعه أصحابه يمتطون أجود الخيل وأعرقها فى النسب، ويحملون من طرف باديتهم الشئ الكثير. وقد احتفلت بابل بمقدم هؤلاء الملوك احتفالا رائعاً واحتفت بهم احتفاء عظيما. حتى إذا كان اليوم المشهود اجتمع الناس ليشهدوا هذه المسابقة. وقد اجتمع منهم فى المدرج أكثر من نصف مليون. وجلس الملك فى مقصورته ومن حوله وزراؤه ورجال قصره، وجلست الأميرة فى مقصورتها ومن حولها وصائفها، وجلس كل ملك من الملوك الثلاثة فى المقصورة التى أعدت له، ومع كل واحد منهم حاشيته، ودار على النظارة جيش ظريف قوامه عشرون ألفاً من العذارى الحسان يطوفن عليهم بألوان الفاكهة والنقل والشراب. ثم لم يكد مؤذن الملك يؤذن بافتتاح المسابقة حتى رأى النظارة منظراً عجباً: رأوا فتى يقبل من بعيد يتبعه خادمه، وقد وقف على كتف الفتى طائر جميل رائع المنظر، وقد ركب الفتى حيواناً غريباً سريعاً رشيقاً خفيف الحركة يتوسط رأسه قرن وحيد. وقد انتهى الفتى إلى المدرج يلحظه الملوك والنظارة وتلحظه الأميرة ووصائفها خاصة، ومضى فى تواضع حتى انتهى إلى مجلس من المدرج فجلس كغيره من الناس يقوم خادمه من ورائه ويقف على كتفه طائره الجميل.

وقد ابتدأت المسابقة، فتقدم فرعون ليشد القوس فلم يبلغ من شدها شيئاً ونصح له كبير كهنته بألا يمضى فى هذه المسابقة التى لا تلائم الجلالة المصرية وحسبه ما يقدم من الهدايا، وحسبه أنه صاحب ملك مصر. ولم يكن ملك الهند

أحسن منه حظاً . وحاول ملك السيتيين أن يشد القوس فكاد يبلغ من شدها شيئاً يسيراً ولكن قوته لم تطاوعه . وإذا الفتى يثب من مكانه ويهبط إلى الميدان مسرعاً ويتناول القوس فى أدب ويشدها فى رشاقة ويرسل منها إلى مقصورة الأميرة كتاباً تقرؤه الأميرة ، فاذا هو شعر جميل يتغنى بجمالها البارع . ثم يخرج الأسد وقد نكل عن لقائه فرعون وملك الهند ، ولكن ملك السيتيين أقدم على هذا الصراع الهائل ، وكاد يصرع الأسد ولكن الحظ خانه فهمّ الأسد أن يبطش به لولا أن هذا الفتى يثب مسرعاً ويهوى إلى الأسد بضربة تقدّ عنقه قدّاً .

وقد أخذ الفتى رأس الأسد فدفعه إلى خادمه ، وغاب الخادم لحظة ثم عاد وقد غسل عن الرأس ما كان عليه من دم وانتزع نيوبه وأقر مكانها قطعاً من الجوهر لم ير الناس مثلها قط . وأخذ الفتى هذا الرأس من خادمه ودفعه إلى طائره الجميل وكلفه أن يحمله إلى الأميرة ، والطائر يسعى فى الجو سعياً رفيقاً رشيقاً حتى يبلغ مقصورة الأميرة فيضع الرأس بين يديها ويقدم إليها تحية تملأ الناظرين فتنة وإعجاباً . وقد فتن الملوك والنظارة بهذا الفتى ووقع حبه فى قلب الأميرة ، وهمّ عظيم بابل أن يحتفى به ، ولكن رسولا يقبل فيلقى فى أذن الفتى كلمات ، وإذا الفتى يكلف طائره الجميل أن يبقى مع الأميرة ، ثم يتحول إلى حيوانه الغريب فيركبه ويعود به من حيث أتى . ويجدّ البابليون فى اللحاق به فلا يبلغونه وقد امتلأ قلب الأميرة حبًّا وحزناً ، وامتلأت قلوب الملوك غيظاً وحنقاً ، واختلط الأمر على عظيم بابل ، فهو لم يجد لابنته زوجاً ، وهو مضطر أن يرجع إلى الآلهة يستشيرهم فيما يصنع . والمهم هو أن الأميرة قد كلفت بالفتى ، وأن هذا الحب قد أرّقها ، فهى تحدث نفسها أثناء الليل والطائر قائم إلى جانب السرير فما يروع الفتاة إلا صوت هذا الطائر يسليها ويعزيها ويواسيها فى لغة بابلية رائعة . فالطائر إذاً يتكلم لغة الناس ، وهو يقص عليها قصصه ، فهو ما زال فى أول الشباب ، لم يبلغ من السن إلا سبعة وعشرين ألفاً وبضع مئات من السنين . وهو يحدثها عن هذا الفتى وعن موطنه فى أقصى الهند ، وقد أشار عليها أن تلحق به ، وأشار الوحى على أبيها أن يكلفها الطواف فى أقطار الأرض .

وما أريد أن ألخص القصة وإنما يكفى أن أقول إن الفتاة ذهبت إلى البصرة ثم إلى جنوب البلاد العربية ثم إلى الهند ثم إلى الصين ثم إلى أوربا على اختلاف

أقطارها تطلب هواها فى كل هذه البلاد ، وهى لا تبلغ بلداً إلا أنبئت بأن الفتى قد رحل منه إلى بلد آخر ، ثم يلتقيان ذات يوم أو ذات ليلة فى باريس كما سنرى بعد حين .

وفى إلمام الفتى بأقطار الأرض وفى إلمام الفتاة بعده بهذه الأقطار عَرْضٌ لما يريد فولتير أن يعرض من شؤون الأمم والشعوب ، يجِدّ حيناً ويهزل حينا ، يصور التاريخ مرة ويخترع الحوادث مرة أخرى ، وينقد نظام السياسة والدين والاجتماع دائماً ، ويلم بالنقد الأدبى بين حين وحين .

وليس فولتير فى قصة كانديد بأقل ازدراء للتاريخ والجغرافيا والحقائق المادية الواقعة منه فى هذه القصة التى أشرت إليها آنفاً . فالمهم عنده إذاً ليس اتساق القصة طبقاً للمألوف من حقائق الحياة ولا طبقاً للمألوف من هذا الخيال الذى لا يريد أن يمعن فى الغرابة ولا أن يغرق فى الاختراع ، وإنما يصور الوقائع للناس تصويراً تألفه عقولهم وتطمئن إليه أذواقهم على نحو ما عودهم القصاص فى العصر الحديث على أقل تقدير . ففولتر إذاً يذهب بقصصه مذهب الشرقيين فى ألف ليلة وليلة وفى كليلة ودمنة ، وفى هذا القصص الذى يمتلىء بالأعاجيب ويفعم بالخوارق ، والذى يكثر فيه الجن وتتكلم فيه الطير ، والذى يتخذ هذا كله مع ذلك وسيلة إلى النقد والإصلاح وتصوير الحياة الاجتماعية المعاصرة بما فيها من خير وشر . فلا غرابة إذاً فى أن تكون عناية فولتير بحقائق الأشخاص فى قصصه ضئيلة لا تكاد تكون شيئاً ذا خطر .

ومع ذلك فهؤلاء الأشخاص يختلفون فى حظهم من عناية فولتير اختلافا شديداً ، فمنهم الأشخاص الأساسيون والأشخاص الإضافيون ، إن صح هذا التعبير ، ومنهم الرجال والنساء ، ومنهم الشباب والكهول والشيوخ . ولكل أولئك خصال يتمايزون بها فيما بينهم . فأين تقع المرأة من هؤلاء الأشخاص جميعاً فى قصص فولتير ؟

هذا هو السؤال الذى كنت ألقيه على نفسى وأنا أقرأ قصصه الطوال وأقاصيصه القصار . ويخيل إلىّ أن فى الوقوف عند هذه النماذج التى يقدمها لنا فولتير من النساء والفتيات فى قصصه شيئاً لا أقول من الفائدة العلمية الخطيرة ، ولا أقول من المتعة الأدبية الرائعة ، ولكن أقول من الفكاهة والغناء اللذين قد يرغبان بعض الباحثين المتعمقين فى البحث فى أن يحصوا ويستقصوا ، وفى أن

يحللوا ويعللوا ، وفى أن يوافقوا ويفارقوا ، لعلهم أن يخرجوا لنا من هذا كله كتاباً قيما يشتمل على صور رائعة فى الفن والأدب .

فقصة واحدة مثلا من قصص ڤولتير وهى قصة زاديج تعرض علينا صوراً من المرأة مختلفة أشد الاختلاف ، متفقة مع ذلك أشد الاتفاق . فقد همَّ زاديج وهو فتى حازم حصيف قد منح طبيعة خصبة وبصيرة نافذة ، وذكاء بعيداً وثقافة واسعة ، همَّ زاديج أن يتزوج ، فخطب فتاة أحبها كل الحب ، وفتنت به كل الفتون ، وهى سمير . وقد خرج ذات يوم معها يتروضان فى ظاهر المدينة ، وكان لها عاشق من الأمراء همّ أن يخطفها فأبلى زاديج فى الدفاع عنها بلاء حسنا حتى استنقذها ، ولكن سهماً أصابه قريباً من إحدى عينيه . فلما أيأس الأطباء سمير من شفائه صدّت عنه ، وقالت إنها لا تحب العور . ثم تسلّى عنها زاديج وتزوج من فتاة أخرى فُتنت به أشد الفتنة وكونت لنفسها فى الحب رأيا صارما حازما . وأقبلت ذات يوم على زوجها ساخطة أشد السخط . فلما سألها عن ذلك أنبأته بأنها ذهبت تعزى إحدى صديقاتها عن موت زوجها ، وكانت هذه الصديقة مشغوفة بزوجها قد نذرت الوفاء لحبه مادام الجدول المجاور لقبره يمضى فى مجراه ، وقد أقامت على قبره لاتريد أن تفارقه . ولكن صاحبتنا رأتها تصنع شيئاً عجيباً ، رأتها تحول الجدول عن مجراه لتتخلص من هذا النذر الثقيل .

وقد ارتاب زاديج بقدرة المرأة على الوفاء وبسخط امرأته على صديقتها ، فاحتال مع صاحب له وفىّ ليعلم علم امرأته ، فأظهر المرض وتكلف الموت ودفن فى حديقة الدار ، وأقبل صاحبه على الأرملة يواسيها فكان الحديث حزيناً أول الأمر ثم جعل يرق شيئاً فشيئاً ويعذب قليلا قليلا ، حتى انتهى إلى ما يشبه الحب . ثم أظهر الصديق أن نوبة شديدة من المرض قد نابته ، فتعطف عليه الأرملة وتريد أن تطبّ له ، ولكنه ينبئها بأن الطب له مستحيل ، فليس إلى علاجه من سبيل إلا أن يوضع على موضع الطحال منه أنف مجدوع . فتشكُّ غير قليل ثم تقول لنفسها : وأى بأس على زوجى الفقيد إن لقى الآلهة بأنفه كاملا أو منقوصاً ! ثم تهبط إلى القبر وفى يدها حديدة تريد أن تجدع بها أنف زوجها الفقيد لتشفى به طحال عاشقها الجديد ، فيهبّ زاديج وقد تبين أن زوجه التى همت أن تجدع أنفه أشد غدراً من تلك التى لم تستطع صبراً على ما نذرت من الوفاء .

فهؤلاء نساء ثلاث يعرضهن علينا ڤولتير فى الفصلين الأولين من هذه

القصة : إحداهن ضحت بالحب لأنها لا تطيق عشرة الدور، والأخرى همّت أن تحول الجدول عن مجراه لأنها لم تستطع صبراً عن الرجال، والثالثة همت أن تجدع أنف فقيدها ولما يمض على موته إلا أقصر وقت لأنها وجدت عشيقاً جديداً.

وقد استيأس زاديج من حب النساء وذهب فى حياته مذاهب مختلفة لم يجن منها كلها إلا الشر. همّ أن يعيش عيشة الأغنياء فوشى به فى القصر، وهمّ أن يعيش عيشة العلماء فوشى به عند رجال الدين وتعرض للمحنة المنكرة، ثم استبانت براءته بعد خطوب، فاختاره الملك لنفسه وزيراً. ولم تكن وزارته أقل شراً من غيرها من ألوان الحياة التى بلاها؛ فقد كثر الطالبون وكثر الحاسدون، وكثر الماكرون، وثاب النساء إليه من كل وجه يلححن عليه بالإغراء حيناً والإطماع حيناً آخر، وهو يمتنع ويرتفع ولكنه وقع فى شرك الملكة ووقعت الملكة فى شركه، ونبّه الملك إلى الأمر فهمّ أن يقتل العاشقين، وإن لم يصارح أحدهما صاحبه بعشق أو غرام. وقد أتيح للعاشقين من ينجيهما من هذا الكيد. فأما زاديج فمضى نحو مصر، وأما الملكة استارتيه فأخفيت فى بابل نفسها. وقد طوّف زاديج بالآفاق وخضع لمحن كثيرة، ولكنه لقى فى هذه المحن امرأتين أخريين، فأما إحداهما فجرّت عليه شراً كثيراً، وأما الأخرى فجرت له خيراً كثيراً. أولاهما لقيها عند الحدود المصرية تصيح وتستغيث لأن رفيقها كان يلح عليها بالضرب والعذاب، فأسرع زاديج لمعونتها وكان الشر بينه وبين ذلك الرفيق فقتله زاديج، وإذا المرأة التى كانت تستعينه وتستغيث به قد أصبحت له عدوا تلعنه وتستعدى عليه، وقد أقبل المصريون فأخذوه وحاكموه، فلما تبينوا أنه لم يقتل إلا دفاعا عن نفسه أبقوا على حياته ولكنهم باعوه من تاجر عربى كان يقيم بينهم. وهذه المرأة التى استعانت واستغاثت أول الأمر، ثم لعنت واستعدت آخر الأمر لم تلبث أن ترى قوماً من أهل بابل قد أقبلوا يجدّون، فلما رأوها لم يشكوا فى أنها الملكة الهاربة فاقتادوها إلى بابل، وهناك جعلت تمكر وتكيد حتى استأثرت بعقل الملك، ومازالت به حتى انتهى إلى الجنون.

أما المرأة الثانية فعربية جميلة مات عنها زوجها، وكان العرب قد ورثوا عن الهند أن تحرق المرأة نفسها لتلحق بزوجها الفقيد، ولكن زاديج مازال بالمرأة حتى صرفها عن هذا الإثم وحبب إليها الحياة دون أن يحب هو الحياة ودون أن يحب هذه المرأة لأنه لم يكن يحب إلا الملكة استارتيه. ومع ذلك

فقد غضب الكهان على زاديج وقضوا عليه بالموت ، ولكن المرأة العربية عرفت له الصنيعة وأزمعت إنقاذه ، فما زالت تمكر بالكهان واحداً واحداً ، تطمعهم فى نفسها ولا تتقاضاهم على ذلك إلا براءة هذا العبد . فلما ظفرت بهذه البراءة منهم منفردين ضربت لهم جميعاً موعداً واحداً ، فذهبوا إليها وكلهم مستيقن أنها ستخلص له ، ولكنهم التقوا جميعاً عندها ، فعادوا بالخزى ونجا العبد زاديج بنفسه وما كاد ينجو .

وما زال يطوّف فى الأرض فى الهند وفى سيلان وفى البصرة وفى الشام ، وتعرض له الخطوب الكثيرة حتى لقى فيما لقى من الناس جماعة من النساء يبحثن فى مرج من المروج عن حيوان غريب ، وهن رائعات الحسن بارعات الجمال ، فلما سألهن عن أمرهن علم أنهن إماء لصاحب هذا القصر العظيم ، وأن سيدهن مريض ، وقد وصف الطبيب له هذا الحيوان الخرافى الغريب على أن تجده امرأة وعلى أن يطبخ له فى ماء الورد ، فأرسل إماءه للبحث عنه ووعد أيتهن ظفرت به أن تكون له زوجا ، فهن مغرقات فى البحث متهالكات فى إرضاء سيدهن ، إلا واحدة قد انتحت ناحية وجلست على شاطئ النهر حزينة كئيبة تخط بعود فى الأرض . وينظر زاديج فيما تخط فإذا هى تكتب اسمه ، فيأخذه الدهش ثم يسألها ، ولا يكاد يسمع صوتها حتى يعرف استارتيه ملكته وصاحبة قلبه ، وقد تبين منها أن زوجها الملك قد قتل فى بعض الحروب وأنها وقعت أسيرة فى يد المنتصر مع تلك المرأة المصرية وأنها احتالت حتى نجت من أسرها ذاك ولكنها وقعت فى أسر جديد ، وكلِّفت مع الجوارى أن تبحث عن هذا الحيوان الغريب ، فلم تبحث ولم تحفل لأنها لا تريد أن تكون زوجاً لأحد فقد امتلأ قلبها وعقلها بحب زاديج . فهذه هى المرأة الوحيدة التى عرفت الحب الصادق ووفت له واحتملت فى سبيله ألوان الهول فصبرت وجاهدت واجتهدت ، كما صبر زاديج وجاهد واجتهد ، وأعانتهما المصادفات والخطوب التى لا تعنينا الآن حتى اجتمع شملهما ، فأصبح زاديج ملك بابل وعادت استارتيه إلى عرشها ولكن مع من تحب .

هذه نماذج للمرأة فى قصة واحدة من قصص ڤولتير ، وفى هذه النماذج شئ من الشرق ؛ لأن القصة نفسها شرقية قد ترجمت ، فيما يقول ڤولتير ، لمدام دى بومبادور إلى العربية مع ألف ليلة وليلة ونقلها هو إلى الفرنسية . ولكن هذه

النماذج ليس لها من الشرق إلا أيسر المظاهر . فالنساء اللاتى يعرضهن ڤولتير فى هذه القصة سواء منهن من ذكرنا ومن لم نذكر غريبات السيرة والتفكير يعشن جميعاً فى القرن الثامن عشر الفرنسى . وأكبر الظن أن كل واحدة منهن ترمز من بعيد أو من قريب لامرأة عرفها ڤولتير أو عرف من أمرها القليل أو الكثير .

على أننا نجد فى كانديد نماذج أخرى للمرأة كلها غربى ، اثنان منها ألمانيان والثالث إيطالى . فأما النموذج الأول لهؤلاء النساء فكونيجوند عشيقة كانديد تلك التى نشأت فى إقليم ألمانى فى بيت متهدم كان الناس يرونه قصراً عظيما ، بين أب سخيف كان الناس يرونه ذكيًّا ، وأم بدينة كان الناس يرونها رشيقة ، ومرب أحمق كان الناس يرونه فيلسوفاً . وقد نشأ كانديد فى نفس القصر الذى نشأت فيه كونيجوند ، وقد أحبها وأحبته ، والتقيا ذات يوم فأسقطت كونيجوند منديلها والتقطه كانديد فرده إليها ، ثم التقت الشفاه واضطرمت الأعين واصطكت الركب وضلّت الأيدى ، ومر البارون فى أثناء ذلك فوكز كانديد وطرده من القصر وخرّت كونيجوند مغمى عليها .

ومنذ ذلك الوقت بدأت محنة كانديد ، ووضعت أمامه المسألة الهائلة التى وضعت أمام الانسانية كلها فلم تستطع لها ولن تستطيع لها حلا : أقام أمر العالم على الخير أم قام أمر العالم على الشر ؟ فأما المربى الفيلسوف فقد كان يرى رأى ليبنتز وهو أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأما ڤولتير فقد كان يشك فى هذا كل الشك ، وقد اتخذ كانديد وكونيجوند والمربى بونجلوس وغيرهم موضوعا للمحن المتتابعة ، يثبت بذلك أن العالم لم يقم على الخير المحض ، وأن الذين يقولون ليس فى الإمكان أبدع مما كان إنما يقولون باطلا من القول وزوراً . وإذا كانت كونيجوند تمتاز بشىء فانما تمتاز بأن شخصيتها سلبية بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ؛ فهى تحب كانديد لأنها رأت المربى يحب خادماً من خادمات الدار ويُغمى عليها حين ترى أباها يطرد كانديد ، وتتلقى اللطمة من أمها حين تفيق من إغمائها ، وتخضع لاستحياء البلغار حين يغيرون على المدينة ، وتخدم ضابطاً بلغاريًّا ثم تباع فيشتريها يهودى يحملها إلى لشبونة ، وهناك تصبح شركة بين هذا اليهودى وبين رجل من رجال الدين يرأس محكمة التفتيش . وقد مرت محن أخرى بكانديد انتهت به هو أيضاً إلى لشبونة ، ولكنه فى أثناء هذه المحن الهائلة لم يكن يفكر إلا فى شيئين اثنين : حبه لكونيجوند وإعجابه بأستاذه بونجلوس .

وقد لقي كونيجوند وسعد بهذا اللقاء وسعدت هي أيضاً بهذا اللقاء، واستنقذها من اليهودي والمسيحي وفر بها إلى أمريكا، وأراد أن يتزوجها هناك ولكنها راقت الحاكم الأسباني فاغتصبها واضطر كانديد إلى الفرار.

وقد طوّف كانديد في أمريكا ما طوف، وطوف في أوربا لذلك ما طوف، لا يفكر إلا في كونيجوند ولا يحيا إلا لكونيجوند. ثم يلقاها آخر الأمر بعد خطوب كثيرة، وإذا هي قد فقدت جمالها وأصبحت امرأة متهدمة قبيحة المنظر سيئة الخلق، ولكنها على ذلك تعتقد أنها ما زالت في نضرة الشباب، ولو استطاع كانديد لانصرف عنها، ولكنه رجل شريف فيجب أن يبر بالوعد، وأن يتخذها لنفسه زوجا، فكونيجوند هي صورة المرأة الغافلة التي لا توجد لنفسها ولا تحس وجودها إلا بمقدار.

أما النموذج الآخر فهي هذه العجوز التي لقيها كانديد في لشبونة خادماً لكونيجوند، وهي امرأة شيخة ضئيلة ضعيفة، ولكنها ذكية ماهرة ماكرة نفاذة من المشكلات مذعنة لأحداث الزمان، قد اكتسبت ذكاءها وإذعانها من المحن التي اختلفت عليها؛ فهي إيطالية قد نشأت نشأة عز وكرامة، ثم اختلفت عليها الخطوب، فأسرها لصوص البحر وحملت إلى مراكش ثم إلى الجزائر ثم إلى تركيا ثم وقعت لهذا اليهودي فاتخذها خادماً لكونيجوند، وأقامت معها تدبر أمرها وتنصح لها حين تبهظها الحوادث وتسليها حين تضيق عليها الحياة.

وأما النموذج الثالث فهي هذه الخادم باكيت تلك الألمانية التي ألقت أول درس في الحب على كونيجوند، والتي لعبت بها الأحداث هذا اللعب الشائع المعروف فباعت جسمها لتعيش. وما زالت هذه التجارة المنكرة تحملها من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة، حتى ضمها كانديد إلى كونيجوند حين انتهى به وبأصحابه المطاف إلى حديقته تلك التي فرغ للعناية بها على ساحل البحر الأسود.

على أن قصة كانديد لم تخل من نموذج فرنسي باريسي ولكنه بالطبع نموذج سيئ رديء؛ فليس في هذه القصة أو لا يكاد يكون فيها إلا ما هو سيئ رديء. وهذا النموذج الفرنسي الباريسي هو هذه المرأة التي اتخذت لنفسها لقباً أرستقراطيًّا وأقامت في الحي الأرستقراطي، ولكنها في حقيقة الأمر مضطربة بين طبقة الأشراف وطبقة السوقة؛ فهي تستقبل أخلاطاً من الناس فيهم النقي الممتاز، وفيهم الدنس المريب، فيهم الجاهل المغرور، وفيهم العالم المتواضع،

وهم يجتمعون إلى مائدتها، فيطعمون ويشربون ويلعبون، ويقيمون حياتهم على ما يفيدون من هذا اللعب كما تقيم هى حياتها على ما تفيد من هذا الاستقبال . وآية ذلك أن كانديد لم يكد يدخل دارها حتى أجلس إلى مائدة اللعب نخسر مبلغاً ضخماً، ثم استمع لألوان من الأدب والنقد، ثم دعى إلى الغرفة الخاصة، وهناك مكرت به هذه السيدة مكراً يكاد يخلو حتى من الرفق، ولم يخرج كانديد من هذه الدار حتى فقد وفاءه لكونيجوند، وفقد مع هذا الوفاء خاتماً ثميناً، وكره باريس وفكر فى الفرار منها إلى البندقية .

وقصة أخرى من قصص فولتير تعرض علينا من المرأة نماذج أخرى تخالف هذه النماذج التى رأيناها، وهذه القصة هى قصه البرىء — L'ingénu — ونماذجها كلها فرنسية لأن القصة تبدأ فى بريتانيا السفلى وتنتهى فى باريس، وهى هجاء لرجال الدين ولليسوعيين منهم خاصة . فالبيئة إذاً بيئة قسس، ونحن نجد فى أول القصة قسيسين، يعيش كل منهما مع أخته . فأما أحدهما كركابون فأخته قد تقدمت بها السن حتى استيأست من الزواج على كره منها لذلك شديد . وأما الآخر سانت إيف فأخته فى نضرة الشباب تبسم لها الحياة وتبسم هى للحياة . وفى ذات يوم أقبلت سفينة انجليزية، فألقت مراسيها ونزل أصحابها فباعوا واشتروا، ونزل معهم فتى غريب الأطوار، ساذج إلى أقصى حدود السذاجة، ظريف إلى أبعد غايات الظرف، جميل الطلعة، رائع المنظر، حسن الموقع من القلوب، ولم يكد يتصل بالقس كركابون وأخته حتى أحبهما وأحباه، ثم استكشفا بعد خطوب كثيرة أنه ابن أخ لهما كان قد ذهب محارباً إلى كندا ثم انقطعت أخباره وأخبار امرأته، وأكبر الظن أنهما قتلا وتركا هذا الصبى فنشئ فى بيئة غير متحضرة، وأقبل وقد بلغ الرشد، ولكنه ما زال على فطرته الأولى . وقد أقام إذاً مع عمه وعمته، وأحبه أهل القرية حبًّا شديداً، وجعل عمه يثقفه الثقافة المسيحية حتى استطاع أن يعمِّده فى حفل عظيم . وقد فتن بالآنسة سانت إيف كما فتنت هى به، وعاقت عوائق دون زواجهما، فهو يكلف عمّيه عناء عظيما ليحقق هذا الزواج . وإنه لفى ذلك وإذا الأسطول الإنجليزى يقبل مغيراً على الإقليم، ويبلى الفتى فى رد هذا الأسطول بلاء حسناً، يزيد إعجاب الناس به وإكبارهم له . فيرسله عمه إلى فرسايل ومعه الشهادة بحسن بلائه ليقدم هناك إلى وزير الحرب، ويظفر من الملك بالمكافأة على ما أبلى فى الدفاع عن الوطن،

ولعله أن يضم إلى الجيش . ولكنه يصل إلى ڤرسايل ولا يكاد يتصل بوزارة الحرب حتى يكون الكيد قد سبقه إلى القصر فيقبض عليه ويرسل إلى سجن الباستيل ، ويلقى فى حجرة من حجراته مع رجل تقى عالم من رجال الدين . فلندعه فى سجنه يتعلم على هذا القس ، ويقرأ ما شاء الله له أن يقرأ من الكتب فى فنون العلم والأدب والفلسفة ، ولنعد إلى الآنسة سانت إيف .

فقد طالت غيبة البرىء على أهل القرية وانقطعت عنهم أخباره فصبروا وأجملوا الصبر ، وانتظروا وأطالوا الانتظار ، فلما كاد اليأس يبلغ منهم ، سافر عمه وعمته إلى باريس ليتحسسا من هذا الفتى الضائع أو المضاع . وكذلك فعلت الآنسة فخرجت مستخفية من القرية وسلكت طرقاً ملتوية حتى انتهت إلى ڤرسايل وأخوها وآخرون من أهل القرية فى أثرها ، يريدون أن يردوها إلى القرية . ولكنها سبقتهم وانتهت إلى القصر ، وابتغت وسائلها من رجال الدين وغير رجال الدين حتى علمت أن حبيبها فى السجن ، فجدّت فى إنقاذه مفتنة فى الجد حتى انتهت إلى رجل خطير من رجال وزارة الحرب . ولم تكد تقص عليه أمرها حتى رق لها وعطف عليها ، ولكنه فتن بها فتنة شديدة ، وإذا هو يساومها فى إطلاق حبيبها من السجن مساومة منكرة ، وإذا الفتاة بين أمرين أحلاهما مر : فإما أن تحرص على الشرف فتفقد حبيبها إلى آخر الدهر وتعرضه للعذاب المقيم فى أعماق السجن ، وإما أن تبذل هذا الشرف فتخسر نفسها أولا ، وتخون حبيبها ثانياً . ولكن الموظف الخطير يساوم ويغلو فى المساومة ويُطمع ويسرف فى الإطماع ، والفتاة مضطربة أشد الاضطراب ، مترددة أشد التردد بين الشرف والهوان ، وبين الوفاء والخيانة.. وقد عادت إلى الدار التى أوت إليها وعرضت قصتها على صاحبة الدار وهى سيدة وجيهة ، فرفقت بها السيدة وعطفت عليها ولم ترد أن تشير عليها أول الأمر ، وإنما نصحت لها بأن تستشير قسيساً يسوعيًّا . وقد عرضت أمرها على القسيس ، فسخط على الموظف الكبير أشد السخط ، ولكنه لم يكد يعرف اسمه حتى أظهر حزناً ثم تردداً ، ثم جعل يغرى ولا يغرى ، ويرغّب ولا يرغب ، ولكنه أطمع الفتاة فى المغفرة آخر الأمر ، وضرب لها المثل بما امتُحن به بعض القديسات فى الزمان القديم . وعادت الفتاة إلى أم مثواها يائسة بائسة . ولكن هذه السيدة الوجيهة اجترأت آخر الأمر وشجعت الفتاة تصريحاً على ما شجعها عليه القس تلميحاً ، وبينت لها أن الأمور لا تقضى

فى ڤرسايل إلا بمثل هذا الثمن البشع الشنيع . وقد زلّت الفتاة آخر الأمر وظفرت بحرية حبيبها وبحرية رفيقه فى السجن ، بل ظفرت لحبيبها بالمكافأة والمنصب والمستقبل السعيد . واجتمع المتفرقون كلهم ، ورضى بعضهم عن بعض إلا هذه الفتاة فلم تكن راضية عن نفسها ، ولم تكن ترى نفسها خليقة بهذا الفتى البرىء الكريم ، ولكنها أنجته من السجن آخر الأمر ، وكان من الممكن أن تجتهد فى كتمان خطيئتها وأن تستأنف حياة نقية سعيدة لولا أن الدهر لم يرد لها حتى هذه الحياة النادمة ؛ فقدأحبها الموظف الخطير ، ولم يقنع منها بماأعطته وإنما أراد أن يستزيد ، فأرسل إليها الرسل والهدايا ، وكاد القوم أن يفطنوا ، وأحست هى أن أمرها قد افتضح ، فأخذتها العلة ، ولم تكد تأوى إلى سريرها حتى أخذتها الحمى ، ثم اشتد عليها المرض واستيقنت الموت فاعترفت لحبيبها وأخيها بخطيئتها . وماتت ضحية للحب إن شئت ، وللوفاء إن أحببت ، وللندم على فقدان الشرف إن أردت ، ولهذا كله ولفساد الحياة الاجتماعية كما أراد ڤولتير . فهذا النموذج الرائع يكاد ينفرد بين نماذج المرأة فى قصص ڤولتير كلها . فالفتاة هنا عاملة لا مستسلمة ، وجريئة نشيطة لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ، ومصممة لا تعرف تردداً ولا نكولا ، ومغامرة لا تخاف الحوادث ولا تهاب الخطوب . ثم هى بعد ذلك شريفة وفيّة ، سقطت بين الشرف والوفاء ، وأدت حياتها ثمناً لهذه السقطة ، وأنقذت بعد ذلك رجلين كريمين من عذاب متصل مقيم .

وفى هذه القصة نموذجان آخران من نماذج المرأة الفرنسية كما صورها ڤولتير : أحدهما هذه الآنسة كركابون شقيقة القس وعمة البرىء تلك التى تقدمت بها السن وأكرهت على حياة فيها كثير جدًّا من الخشونة والضيق ، وحُرمت لذة الزواج ولذة الأمومة فقبلت هذا الحرمان راضية كارهة ، إن صح هذا التعبير . راضية لأنها لم تثر ولم تصطنع الحيلة ، لتظفر بما حُرم عليها ، ولم تتورط فى الخطيئة لا عن عمد ولا عن غفلة ، وإنما احتفظت بالطهر والنقاء . وكارهة لأنها لم تر الشباب إلا ذكرت شبابها الضائع ، ولم تسمع ذكر الحب والزواج إلا أسفت فى تجمل لأنها لم تأخذ بحظها منهما . ولم تكد ترى الفتى البرىء حتى غمرته بما كان مكظوماً فى قلبها من عواطف الأمومة . والنموذج الآخر هو هذه السيدة الباريسية الوجيهة التى آوت الآنسة سانت إيف ، والتى لم تجرؤ على أن تشير عليها

إلا بعد أن أشار القسيس ، ثم تشجعت فنصحت للفتاة بأن تقبل الحياة كما هى وبأن تسير سيرة غيرها من النساء حين يحتجن إلى الاتصال بأصحاب الجاه . هذه السيدة تصور المرأة العملية فى الحياة الفرنسية العامة أثناء القرن الثامن عشر ، فهى لا تتهالك على الإثم راغبة فيه ، ولكنها مع ذلك لا تتحرج من الإثم حين تدعو إليه المنفعة . وهى على ذلك تحتفظ بما ينبغى للمرأة الكريمة من مظاهر الوقار والارتفاع عن الدنيات .

وكذلك نرى ڤولتير فى هذه القصة يعطينا صوراً ثلاثاً من المرأة : فأما إحداها فهى هذه الفتاة التى تصلح موضوعاً لمأساة رائعة . وأما الأخريان فهما هاتان المرأتان اللتان يلقاهما الناس فى الحياة الواقعة . إحداهما كريمة لأنها قنعت بما قسم لها من الحياة ، والأخرى متكرمة لأنها خضعت لما فى الحياة من ضرورات .

وما دمنا نتحدث عن هذه النماذج الفرنسية فلنمض فى الحديث عن نماذج فرنسية أخرى التمسها ڤولتير فى أعماق إيران وفى أعماق التاريخ القديم ؛ فقد ارتفعت الشكوى إلى السماء من هذا الفساد العظيم الذى ملأ مدينة برسيبوليس وأمر ملك من الملائكة عوناً من أعوانه أن يذهب إلى هذه المدينة ليستقصى أمرها ، ويرفع إليه تقريراً عنها ، فإن كان الفساد أغلب عليها من الصلاح دمّرها تدميراً ، وإن كان الصلاح أدنى إليها من الفساد خلى بينها وبين البقاء .

وقد ذهب هذا العون إلى المدينة فاختبر أمرها كله ، فكان يسخط أحياناً حتى يرى فيما بينه وبين نفسه أن هذه المدينة يجب أن تمحق محقاً ، وكان يرضى أحياناً أخرى فيرى أن هذه المدينة يجب أن تستمتع بالبقاء . وواضح جداً أن مدينة برسيبوليس هى فى أكبر الظن باريس . فأكثر عيوبها وأكثر محاسنها هى الخصال التى كانت باريس تمتاز بها ، بل التى كانت فرنسا كلها تمتاز بها فى عصر ڤولتير . وقد عرض علينا ڤولتير فيما عرض من شؤون هذه المدينة ، شؤون السيدات الحسان اللاتى كن يستقبلن فى دورهن ، ويذهبن إلى الملاهى والمسارح ، ويختلفن إلى المعابد والحدائق والمتنزهات ، ويجمعن إلى جمال الخلق وحسن الشارة والبراعة فى الزينة رقة القلب وعذوبة الحديث ودقة الإحساس والتسامح فيما يتصل بالسيرة والأخلاق ، ويظفرن مع ذلك بسماحة الأزواج وتلطفهم وإغضائهم حين يحسن الإغضاء . وربما كان أصدق تصوير لهؤلاء

النساء قول إحداهن لهذا العون ، وقد أظهر الخوف والجزع حين رآها تسرف فى خيانة زوجها : إنى لا أحب أحداً كما أحب زوجى ، وإنه لايحب أحداً كما يحبنى ، وإنى أضحى فى سبيله بكل شىء إلا بخليلى ، وإنه يضحى فى سبيلى بكل شىء إلا بخليلته . وأظنك قد عرفت أنى أشير إلى تلك القصة الرائعة التى سماها فولتير الدنيا على علاتها — Le monde comme il va — على أن هذه النماذج من المرأة الباريسية لم تصور فى هذه القصة وحدها ، وإنما صورت فى قصة زاديج ، فالبابليات اللاتى يختلفن على القصر ويحاصرن مكتب الوزير ، ويتناجين ويتناغين ويتساعين بالكيد والنميمة فيما يتبادلن من زيارات لسن فى حقيقة الأمر إلا نساء الطبقة الممتازة فى باريس وفى عواصم الأقاليم .

وأريد الآن أن أعود إلى أميرة بابل تلك التى تركتها تجوب أقطار الأرض ساعية فى أثر عاشقها ذاك الجميل . فقد صورت بعض شخصيتها ولم أصور بعضها الآخر ؛ لأنى كنت أتحدث عن هذه القصة أثناء العرض العام لمذهب فولتير فى القصص . وأحب الآن أن أصور لك هذه الفتاة كما عرضها علينا فولتير ، فهى محبة صادقة الحب ، جريئة بعيدة الجراءة ، مغامرة شديدة المغامرة ، تشبه فى ذلك الآنسة سانت إيف فى قصة البرىء ، ولكنها أميرة سيؤول إليها ملك عظيم هو ملك بابل ، فقد نشئت إذاً كما ينشأ الأميرات ، فيها إترافهن وما يستتبعه الإتراف من الرقة واللين ، ومن الضعف والفتور ، ولكن فيها مع ذلك طموح ساذج إلى إرضاء هذا الحب الذى ألقاه الفتى فى قلبها . وهى تريد أن ترضى هذا الحب لأنها تعودت أن ترضى كل حاجاتها ، وأن تبلغ كل ما تريد . ولكنها على ذلك مترددة ما دامت فى ظل أبيها الملك ، وما دامت خاضعة لنظم القصر وتقاليده ، فكل خصالها كامنة فى قلبها كما تكمن النار فى العود أو كما يكمن الرحيق فى العنقود ، فيما يقول ابن الرومى . فإذا أذن لها الملك فى الحج إلى معبد البصرة ، وإذا خرجت من المدينة ومعها طائرها ظهرت هذه الخصال كلها ، وإذا الفتاة محبة لا تعرف إلا الحب ، عاشقة لا تعرف إلا العشق ، مفتونة لا تفكر إلا فى صاحبها ، وفى أن من حقها ومن الحق عليها أن تراه . ولكن الظروف لا تواتيها ، وإنما تخلق لها مشكلة يسيرة غريبة فى وقت واحد ، وهذه المشكلة هى التى ستدور عليها القصة كلها .

فقد انصرف الملوك من بابل مغضبين . فأما فرعون وملك الهند فقد تحالفا

وتم الاتفــاق بينهما على أن يعودا إلى بابل غازيين كلاهما يقود جيشاً قوامه ثلاث مئة ألف من الجند ، حتى إذا تم لهما النصر اقترعا أيهما يظفر بالأميرة . وأما ملك السيتيين فقد اختطف ابنة عم الأميرة ومضى بهـا تحت الليل إلى مملـكته فاتخذها لنفسه زوجاً وأزمع أن يعود إلى بابل غازيا ليرد إلى زوجه عرش بابل الذى غصب منها غصباً . وكذلك أراد ملك بابل أن يزوج ابنته الأميرة فورموزنت فجر على نفسه وعلى ملـكه شراً مستطيراً . وقد مضت الأميرة فورموزنت مع طائرها ونزلت فى طريقها إلى البصرة بفندق من الفنادق ، وإذا فرعون قد نزل فى هذا الفندق نفسه ، وإذا هو يتعجل الفور وينتهز الفرصة ويدخل على الأميرة فى غرفتها فيعلن إليها فى صلف وغلظة أنها قد أهانته فى قصر أبيها وأنه قد ظفر بها الآن فسينزلها على حكمه وسيكرهها على أن تشهد معه مائدة الغداء . وهنا تظهر مهارة الأميرة وسعة حيلتها ، فتظهر لفرعون أنها لم تحب أحداً غيره ، وأن الحياء والخوف هما اللذان منعاها من إظهار حبها ، وأنها حين تقبل دعوة الملك إلى الغداء لا تنزل على حكمه وإنما تنزل على حكم الحب الذى ملأ قلبها فتونا . وهى بهذا الحديث قد فتنت فرعون وأنزلته هو على حكمها . وقد اتفقت معه على الغداء ورغبت إليه فى أن يمنحها ساعة أو ساعتين لتصلح من شأنها استعداداً لهذه السعادة . ولم تـكد تخلو إلى نفسها حتى دعت وصيفتها وطبيبها وتقدمت إليهما فى أن يسقيا الملك وأعوانه وجنده إذا كان الغداء من نبيذ شيراز على أن يدسا فى هذا النبيذ مخدراً يدعو إلى النوم فلا يرد النوم له دعاء . ولم يكد القوم يمضون فى غدائهم وفرعون يداعب الأميرة حتى كانوا قد شربوا فأسرفوا فى الشرب ، وحتى كان نبيذ شيراز قد أغرقهم وأغرق الجند معهم فى نوم عميق . هنالك انسلت الفتاة وحاشيتها ، ولـكنها لم تمض إلى البصرة لتنفذ أمر أبيها فقد نسيت أباها وأمره والبصرة ، وإنما مضت إلى أقصى الهند لتلتمس عشيقها أمازان . وقد بلغت أقصى الهند ، ولـكنها لم تلق الفتى وإنما لقيت أمه محزونة بائسة ، وعرفت منها أن طائراً ماكراً قد شهد غداءها مع فرعون وأنبأ به الأمير فرآه خيانة بغّضت إليه الحياة فأزمع أن يطوف فى أقطار الأرض يلتمس العزاء عن حب هذه الخائنة ، وشرط على نفسه أن يكون وفيًّا لهذه الخائنة إلى آخر الدهر . وكذلك نشأت العقدة ، فالفتاة بريئة أمام نفسها وأمام الحق ، ولـكنها خائنة فى رأى حبيبها . وهى تريد أن تطلبه حيثما كان لتظهره على براءتها

من هذه الخيانة ولتستأنف معه هـذا الحب السعيد . وقد تبعته إلى الصين فعرفت أنه آقام فى قصر الملك أياما ، وكاد يطيل الاقامة لولا أن أميرة من أهل القصر فتنت به وراودته عن نفسه فأبى عليها وفر منها وترك لهـا كتابا رقيقاً يعتذر فيه من هذه الغلظة لأنه يحب أميرة بابل وقد أقسم أن يظل وفيًّا لها إلى آخر الدهر . فلا تـكاد الأميرة تقرأ هذا الـكتاب حتى يجن جنونها وحتى تلاحق حبيبها فى كل مكان . وهى لا تصل إلى مدينة إلا عرفت أن الفتى قد تركها رافضاً حبًّا يعرض عليه حتى طوفت فى أثره أوربا كلها وكادت تلحقه فى انجلترا ، ولـكنه عاد فى الوقت الذى كانت تعبر فيه البحر من هولندا إلى بلاد الانجليز .

على أنها أدركته آخر الأمر فى باريس ، ولـكنها أدركته على شر حال . فهذا الفتى المتيم الذى قاوم الأميرات فى جميع قصور الأرض لم يستطع أن يقاوم باريسية ، وأى باريسية ؟ ممثلة من ممثلات الأوبرا . رأى تمثيلها وسمع غناءها وأحب أن يقدم إليها . فلما عرفها وقع فى الشرك . وتأتى أميرة بابل فترى هذا الفتى وهذه الممثلة على شر حال . وقد ضاعت الآمال وانهارت قصور الأمانى واشتعلت الغيرة حتى حرّقت قلب الفتاة وعقلها تحريقاً ، فهى تهجر باريس مصممة ألا ترى هذا الخائن ! وهى تذكر أباها الآن وتذكر أنها خالفت عن أمره وتريد أن تعود إليه وتعتذر وتتوب وتثوب إلى الطاعة والخضوع ، وتتعزى عن هذا الحب الذى جابت من أجله الدنيا كلها ثم آبت منه بالخيبة والحرمان . والفتى فى أثرها يطلبها بعد أن كانت تطلبه ، ويلاحقها بعد أن كانت تلاحقه . وقد أدركها آخر الأمر فى أسبانيا وأنقذها من محكمة التفتيش ، فكفر بذلك عن خطيئته وعادا معاً إلى بابل ، وكان الزواج وارتقى إلى العرش فى خطوب لست فى حاجة إلى تفصيلها . وبمقدار ماترى عند هذه الفتاة من الإقدام والعزم ومن الجراءة والمغامرة ترى عند أميرة أخرى مصرية ما يناقض كل هذه الخصال بحيث لا تشبه إحدى الأميرتين صاحبتها إلا فى شئ واحد هو هذا الحب الملح الذى يضطر صاحبته إلى الصبر والوفاء واحتمال الخطوب . ولـكن الأميرة المصرية صابرة وفية لا تصنع شيئاً وإنما تتلقى ما يصبّ عليها من المحن فى سبيل هذا الحب . وأنت تستطيع أن ترى صبر هذه الأميرة وشجاعتها السلبية وتعرضها للموت فى قصة الثور الأبيض .

وأعتقد أنى قد عرضت عليك من نماذج المرأة عند ڤولتير ألواناً تعطيك منها صوراً واضحة دقيقة . وأنا لم أعرض عليك مع ذلك نماذج أخرى أهملتها عن عمد لأنها تشبه هذه النماذج التى عرضتها من قريب أو بعيد .

وهناك أسئلة يمكن أن تخطر للذين يقرءون قصص ڤولتير وللذين يقرءون هذا الحديث : فهل بين هـذه النماذج كلها وبين السيدات اللاتى اتصل بهن ڤولتير اتصال حب أو اتصال مجون من علاقة بحيث يمكن أن نستدل بهذا النموذج أو ذاك على هذه السيدة أو تلك من صواحبات ڤولتير ؟ وهل هناك صلة بين هذه النماذج وبين السيدات الكثيرات اللاتى عرفهن ڤولتير فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وسويسرا وإيطاليا بحيث يستطيع الباحث أن يقول إن ڤولتير قد صور هذه السيدة أو تلك من السيدات الممتازات اللاتى عرفهن فى حياته المضطربة الطويلة ؟ وهل بين ألوان الحب التى عرضها ڤولتير فى قصصه هـذه ما يشبه من قريب أو بعيد حب ڤولتير حين كان يحب وهيام ڤولتير حين كان يهيم واضطراب ڤولتير بين اليأس والرجاء حين كان يضطرب فى الحب بين اليأس والرجاء ؟

أسئلة لا أستطيع أن أجيب عليها ولا أريد أن أجيب عليها ؛ لأنى لست إخصائيًّا فى أدب ڤولتير ، بل لست إخصائيًّا فى الأدب الفرنسى ، ولأنى لم أرد أن أقدم إليك بحثاً فى التاريخ الأدبى وإنما أردت أن أقدم إليك حديثاً من هذه الأحاديث التى تدعو إلى التفكير وترغب فى القراءة . وإذا كنت قد وفقت فى هذا الحديث إلى أن أرغِّبك فى قراءة هذا القصص الرائع الذى تركه لنا ڤولتير وفى تعمق البحث عن صور المرأة فى هذا القصص فأنا راض كل الرضا إلا عن شيئين اثنين : أحدهما أنى لم أحسن البحث والاستقصاء . والثانى أنى كنت أريد الإيجاز فاضطررت إلى الإطالة فأثقلت بذلك على القارئ وعلى المجلة ، وشجعت بذلك الكتاب على أن يرسلوا إلينا فصولا طوالا كهذا الفصل الطويل . وأى بأس على الكتّاب إذا ذهبوا فى الثرثرة مذهب رئيس التحرير .

طه حسين

تأميم [1] بنك انجلند

يعرض مؤلفو الاقتصاد السياسى فى كتبهم وأساتذته فى محاضراتهم، كما يعرض السياسيون فى برامجهم والكتاب والصحفيون فى بحوثهم ومقالاتهم، لموضوع «البنك المركزى» على تعبير أو «بنك الدولة» على تعبير آخر، ويختارون آخر العرض بين إحدى نظريتين : أن يكون المصرف ملكا للدولة يؤخذ رأس ماله من ميزانيتها العامة ويعتبر مصلحة من مصالح الحكومة يرجع فى أنظمته وفى سياسته بل فى تفصيل أعماله اليومية إلى قوانين ومراسيم من قوانين الدولة ومراسيمها وإلى قرارات واتجاهات تصدر عن مجلس الوزراء أو عن وزير المالية أو مراقب من مراقبى وزارته، ويكون العاملون فيه موظفين من موظفى الحكومة يخضعون فى كيانهم إلى قواعد الكيان الحكومى؛ أو أن يكون المصرف ملكا لجماعة من الممولين يكتتبون لتكوين رأس ماله كما يكتتب الممولون عادة لتأليف الشركات وفقاً لأحكام القانون العام ولقواعد العرف الجارى. وإذ كان من أهم اختصاصات «البنوك المركزية» استيداع

---

(١) نقصد بلفظ «تأميم» تمليك الأمة إذ نعرب به لفظ Nationalisation وهو مشتق من كلمة أمة كما أن التعبير الغربى مشتق من كلمة Nation ونقترح تعريب الألفاظ التالية بما يقابلها من كلمات عربية لمناسبة ذيوع معانيها :

تدويل من الدولة Etatisation

تشريك من الشركة Socialisation

تشييع من الشيوع Communisation

تجميع من الجمع Collectivisation

م. ع.

ليس على هذه الاقتراحات غبار فهى قياسية موافقة لما اتخذ مجمع فؤاد الأول للغة العربية من قرارات وليس ينقصها إلا أن يصقلها الاستعمال ويصيغها الكتاب والقراء.

رئيس التحرير

أموال الدولة وسد نقصها عند الحاجة واستكتاب القروض العامة وإصدار الورق النقدى ومراقبة القطع الخارجى ومعادلة مستوى المعاملات بين المصارف الداخلية ، وكانت طبيعة هذه الاختصاصات وثيقة الاتصال بطبائع السيادة والحكم ، فإن اتفاقات تعقد بين جماعة المصرف المركزى والحكومة تنظم بمقتضاها قواعد تولية العمل ، ويتسع مداها أو يضيق حسب الظروف التى تكتنف إنشاءه ومنح الامتياز إياه ، على أن يكون بعد ذلك حراً فى تسيير أموره الداخلية ومعاملة مستخدميه المعاملة التى يرى مجلس إدارته وتقرها جمعيته العامة .

والواقع أن العالم مقتسم الأخذ بهاتين النظريتين : فمن الدول مايمتلك المصرف المركزى كالاتحاد السوفيتى وألمانيا والأرجنتين ومنها ما تملك المصرف المركزى فيه جماعة من الجماعات المالية الخاصة كفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ومصر .

وكان الحال فى إنجلترا يجرى حتى منتصف شهر أكتوبر الماضى على هذه الوتيرة الثانية إذ كان « بنك انجلند » ملكا لشركة يحمل أعضاؤها أسهمه وكانت هذه الشركة عاقدة مع الحكومة اتفاقات تقرر العلاقات بينها وبين المصرف العتيد ، وكانت هذه الاتفاقات تتجه إلى ازدياد إحكام الروابط بين الناحيتين . ولما كان من مبادىء الاشتراكية العزيزة على أفئدة الاشتراكيين أن تنتقل « المرافق العامة » من أيدى الأفراد والشركات إلى يد الدولة ، وكانت المصارف كالمناجم وطرق المواصلات فى مقدمة هذه المرافق ، فقد جعل حزب العمال « تشريكها » على رأس برنامجه الانتخابى . فلما فاز بالكثرة البرلمانية وتولى عن طريقها الحكم كان « تأميم بنك انجلند » أول ماسعى إلى تحقيقه فى سبيل ذلك « التشريك » . وكانت الحرب قد عملت مقتضياتها على تمكين « الخزانة البريطانية » من الإشراف على البنك واعتادت إدارة المصرف هذا الإشراف ست سنين متوالية . فتم ذلك النقل دون عناء وصدر قانون « التأميم » فى أكتوبر الماضى وأقره مجلس العموم بكثرة من أعضائه .

والقانون مقدم بمذكرة إيضاحية ومعه ثلاثة ملاحق . وقد تضمنت المذكرة الايضاحية بيان الأغراض التى من أجلها سن التشريع الجديد والتى تهدف إلى نقل رأس مال البنك إلى الخزانة العامة ، وإلى تعيين صاحب الجلالة محافظ البنك

ونائبه وسائر أعضاء مجلس الإدارة ، وإلى تخويل الخزانة حق توجيه البنك فى سياسته المالية ، وتخويل البنك حق الحصول من سائر المصارف على المعلومات والبيانات التى يراها أو تراها الخزانة ضرورية للصالح العام ، وكذلك حق توجيه هذه المصارف بالنسبة لنشاطها المالى ولكل مايتصل بالنشاط الاقتصادى فى المملكة المتحدة .

ويختص الملحق الأول بتفصيل الاجراءات المتصلة بإبدال أسهم البنك بقراطيس الخزانة التى تعطى للمساهمين وبنظام دفع الفوائد المقررة لها . ويعرض الملحق الثانى لمجلس الإدارة وعدد أعضائه والشروط التى يجب أن تتوافر فيهم . وفى الملحق الثالث سرد لأحد عشر قانونا صدرت بين سنة ١٦٩٤ وسنة ١٨٩٢ يقضى القانون الجديد بالغائها أو تعديلها .

أما القانون فمؤلف من خمس مواد . تقضى المادة الأولى منها بنقل ملكية جميع أموال وأملاك « بنك انجلترا » إلى خزانة الدولة العامة مقابل قراطيس من قراطيس هذه الخزانة ذات فائدة الثلاثة فى المئة ، توزع على حملة أسهم المصرف بنسبة أربعة قراطيس للسهم الواحد ، ويكون للحكومة حق استهلاك هذه القراطيس بقيمتها الاسمية بعد اليوم الخامس من شهر إبريل لسنة ١٩٦٦ . وقد تقررت هذه النسبة الرباعية بين القراطيس والأسهم لأنه أريد أن يضمن لحملة الأسهم الحاليين ريع سنوى يعادل متوسط ريعهم الفعلى خلال العشرين السنة الأخيرة ، وقد كان متوسط ما وزعه المصرف على حملة أسهمه فى هذه الفترة اثنى عشر فى المئة أى أربعة أمثال الربح الثابت المحدد لقراطيس الخزانة . على أن البنك هو الذى سيدفع من أرباحه قيمة هذه الفوائد التى ستوزع على حملة القراطيس على دفعتين فى السنة إحداهما فى شهر إبريل والثانية فى شهر أكتوبر .

وتعرض المادة الثانية لمجلس إدارة البنك ، وقد كان مؤلفاً من المحافظ ونائب المحافظ وأربعة وعشرين عضواً تنتخبهم جميعهم الجمعية العامة لحملة الأسهم ، فقضى القانون بأن ينقص عدد الأعضاء إلى ستة عشر إلى جانب المحافظ ونائبه وأن يكون تقلدهم مناصبهم عن طريق التعيين بإرادة ملكية . وقد وردت فى ثانى ملاحق القانون الشروط التى يجب ان تتوافر فيهم فجاء بينها « ألا يكون أحد منهم عضواً فى مجلس العموم أو موظفاً من موظفى الحكومة والتاج ، ولا أجنبياً بالمعنى الوارد ضمن أحكام قانون الجنسية البريتانية » .

وتنص المادة الثالثة على وقف العمل بأنظمة البنك الداخلية وباحلال أنظمة جديدة محلها من قبل « حكومة جلالة الملك » وبموافقـة مجلس إدارة البنك .

والمادة الرابعة هى التى تضمنت أهم أحكام القانون إذ عرضت لعلاقة الخزانة العامة بمجلس إدارة البنك وبسائر المؤسسات المالية داخل بريتانيا العظمى عن طريق هـذا البنك وتقضى هذه المادة بأن يكون للخزانة العامة حق إعطاء التوجيهات التى تراها ضرورية للصالح العـام بعد استشارة مجلس الإدارة وأن يكون عمل البنك فى دائرة تلك التوجيهات كما يكون للبنك — إذا رأى ذلك ضرورياً للصالح العام — أن يطلب إلى سـائر المصارف بيانات وأن يتقدم لها بتوصيات كما يكون له بموافقة الخزانة أن يتخذ قبلها من الاحتياطات ما يطمئنه على تنفيذ طلباته وتوصياته .

ووجه الأهمية فى هذه المـادة أنها تجعل تسيير الأمور المالية فى بريتانيا العظمى فى يد الخزانة العـامة بعد ان كانت فى يد البنك ، وإن كان الواقع أن الخزانة كانت تتدخل ودياً لدى البنك وأن البنك كان يصغى إلى توصيـات الخزانة ، ولـكن ذلك كله كان يقع بمطلق الرضا بين الطرفين ، أما اليوم فسيكون التدخل بحكم القانون وبطبيعة الإشراف والسيطرة .

بيد أن الخطير فى الشأن الجديد حقاً إنما هو النص على السماح للبنك وللخزانة العامة عن طريقه بالحصول على معلومات وبيانات من المصارف الأخرى . ومعنى هـذا هو الخروج على قاعدة السرية التى تمتاز بها أعمال المصارف وانهيار قاعدة عدم الاستفادة من الاطلاع على حسابات المصارف والمؤسسات وإقامتها فى وجه أصحاب هذه الحسابات . ومعنى هذا بخاصة تمكين الحـكومة من مراقبة رؤوس الأموال لا من حيث مقاديرها وطبائعها فحسب بل من حيث توظيفها ومن حيث توجيه هذا التوظيف . فإذا لاحظت الحـكومة مثلا أن هناك اتجاهاً عند بعض الممولين إلى توظيف رؤوس أموالهم فى بلد أجنبى وكانت الحالة الاقتصـادية البريتانية تستدعى حفظها إما لتوظيفها فى مشاريع محلية وإما لمنعها من التسرب إلى ذلك البلد بالذات أقدمت الخزانة على التوصية والتوجيه بعد أن تكون قد وقفت على المعلومات . وهـذا هو الانقلاب الاقتصادى بعينه إذ يقضى على حرية التصرف فى توظيف الأموال على هوى المصلحة الخاصة ويسـير الأعمال السيرة التى تراها الحـكومة فى المصلحة العامة .

وقد قام اعتراض على هذا الاتجاه الجديد عند نظر القانون فى مجلس العموم لكن الكثرة لم تأبه له وأقرت القانون بنصوصه المقترحة رغم المعارضة والاحتجاج .

وأما المادتان الخامسة والأخيرة من مواد القانون فتعرض إحداهما لتعريف بعض الاصطلاحات الواردة فى صلب القانون حتى لا يقوم عليها عند التطبيق خلاف وتنص الثانية على الاسم الذى يطلق على القانون الجديد وقد سمى « قانون بنك انجلند لسنة ١٩٤٥ »

***

ذلك هو التشريع الجديد الذى صدر فى لندن لنقل ملكية المصرف المركزى الانجليزى العتيد إلى يد الدولة . وأنه فى الحق لتشريع يكرس الواقع فيبقى للمصرف اختصاصاته الأولى ويدون فى نصوص قانونه ما كان العمل قد قرره خلال الحرب من إشراف « الخزانة العامة » على الشؤون المالية كلها فى المملكة المتحدة . وقد عالج أمر حملة الأسهم ومصالحهم معالجة عملية إذ أبقى لهم ريعهم بالقدر الذى اعتادوه خلال العشرين السنة الأخيرة ، وإن كان قد « صادر » لمصلحة الحكومة فى الواقع ممتلكات البنك واحتياطياته ، وإنها لوفيرة ، وقد كانت ملكاً لحملة الأسهم فلم تدخلها التسوية معهم فى حساب .

وهكذا يكون « تأميم » مرفق من أهم المرافق العامة فى انجلترا قد تم ، وعن طريقه انقلاب اشتراكى عظيم قد وقع ، على الطريقة الانجليزية . فى هوادة ودون ثورة بل دون ضجيج .

محمود عزمى

المسرح الجديد للسياسة الدولية

الدول الكبرى قبل الحرب وبعدها

الأرض ملعب — كما قال شاكسبير — والناس على ظهرها فرقة تمثيل . . . وهؤلاء الممثلون ضروب وشكول ، وألوان ، منهم الجليل والضئيل ، ومنهم القصير والطويل ، والبدين والنحيل ، والتافه الذى لا يؤدى إلا عملاً تافهاً مثله ، والقوى الجبار الذى يحتل صدر المسرح ، ويروح ويغدو فى زهو وكبرياء . ومنهم القسيم الوسيم ، الحسن البزة والشارة ، المدجج بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . ومنهم من يسعى فى أسمال بالية ، وثياب ممزقة رثة ، وهو أعزل من السلاح ، وقد ألحت عليه الأمراض والعلل . فسعاله لا ينقطع ، ودمعه لا يرقأ . . . وفى الممثلين طوائف لها صور وأجسام ، وليس لها إرادة ولا روح ، إذا تحركت أو ضحكت ، فإنها لا تفعل ذلك بمحض رغبتها وإرادتها بل لأن وراء الستار شخصاً يحركها ويضحكها ، وذلك بواسطة حبل يمسك بيمينه : يجذبه ذات اليمين فتتحرك ذات اليمين ، ويجذبه إلى الشمال فتتحرك نحو الشمال . ثم يديره إدارة فنيـة فترقص تلك الصورة وتلعب ، أو تضحك وتطرب . . .

وللقارىء الحق — كل الحق — فى أن يصف ما يجرى على المسرح بأنه مأساة أو مهزلة أو ملهاة ؛ أو رواية — كما قال شوقى — لم تتم فصولها . فذلك أمر متروك لحصافة القارىء ولباقته . . .

ولست ادرى هل تجرى الكواكب الأخرى ، مثل المشترى والمريخ وزحل روايات كالتى تجرى وتمثل على ظهر كوكبنا الصغير . وياليتنا كنا نعرف ، حتى نستفيد به من المقارنة والموازنة . لأن الشىء لا يعرف مقداره ، كما قيل ، إلا إذا قيس إلى غيره ، فأما ونحن فى حالة جهـل تام بما يجرى فى تلك الكواكب العظيمة ، فإنى أستطيع أن أزعم أن روايتنا أبدع الروايات ، وأنها أبعث للأسى

والألم والضحك والتسلية فى آن واحد مما يجرى فى أى كوكب آخر . ومن شاء أن يأبى علىّ هـذا الزعم فليتفضل ويثبت دعواه ، ويقرع الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان .

***

والآن ، وقد مهدت لموضوعى بهذه المقدمة الوجيزة ، يمكننى الآن أن أدعو القارئ لأن يجلس معى لنتأمل فى هذا المسرح الطريف ، ولنلقى نظرة على أكابر الممثلين فيه .

قضى النظام — أو إن شئت عـدم النظام — السياسى لعالمنا هذا أن يقسم سطح الأرض إلى أقسام تسمى وحدات سياسية ، وهذا التقسيم يشمل سـطح الأرض كله ، أو على الأقل ذلك الجزء من سطح الأرض الذى لم تغمره البحار والمحيطات ، وتركته جافـًا يابساً ، طافياً فوق سطح المـاء ؛ استولى الإنسان على هذا اليابس ، وقسمه إلى وحدات سياسية ، بحيث لم يترك شبراً واحداً من الأرض إلا أدخله فى واحدة منها . وهذا التطور السياسى الـكبير ، لم يتم كله إلا فى نهاية القرن المـاضى ، ورسم الإنسان بين هـذه الوحدات « حدوداً » ترينا فى وضوح وجلاء أين تبدأ كل وحدة وأين تنتهى ، وأمكننا بذلك أن نقدر مساحتها وعدد سكانها .

ومع أن هذه الحدود والتقسيمات السياسية من صنع الإنسان ، وليست منطبقة دائماً على ظاهرات طبيعية ، فإنها أصبحت ، برغم ذلك ، محاطة بنوع من الحرمة والقداسة ، كأنها جبال قائمة لا تتزعزع ، ولا بد من حروب دموية ، ومعارك طاحنة لـكى تحرك هذه الحدود عن مواضعها .

وهكذا أصبح هذا العالم الإنسانى مقسما إلى وحدات تختلف فى الحجم (المساحة) وفى عدد السكان ، وفى مواردهم الاقتصادية ، وفى حظهم من الرفاهية والرخاء والتعليم ، وإذا صرفنا النظر عن الأقطار التابعة لغـيرها ، تبقى لدينا وحدات سياسية نسميها « الدول » تتصرف كل دولة منها فى مساحة محدودة من سطح الأرض ، هى صاحبة الأمر والنهى فيها إلى حد كبير . ولا أستطيع أن أذكر عدد هذه الدول على وجه التدقيق خشية أن يفوتنى بعضها ، ولـكن عددها من غير شك يربو على الستين ، ولـكيلا يكون هناك مجال

للبس أريد أن أنص صراحة على أن هذه الدول تشمل دولة مثل كندا واستراليا واتحاد إفريقية الجنوبية، وزيلنده الجديدة، وإيرلنده الحرة. فإن هذه كلها دول ذات سيادة، وإن كانت داخلة ضمن الاتحاد البريطانى.

قضت الظروف إذن أن يقسم سطح اليابس بين نيف وستين دولة منفصلة، غير متساوية ولا متكافئة: وإذا كنا نحن معشر الآدميين لا نتساوى كأفراد، لا فى الطول ولا فى العرض ولا فى الوزن، ولا فى الثقافة والعلم والسن، فيجب ألا نعجب إذا رأينا الدول تتفاوت هى أيضاً فى الحجم والوزن، وغير ذلك من الاعتبارات.

وقد ترتب على ما نشاهده من الاختلاف الكبير بين الدول أن أصبح بعضها يدعى صراحة الدول الكبرى. وقبل الحرب كان فى العالم سبع دول كان يطلق عليها باتفاق الجميع هذا الوصف. ولا أعرف أن كاتباً أو مفكراً سياسياً قد حاول أن يتحدى هذه التسمية أو ينادى ببطلانها. من هذه الدول خمس فى أوربا، وهى بحسب الترتيب الأبجدى ألمانيا وإيطاليا وروسيا وفرنسا والمملكة المتحدة. واثنتان خارج أوربا وهما الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية، واليابان فى آسيا...

وهذا التميز بين الدول اعترفت به عصبة الأمم فى نظمها ودستورها، إذ خصصت لكل من الدول الكبيرة — أثناء وجودها فى حظيرة العصبة كرسياً ثابتاً فى مجلس إدارتها، بينما ينتخب من الدول الأخرى عدد محدود ليكون فى المجلس بضع سنين، ثم يخلى مكانه لغيره من الدول غير الكبيرة.

وقد أحفظ هذا النظام بعض الدول، التى كانت تطمع فى أن تدخل فى نطاق الدول الكبرى، وأرادت أن يكون لها كرسى ثابت لا يتزعزع فى مجلس العصبة. وهذه الدول هى — بوجه خاص — البرازيل، واسبانيا، وبولنده. فتقدم كل منها، فى وقت من الأوقات، يطالب بمكان ثابت فى المجلس، ولكن طلبه قوبل بالرفض التام، واستقالت البرازيل بعد ذلك من العصبة، ولم تشترك فى أعمالها. ولاشك أن هذه الدول الثلاث فى حالة وسط، أى أنها على هامش الحدود بين الدول الكبيرة وغير الكبيرة، وقد عز عليها بوجه خاص أن ترى ألمانيا وهى الخصم اللدود تنضم إلى عصبة الأمم عام ١٩٢٥ فتمنح مكانا دائماً فى المجلس، وتحرم هى من ذلك الامتياز.

والآن يحسن بنا أن نفكر قليلا فى المقياس الذى نقيس به الدول — إذا كان من الممكن أن نجد هذا المقياس — والذى بمقتضاه سمحنا لأنفسنا أن نصف دولة مثل إيطاليا واليابان بأنها من الدول الكبرى ، وأبينا أن نطلق هذا الوصف على دولة مثل هولنده وبولنده والبرازيل والسويد .

ولنبدأ بحثنا باستعراض العناصر المختلفة التى قد تتميز بها دولة على دولة ، لكى نتمكن من الموازنة بين تلك العناصر ، لعلنا نهتدى إلى أيها أكبر خطراً فى تصنيف الدول ورفع بعضها فوق بعض درجات . فإننا إذا وصفنا رجلا بأنه عظيم ، فلابد لنا أن نبنى هذا الوصف على بعض الاعتبارات الجسدية أو الثقافية أو العقلية أو المالية ، أو على هذه كلها أو بعضها . أما فى الدول فإننا نستطيع أن ننظر إلى الأمور الآتية : المساحة ، عدد السكان ، درجة الثقافة ، التعليم — حظ الأمة من الرخاء وخفض العيش — مقدرة الشعب الاقتصادية (الإنتاج الزراعى والصناعى) — امتلاك المستعمرات — التفوق الحربى .

وعلى الرغم مما قد يعترى القارئ من الضجر لابد لنا أن نعرض لكل من هذه العناصر على حدة :

١ — المساحة

لننظر أولا إلى المساحة ، فإن الاختلاف فيها معناه أن بعض الدول تستأثر بنصيب عظيم من سطح اليابس ، وتتفوق فى هذا على غيرها من الدول . ولاشك أن بعض الدول الكبيرة ذات مساحة عظيمة مثل الولايات المتحدة وروسيا . ولكن أراضى سائر الدول الكبرى متوسطة فى المساحة ، فإيطاليا أصغر مساحة من بولنده واسبانيا وفنلنده وبلاد السويد والنرويج وتركيا . والمملكة المتحدة (المؤلفة من انجلترة وبلاد الغال ، واسكتلندة وشمال إرلنده) أقل فى المساحة من إيطاليا ، وبالتالى فهى أقل من تلك الدول ، ومن دول أخرى كثيرة مثل يوجوسلافيا ورومانيا .

كذلك إذا نظرنا إلى دول عظيمة الرقعة مثل البرازيل (وهى تزيد على نصف أوربا) أو استراليا أو كندا ، فإننا نجد مساحة هائلة ولكن الدولة التى تسيطر عليها ليست معدودة فى الدول الكبرى .

فهل معنى هذا أن المساحة عنصر قليل الخطر ، لا يقام له وزن بين الدول ؟ وكيف يمكن أن تكون المساحة عنصراً ضئيل الخطر ، مع أن الأرض هى « المجال الحيوى » وهى موطن الشعوب ومصدر خيراتها وينبوع ثروتها . . . ومن أجل الأرض تناحرت الشعوب ، واستعرت الحروب . . . ولئن كانت ألمانيا قد أثارت فى العالم حرباً شعواء من أجل إقليم صغير يدعى دانزج ، فكيف يجوز لقائل أن يزعم أن الأراضى ليست بالأمر الكبير الخطير ؟

والرد على هذا الاعتراض هو التسليم بأن المساحة عنصر هام من عناصر القوة لكل دولة من الدول ، ولكن الدول — مع هذا — لا تتفاوت ، ولا يفضل بعضها بعضاً لمجرد المساحة ، وذلك لأمرين : أولهما أن العبرة فى المساحة بالكيف ، لا بالكم ، ورب ميل من الأرض خير من ألف ميل . وثانيهما أن هنالك اعتبارات أخرى لا تقل خطراً عن مجرد المساحة ، مثل موارد الثروة التى تشتمل عليها تلك الأرض ، وما عمله السكان للانتفاع بتلك الأرض . وهكذا نصل إلى الاعتبار الثانى الهام وهو :

٢ — عدد السكان

ولا شك فى أن عدد السكان عنصر من أهم العناصر ، التى توزن بها أقدار الدول ، وكثيراً مانسمع الناس يفخرون بأن عددهم ضخم كبير . . . وليس الوقت ببعيد يوم كنا نسمع صيحة من زعيم إيطالى عظيم ، ينبئ العالم بأن لديه ثمانية ملايين من الحراب ، معدة مهيأة ليوم من الأيام ، فمن ذا الذى يجرؤ بعد هذه الصيحة أن ينكر أن إيطاليا من الدول الكبيرة ؟

أجل إن عدد السكان أمر خطير ، والدول الخمس الأوربيـة ، التى سلم الجميع قبل الحرب أنها من الدول الكبرى ، هى فى الوقت نفسه أكثر دول أوربا سكاناً ، إذ لا يقل عدد سكان إيطاليا ، وهى أصغرها ، عن ٤٢ مليوناً من الأنفس ، بقطع النظر عما بأيديهم من السيوف والحراب . . .

ويلى هذه الدول الخمس فى السكان بأوربا بولنده التى بلغ عدد سكانها ٣٥ مليوناً ، ولهذا رأيناها تطمح لأن تعد فى جملة الدول الكبرى . ولكن طلاب الجغرافيا السياسية يعلمون أن ذلك الطموح سابق لأوانه ، لأسباب كثيرة منها

أن بولنده دولة حديثة التكوين ، ولم تندمج بعد الاندماج الكافى ، وسكانها يشتملون على عدد كبير من العناصر غير البولندية ، فقد كان فيهم بضعة ملايين من الروس ، وبضعة ملايين من اليهود ، وعدد لا يستهان به من الألمان ، وغير هؤلاء من الأجناس .

وإذا نظرنا خارج أوربا نرى أن البرازيل تضارع فرنسا وإيطاليا فى عدد السكان ، ولكن نسبة عالية من سكانها تتألف من المهاجرين الذين لم يندمجوا بعد . بل أكثرهم لا يعرف لغة البلاد ، ولم يتشرب روحها وتقاليدها . والذى أرجوه أن تصبح البرازيل يوماً فى عداد الدول الكبيرة ، ولكن هذا اليوم لم يحن بعد .

كذلك الصين لم تكن تعد فيما مضى من الدول الكبرى ، مع أن الشعب الصينى يحتل مساحة كبيرة من الأرض ، ويعيش فى وطن غنى التربة طيب الهواء ، وافر الماء كثير المعادن والكنوز ، والسكان أكثر شعوب الأرض عدداً . إذ يزيدون على ٤٠٠ مليون من الأنفس ، والشعب الصينى عريق فى الحضارة المادية والأدبية ، وطالما أنجب الحكماء والعلماء ، وكان مضرب الأمثال فى التفوق الفنى على مدى العصور .

لماذا — إذن — لم تكن الصين من قبل تحسب فى عداد الدول الكبرى ، مع أن اليابان التى اقتبست حضارتها من الصين كانت تعد واحدة من تلك الدول ؟ أيمكن أن يكون هنالك خطأ فى الموازين التى توزن بها الدول ، ولهذا لم تدخل الصين فى عداد الدول الكبرى ؟

كلا ! ليس هنالك خطأ فى المقاييس ، ولم يكن الكتاب السياسيون مخطئين إذ لم يعدوا الصين من الدول الكبيرة ، وهذا للأسباب الآتية :

السبب الأول : أن الشعب الصينى كانت تعوزه الوحدة السياسية ، التى تمكنه من أن يعمل فى الأوقات العصيبة وهو موحد الرأى متفق الكلمة . كانت كل واحدة من مديريات الصين تتمتع بالاستقلال التام ولم يكن للحكومة المركزية نفوذ عظيم ؛ ولذلك اتجهت جهود الزعماء فى الزمن الحديث إلى تنظيم التعاون بين الولايات الصينية ؛ وخشيت اليابان نجاح هذه الجهود ، فبادرت بالأغارة على الصين عام ١٩٣١ ، ثم عام ١٩٣٥ .

السبب الثانى : أن الشعب الصينى تعوزه وحدة الثقافة ، فان فى الصين لغات

عديدة ، أشهرها لغة ماندارين ، التى توشك اليوم أن تكون هى اللغة الرسمية للبلاد كلها .

السبب الثالث : أن الحضارة الصينية القديمة لا تكفى فى نظر رجال السياسة اليوم ؛ بل لا بد من مجاراة الحضارة الحديثة ، سواء أكانت هذه المجاراة خيراً أو شراً .

والأمل قوى — على الرغم مما يبدو اليوم من علامات الانشقاق بين الأحزاب الصينية — أن الجهاد العنيف التى احتملته الصين ، والخطوب التى عانتها فى هذه الحرب الضروس ، ستخلق فى أبنائها شعور الوحدة والتعاون ، وروح القومية المشتركة .

وما يقال عن الصين ينطبق إلى حد بعيد على الهند ، الكثيرة السكان ، الغنية الموارد ، ولكنها — إلى جانب هذا — قد تنوعت وتعددت فيها اللغات والثقافات ، واشتملت على إمارات مستقلة أو شبه مستقلة . فاذا أمكن التغلب على هذه العقبات ، جاز لنا أن نتوقع أن نرى الهند أيضاً فى عداد الدول الكبيرة .

وصفوة القول أن عدد السكان عامل خطير فى قوة الدولة . وأن الأقطار القليلة السكان لا تستطيع أن تطمح إلى احتلال مركز ممتاز بين الدول فهنالك دول صغيرة لا يحول بينها وبين بلوغ مرتبة الدول الكبرى سوى قلة السكان ، مع أن أبناءها يضارعون أرقى الشعوب فى أى قطر من الأقطار ، ففى هولنده مثلا ، وسويسره وبلجيكا ودانمارك وتشيكوسلوفاكيا أمم تتمتع بأوفر قسط من التقدم والرقى الثقافى والأدبى . ولكن حالت قلة عددهم دون بلوغهم مرتبة الدول الكبيرة .

ولا عبرة بما يقال من أن مخترعات جديدة مثل القنبلة الذرية ونحوها ستسوى بين الدول ، فانها إذا أصبحت ملكا للجميع زال أثرها كعامل يميز بين الدول .

وهكذا نرى أن صغر المساحة وقلة السكان عائقان لا يستهان بهما فى تقدير الدول طبقاً للموازين المقررة أو شبه المقررة لدى الكتاب السياسيين .

والآن أعرض بسرعة للعناصر الباقية من عناصر القوة الدولية ، وسأتناولها باختصار لأنها متصلة ومرتبطة بما تقدم ذكره أشد الارتباط .

٣ — الثقافة

لا أظن أن أحداً منا يشك فى أن الشعب الذى بلغ شأواً كبيراً فى العلم والفن ينال بهذا مرتبة عظيمة من التقدير ، ويؤهل نفسه بهـذا لمـكان محترم بين الشعوب . والرقى الثقافى يجعل الأمة الصغيرة العدد أعظم خطراً من أمة قد تفوقها فى العدد ، ولـكنها تقصر عنها فى ميادين العلوم والفنون . وقبل الحرب كان العالم ينظر إلى ألمانيا — مثلا — ويرى أنها دولة أعظم من روسيا ، لأن الناس كانوا يعدون روسيا — إن خطأ أو صواباً — أقل ثقافة من ألمانيا . كذلك كان لفرنسا دائماً شأن أعظم من إيطاليا ونفوذ أكبر فى جميع أنحاء العالم بسبب تفوق فرنسا الثقافى بوجه خاص .

٤ — مستوى المعيشة

من الأمور التى يجوز أن تخطر للمرء كمقياس لتقدم الأمم مستوى معيشتها ، أى درجة تمتع السكان جميعاً « بأسباب الراحة والرفاهية » مثل طيب الغذاء ، وكفاية الملبس والمسكن ، والعناية الصحية ، ووفرة فرص التعلم والتأدب . فيكون مقياس عظمة الدول درجة تحررها من الفاقة والمرض والجهل والاجرام .

هذا المقياس يبدو لأول وهلة كأنه المقياس العادل ، ولو أننا اتبعناه فى تقديرنا لـكانت أرقى دول العـالم دولة مثل زيلنده الجديدة أو دانمارك أو سويسره أو هولنده ، حيث يتمتع السكان بمعيشة أرقى وأمثل مما نجده فى جميع الدول الـكبرى على الاطلاق .

أما السبب فى أن هذا المقياس لا يؤخذ به ، فهو أنه فى الحقيقة مقياس لرقى « المجتمع » وليس مقياساً لقوة « الدولة » . ولا يكفى — مع الأسف — رقى المجتمع وحده لاحراز ذلك النفوذ العظيم فى العالم الذى يؤهل الدولة للمـكانة الأولى بين الدول .

٥ — امتلاك المستعمرات

ولقد يخيل إلينا أن الدول صاحبة المستعمرات هى أكبر دول العالم ؛ وأن امتلاك أقطار فيما وراء البحار أو أمام البحار ، شرط أساسى للتفوق بين الدول . وقد وقرت هذه الفكرة فى نفوس كثير من الناس ، وطالما لعبت بعقول الساسة ، وكانت سبباً فى إثارة الحروب والاضطرابات الدولية . وقد نادت ألمانيا من قبل بأن لها « حقاً » فى حيازة المستعمرات ، وكذلك طالبت بولنده بمثل هذا . وها هى ذى إيطاليا قد أقحمت نفسها فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، من أجل أطماعها الاستعمارية . وقد ساقتها هذه السياسة إلى التمزق والدمار . وكادت أن تقضى القضاء الأخير على الشعب الايطالى الممتاز بين شعوب أوربا .

وعلى الرغم مما وقر فى الأذهان من أن المستعمرات سبيل إلى العظمة أو أنها من مكملات العظمة ؛ فانها فكرة خاطئة ، بل هى فى الحقيقة إقرار بالحقارة والضعة ، لأن الدولة التى تظن أنها لا تعظم إلا بمستعمرة تحوزها ، تعترف ضمناً بأنها عاجزة عن أن تكون عظيمة بنفسها وبأبنائها ومواردها .

وأسوق هنا دليلا على خطأ هذه الفكرة أمرين : أولهما أن هنالك دولا لا تقتنى مستعمرات ، وكانت مع ذلك معدودة فى الدول الكبرى ، ولا يعارض فى هذا أحد . منها ألمانيا كما كانت قبل الحرب ، بل وقبل العهد النازى نفسه ، ومثل امبراطورية النمسا والمجر قبل عام ١٩١٤ ، والولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية ليس لها مستعمرات تستحق الذكر ، وإيطاليا نفسها لم تكن تملك قبل الاستيلاء على الحبشة سوى بضع مساحات صحراوية قليلة النفع ، وأظن أن جميع العقلاء يسلمون بأن الاستيلاء على الحبشة ، فترة من الزمن ، لم يزد فى عظمة إيطاليا شيئاً .

الأمر الثانى : أن هناك دولا صغيرة تملك مستعمرات واسعة الأرجاء ، نخص بالذكر منها هولنده وبلجيكا والبرتغال ، ومع ذلك فان هذه الدول لم تكبر بهذا ولم تعظم ؛ ولم تبلغ بمستعمراتها مرتبة ترفعها عن كونها دولا صغيرة .

٦ و ٧ — التفوق الاقتصادى والحربى

إن التفوق فى الميدان الاقتصادى ، أى فى إنتاج الغلات الزراعية والصناعية والتفوق الحربى هما فى الحقيقة أمر واحد . ومع التسليم بأن « صفة » المحارب لا يزال لها بعض الشأن فى الحروب الحديثة ، فان « عدة » المحارب والأدوات الجهنمية التى يحارب بها لها شأن أكبر وأخطر . فلقد انتهى الزمن الذى كان فيه البطل الصنديد يقف منفرداً والسيف يلمع فى يمينه والدرع السابغة فى يساره ، وينادى هل من مبارز ؟ هل من مناجز ؟ ثم يكر على الصفوف ، فيقتل الألوف ، ويوزع الحتوف . لئن جاز مثل هذا الأمر فى العصور الغابرة فانه لن يجوز فى عصرنا هذا . وإنما التفوق الحربى اليوم هو فى إنتاج المدافع والطائرات والسفن والدبابات والقنابل المدمرة المخربة ، وسائر العدة الحربية ، التى لا تكاد تقع تحت حصر . وهذه العدة ما هى إلا جزء من الانتاج الصناعى لكل دولة . ولهذا كان التفوق الاقتصادى والحربى فى الواقع شيئاً واحداً .

ويستند التقدم الاقتصادى إلى أمرين : أولهما خاص بالبلاد ، والثانى خاص بالسكان ، فأما البلاد فيقاس تفوقها بوفرة الغلات الزراعية ، ووفرة الوقود اللازم لتوفير القوة ، ووفرة المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة ؛ ويوشك ألا يكون بين الدول الكبرى التى ذكرناها من تتوافر لديها جميع عناصر الانتاج الاقتصادى ، فألمانيا قليلة البترول والنيكل والنحاس ، ومواردها فى الحديد لا تكفيها . وفرنسا خالية تماماً من البترول ، وإيطاليا واليابان فقيرتان فى المعادن والوقود . وبريطانيا قليلة المواد الغذائية والبترول ، والولايات المتحدة وروسيا أوفر الدول غلات ، ولكنها فقيرة فى المطاط وفى غلات المناطق الحارة . غير أن هذه الدول كلها تشتمل على موارد اقتصادية عظيمة ، رغم افتقارها إلى بعض الغلات .

أما الأمر الثانى العظيم الخطر فى الانتاج فهو مقدرة الشعب على استغلال هذه الموارد ، وعلى تنظيم الصناعة تنظيما يضمن أكبر وأوفر إنتاج ممكن ، ويكفل للأمة اتساعاً واسعاً فى تجارتها العالمية ، وازدياد ثروتها تبعاً لذلك .

ولعل هذا المقياس ، أعنى التفوق فى الميدان الاقتصادى هو المقياس الذى

تتبعه الناس ، عن عمد أو غير عمد ، فى تقديم الدول بعضها على بعض ، لأنه يعبر عن أمرين هما الركنان الخطيران فى كيان كل دولة : وهما غنى الأرض ومواردها من جهة ، وكفاية الشعب ومقدرته على استغلال تلك الموارد من جهة أخرى .

* * *

وهكذا أوصلنا البحث والتنقيب إلى المقياس الذى تقاس به أقدار الدول ، وإلى تفسير لعله قريب من الصواب ، إلى تلك الظاهرة السياسية الكبرى فى العالم ، وهى انقسام الدول إلى دول كبيرة ، ودول غير كبيرة . . . وقد يجوز لنا ، والحال كما وصفنا ، أن نقترح مقياساً حسابياً لتفوق الدول على النحو الذى نتبعه فى ترتيب التلاميذ درجات فى جداول الامتحان ، ومن الممكن أن يكون هذا المقياس على النحو الآتى :

إن كل دولة تتألف من ثلاثة عناصر :

(١) مساحة من الأرض .

(٢) عدد من الناس .

(٣) ما يعمله الناس فى تلك الأرض ؛ وإنى أقترح أن تمنح الدرجات بحيث يكون للأرض (أعنى مساحتها وخصوبتها ومعادنها الخ) ٢٥ درجة ، وللسكان (عددهم واستعدادهم وثقافتهم الخ) ٢٥ درجة ؛ ولنشاط السكان وحسن استغلالهم لأرضهم ٥٠ درجة . ولا شك أنه فى وسع القارىء اللبيب أن يمنح كلاً من الدول الكبرى درجات على هذه الصورة ، ثم يرتبها بحسب تقدير الدرجات إلى رنجى وإيكنجى وهلم جرا . . .

وبعد فإن هذه الحرب العالمية الثانية ، قد بدلت من أوضاع الدول الكبيرة وغيرت ، وحذفت من عداد هذه الدول ثلاثاً سحقتها الحرب سحقاً ومحقتها محقاً ، ألا وهى اليابان وألمانيا وإيطاليا ، ومع أن المسرح الدولى هو سطح الأرض ، الذى لم يتغير كثيراً ، فإن ثلاثة من كبار الممثلين ، قد انتزعت عنهم الأدوار الفخمة الضخمة ، التى كانوا « يلعبونها » وقيل لهم إنكم منذ اليوم ستلزمون لعب الأدوار الثانوية ، ولن يكون لكم فى المسرح سوى مكان تافه ضئيل .

وهكذا خرج ثلاثة — ولو موقتاً — من أكابر اللاعبين ؛ وبقى أربعة .

ولكن ليس هذا كل ما طرأ على المسرح من التبديل والتحوير، والتربيع والتدوير. بل إننا رأينا فى الحقيقة مسرحاً جديداً له مظاهر تبعث على إمعان التفكير وإنعام النظر؛ فقد أصبحنا يقال لنا أحياناً أن كبار الممثلين خمسة، وطوراً يقال لنا إنهم ثلاثة. فيقال اجتمع الثلاثة الكبار تارة، واجتمع الخمسة الأقطاب تارة أخرى. فأما الثلاثة الكبار فهم أمريكا وبريطانيا وروسيا (على الترتيب الأبجدى) وأما إذا كانوا خمسة فإن هذا يكون بإضافة كل من فرنسا والصين...

وهنالك أدلة كثيرة تثبت أن هذه الفوضى قد حيرت كثيراً من العقول، وأشاعت بين الناس العجب والذهول. وأخذ الناس يتساءلون ما بال هؤلاء الكبراء يكونون خمسة اليوم، ثم يصبحون ثلاثة غدا؟

لقد اعترف ميثاق الأمم المتحدة بمبدأ الكبراء الخمسة، وجعل لهم مكانهم الدائم فى مجلس الأمن كما كان للكبراء السبعة مكان دائم فى مجلس العصبة. والميثاق هو دستور الأمم الجديد، ونبراسها الذى يضىء لها السبيل إلى مستقبل باهر يحف به الأمن والرخاء والعدل والارتقاء. فلماذا إذن كل هذا التخليط والاضطراب، ولماذا يكون الكبراء أحياناً خمسة وأحياناً ثلاثة، مع أن مثل هذا الاضطراب لم يكن له وجود قبل هذه الحرب، يوم كان عدد الكبراء سبعة باعتراف الجميع وبإقرار الخلق طرا.

إن السبب فى هذا أن مسرح السياسة قبل الحرب، كانت تمثل فيه رواية واحدة. أما اليوم فإن فى المسرح الدولى روايتين، تتعاقبان فى التمثيل: الأولى رواية عظيمة الخطر، وليس فيها من كبار الأبطال إلا ثلاثة، والثانية أقل خطراً وقد سمح فيها بأن يكون كبار الممثلين خمسة. فإذا ذكرت هذا أيها القارىء أدركت الفرق بين الحالين، ووضح الصبح لذى العينين.

ولقد تجرأ أحد الساسة الإنجليز، وهو الأستاذ هارولد لاسكى، فوصف بريطانيا بأنها اليوم دولة فى المرتبة الثانية. فلامه الناس جميعاً، لأن مثل هذا الأمر لاينبغى أن يقال، مع أننا لو أعطيناها درجات فى المواد السابقة التى ذكرتها من قبل لما كان من الصعب أن تنجح وأن يكون ترتيبها متقدماً...

كذلك يهمس بعض الناس بأن حشر الصين فى زمرة الدول الكبيرة أمر أقل ما يقال فيه إنه سابق لأوانه... وإنى أستغفر الله لهؤلاء الناس ولما

يمسون به . فإن الصين أمة عريقة فى الحضارة والمدنية ، وقد اضطلعت فى هذه الحرب بعبء ثقيل ، وتستحق كل تقدير وتبجيل .

وهذا الاضطراب فى أقوال الكتاب ورجال السياسة ، ما هو إلا صورة لحالة الاضطراب السائدة فى وقتنا هذا . ولذلك نرى السياسة لا تعرف لنفسها خطة ثابتة ومنهجاً واضحاً ، فى التقدير والتمييز . وهذا بعض ما اعقبته هذه الحرب الضروس من اختلال القيم واضطراب الموازين فبات من الصعب علينا اليوم أن نقطع برأى فيما آلت إليه الحال فى المسرح الدولى ، وفى أقدار الممثلين فيه . ولابد لنا من الانتظار قليلا حتى تستقر شئون هذا الكوكب المعذب ، ويثوب الرشد إلى عقول قادته وأولى الأمر فيه .

محمد عوض محمد

الأسماك الجائعة

كانت السفينة التى أعمل فيها تقطع رحلتها بين الاسكندرية وتريستا ، وكان عليها أن ترسو فى ميناء بيريه لتفرغ شحنتها وتشحن من جديد . ولم تكن تقل ركابا اللهم إلا بعض البحارة الغرباء الذين يتخلفون فى الثغور لأسباب ملحة . وقد انضم إلينا أحد هؤلاء البحارة وكان قد أودع مستشفى المدينة أثر حادث أصابه فى مشرب من مشارب بيريه .

كان الرجل جم المرح كثير الدعابة يرسلها من فيه حتى فى أحرج المواقف وآلمها ، شأن البحارة . . .

أبحرت السفينة من بيريه ومضت تذرع البحر فى جو معتدل وسماء صافية . وفى تلك الليلة التى ما برحت أذكرها وأرى صورها ماثلة أمامى — تلك الليلة التى سبقت وصولنا إلى تريستا وقد جلسنا نحتفى برفيقنا البحار حول مائدة صفت عليها أوانى الشراب وزجاجات النبيذ وما لذ وطاب من طعام شهى ، وقد لعبت الخمر برءوسنا وراح كل منا يتحدث بما عنّ له من ذكريات البطولة والتفاخر مع مبالغة أحيانا . وفجأة وقف زميلنا البحار يتطاول بقامته القصيرة ووجهه الذى لم يزل شاحباً وعينيه الضاحكتين الماكرتين وأشار بأصبعه صوب الشاطئ الصخرى وكان القمر فى صراع دائم مع السحب الكثيفة التى كانت تحجب عنا صفحة السماء . . .

قال صاحبنا فى هدوء مصطنع : « انظروا يا رفاق إلى تلك الصخور القائمة . فوالله إنى لأرى عليها الدماء البشرية وأسمع سقوط أجسام الضحايا الموثقة وهى تقذف من عل فتتلقفها الأمواج ويسرع إليها «أبو مورينة» ذلك السمك الذى كان الناس يعتقدون أنه لا يكبر ولا يجود لحمه ويطيب إلا إذا أطعم وأشبع من لحوم الجوارى الحسان . وإنى لأرى كذلك صفحة البحر وقد امتزجت بالدماء

وبين آن وآن تنفرج أمواجها عن أشلاء متناثرة . ومن عجب أنها لم تزل تدب فيها الحياة فيسبح كل شلو منها إلى شلو فتتكامل منها أجسام حية وتنتصب فوق الماء فى قامات فارعة يتدلى شعرها الفاحم فوق ظهور فاتنة ، وترسل عيونها نظرات ساحرة تفيض حبًّا ورحمة . وها هى ذى ماثلة أمامى وقد انتظمت حلقات حلقات ترقص رقصة الموت وتنشد أناشيد الأسى والشجن . وتحت أقدامها سمك المورينة الجائع يتطلع إلى هذه الأجسام البضة الناعمة الفتية ولا يستطيع لها طلباً ، فما هى إلا خيالات ضالة فى هذا الخضم الفسيح تهيم حيناً ثم تثب فوق الصخر وتنبطح عليه وقد انتفش شعرها . وماتت الابتسامة على تلك الشفاه الغضة التى كانت يوما ما تبسم فى مرح الشباب وورنق الحياة . وها هم أولاء عمالقة الجلادين غلاظ الأكباد قد شرعوا يشدون وثاق هذه الجثث الحية ثم يقذفون بها واحدة إثر أخرى فى فترات متباعدة إلى تلك الأسماك الجائعة القرمة إلى لحوم البشر . . . . »

وعاد صاحبنا إلى مقعده ورجع إلى شرابه يعبُّه عبًّا ، ومضى يقلب ناظريه فى وجوهنا المتلهفة إلى سماع حديثه وقد لاحت على أساريره علائم الخبث . ولعله كان يطربه ما يحسه من شوقنا وتلهفنا إلى استرساله فى هذا الحديث الممتع . غير أن صمته لم يطل فقد رفع رأسه وقال : «ما أظنكم رأيتم ما رأيت ، على أن مخيلتى لم تختلق هذه الصور ولم تنسجها من خيال كاذب ، ولكنها وليدة قصة وقعت حوادثها فى عصور خلت أيام كان للوثنية شأن ودولة وعز وصولة ، وكانت المسيحية فى فجرها الأول ما تزال طفلة تتعثر أمام تلك الغول الوثنية التى كثيراً ما عدت عليها وأذاقتها مر العذاب ونكلت بها وتنمرت لها .

كان «أنطونيو» من أشراف مدينة «فينيسيا» وسراتها ، وكان وسيم الطلعة واسع العينين مديد القامة ، ولم يكن كغيره من الأشراف متكبراً بل كان على العكس وديعاً رحيما بالناس . وقد حببه هذا إلى مواطنيه ، وكان واسع النفوذ كريم الخلق ، فنعم بحب الجميع وحظى بعطف قيصر .

تعلق «أنطونيو» بالفتاة « هريانا » إحدى بنات الشعب وكانت الفتاة غاية فى الجمال كأنها تحفة نادرة أو تمثال حى من آيات الفن صاغتها آلهة الرومان على ما تشتهى وتشاء . أما عيناها فكانتا جوهرتين فاتنتين انتزعتا لونهما من زرقة البحر ، وكانتا عميقتين لا يسبر غورها ، ساحرتين ، فى نظراتهما فتنة وإغراء أو قل

كانتا ترسلان سهاما تشيع فى النفوس الخوف وأشعة رقيقة تبعث فيها الرجاء .

تمت الخطبة بين الفتى والفتاة وراحا ينعمان بالحب ويرشفان من منهله العذب . لم يتركا جنة إلا أظلتهما أغصانها وأحاطت بهما فيها الورود والرياحين وصدحت لهما الأطيار بأناشيد الغزل والنسيب . وكان الفتى يسر فى أذن حبيبته كلاماً حلواً فيه رقة وعذوبة . وكثيراً ما حدثها عن جمال الحب الذى يظل كلَّ حى فى الرياض ، ويقول إنى لأراه فى عش الطير حانياً على صغاره ، وأراه فى ثنايا الأزهار تنقله الحشرات من كم إلى كم . وقد يسعدنى كما يسعدك أن نرى لنا طفلا يكون موضع حبنا وزهرة آمالنا . وإنى لتواق إلى أن نعجل فنبنى هنا هذا العش الجميل . وكان أن بنى لها ذلك العش ووُهب لها فيه غلام . ولكنها أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها عن الطفل عند ما دفعته إليها إحدى القابلات . ودهش الحاضرون كما دهش الزوج عند ما رأوا جفوة الأم وإصرارها على أن يفصل بينها وبين ابنها مدة اعتكافها . وما كادت تتماثل حتى فرت وهجرت العش وخلفت فيه الزوج البائس والطفل الضعيف ، وتركت للزوج رسالة تبين له أسفها الشديد على ما فعلت ولكنها لم يكن فى طوقها أن تفعل غيره ، وأنها لم تركن إلى الفرار إلا حرصاً على حياة ولدها ولتنقذه من موت محقق ؛ فقد كانت أمنية الزوج أن تنجب له هذا الطفل العزيز لينعم بحبه فأرادت أن تحفظه له وليكون أثمن تذكار لها عنده . وفسرت ذلك بأنها خشيت على طفلها من نظرات عينيها ؛ فقد كانت أخفت على زوجها أنها كانت كلما نظرت إلى طفل لا تلبث أن تسمع نعيه بعد يوم أو يومين ، وأنها كانت تألم لذلك الألم كله وتعجب كيف تنقلب هذه النظرات التى كثيراً ما قيل إنها حلوة جذابة سمًّا زعافا يقتل هؤلاء الأبرياء الصغار . وقالت فى رسالتها : لقد حدث ، ويا لهول ماحدث ، أن جاء أخى يتوسل إلىَّ أكثر من مرة أن أزوره لأرى ابنه الصغير ، فكنت ألتمس المعاذير وألفقها لأتقى هذه الزيارة . وأخيراً يئس أخى من ذهابى إليه فحضر ومعه طفله ودفعه إلىّ فمات هذا العزيز بعد أسبوع . . .

« وهكذا ترى أيها الزوج العطوف أننى إنما فررت لينجو ولدنا من هذه النظرات القاتلة . وقد استقر عزمى على أن ألجأ إلى أحد الأديار المسيحية التى يتعبد فيها الناس خفية . وإنى لأقدم هذه التضحية راضية مطمئنة عسى أن يبدلنى الله بهذه النظرات القاتلة نظرات أخرى تحيي القلوب . فهم يقولون إذ

هذا الرسول الجديد يشفى المرضى ويحيي الموتى ، فلعله يشفينى مما أنا فيه من تعس وشقاء » .

وانضمت هريانا إلى أحد الأديار التى تعمل فى الخفاء على نشر المسيحية رغم ما تلاقيه من اضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد . وكثيراً ما يداهم عمال قيصر وجندهم هذه الأديار ويدكونها دكا على من فيها من أحياء ، وقد يأخذون من يبقى من ساكنيها حيا ويلقون به فى البحر إلى الأسماك الجائعة .

وحدث أن دهم الجند دير هريانا وأخذوا الراهبات ، وكان فيمن أخذوا هذه الراهبة التى وهبت نفسها بعد زوجها للسيد المسيح ، وصامت كثيراً وانقطعت للعبادة وضحت بهذا الشباب الغض الذى ذبل بين جدران محرابها الصغير تركع فيه أمام الصليب واصلة ليلها بنهارها حتى اختفى من نظراتها ذلك البريق المخيف الذى يبعث الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء الأبرياء الصغار .

قبض الجند على هؤلاء النسوة الضعيفات وأوثقوهن وأرسلوهن إلى تلك الصخور المتعطشة لدم الضحايا وإلى الأسماك الجائعة لتتغذى وتشبع ويجود لحمها ويطيب ويصلح لموائد القياصرة ويقدم قرباناً على مذابح الآلهة .

وضعت هذه الجثث الحية الموثقة فوق الصخور ومن حولها الجلادون العمالقة ، وقد وقف كبيرهم على رأسهم ملوِّحاً بيده فيلقون بإحدى هذه الضحايا التعسة إلى البحر . وما إن سمع « أنطونيو » بكارثة الدير وما انتهت إليه وعلم كذلك مآل زوجه الراهبة ، وكان لا يزال يكن لها الحب كله ، حتى أسرع وحظى بمقابلة قيصر ورجاه وألح فى الرجاء واستعطفه وألحف فى الاستعطاف حتى فاز أخيراً بعفو القيصر عن زلة زوجه على شريطة أن تهجر دينها الجديد وتعود إلى الوثنيــة الحقة دين قيصر ، وسلِّم أنطونيو رسالة فيها أمر بالعفو عن الراهبة هريانا .

وامتطى أنطونيو صهوة جواده وأخذ يضرب فى الأرض ويطويها طيًّا وهو يلوح بالرسالة فى يده فرحا بما وصل إليه قلقاً من أن يصل بعد فوات الوقت . .

ومفاجأة توقف صاحبنا البحار عن الحديث وكان قد نكس رأسه ثم رفعه ومضى يهذى بكلام غامض غير مفهوم لـكثرة ما شرب ، وساد الهرج والمرج بين الجماعة التى احتدم بينها النقاش ، وقام صاحبنا متثاقلا إلى سريره فى السفينة وطفق يغط فى نوم عميق

ولما أصبح الصبح هرعنا إليه والتففنا حوله ورجوناه أن يتم حديثه ، فنظر إلينا ساخراً وقال «أى حديث يارفاق . . ! دعونى أذهب إلى منزلى لأقابل زوجى وابنتى » . فصاح به أحدنا « أكنت إذاً تكذب على التاريخ » . فأجاب صاحبنا فى برود وسأم وكأنه لا يعرفنا « إن التاريخ يا سادة لزخار بالأكاذيب ، فلم لا نضيف إليه أكذوبة أخرى ! » . وغادر السفينة ونحن نشيعه بنظرات ملؤها الحنق والغضب .

حسين فرج زين الدين

مشكلة طنجة ومنافذ البحر المتوسط

أتى على البحر المتوسط حين من الدهر كان فيه قبلة أنظار المترفين من السياح والعلماء من مختلف أنحاء العالم ، يجوبون أنحاءه وينعمون بمباهجه ودراساته ، وذلك لما حبته الطبيعة من جو منعش صاف وشمس دافئة تبعث الحياة والنشوة فى النفوس ، وألوان زاهية ساحرة وشجيرات وفواكه وأعناب ونخل باسقة ، وآثار مما خلّفت المدنيات التى تتابعت على سواحله منذ القدم من معابد وكنائس ومساجد وتماثيل هى آيات من الفن والذوق والجمال قد اتخذت منها المدنية الحديثة مُثُلاً ونماذج تحاكيها وتقتبس منها .

وفجأة انطفأ بريق هذه المظاهر ، كأن عصا سحرية قد نفضت عنها غلالات الفن التى تسربلت بها طوال القرون الماضية ، وحولتها إلى حقائق عارية ليس فيها إلا مناطق سياسية ومعالم وقواعد حربية استراتيجية ، تصونها الجيوش والأساطيل وتحرسها القلاع والطائرات الحربية ، وترنو إليها الدول بعيون متيقظة شاخصة حريصة كل الحرص على ألا تنفرد دولة منها كائنة ما كانت بميزة الحراسة والتسلط فى هذا البحر المركزى والطريق العالمى الذى تمس مياهه سواحل أكبر وأهم مجموعة من شعوب العالم .

وليست الفترة القائمة الآن أول عهد البحر المتوسط بالعواصف والأعاصير التى ما فتئت تهب على سواحله وفوق مائه بين آن وآخر ؛ فقد ساير هذا البحر الشعوب التى سادت سواحله فى رقيها وتدهورها ، ففى التاريخ القديم احتكر الفينيقيون الملاحة فى أرجائه ، وكان ميداناً للكفاح بين الأغريق والفرس . ولما ظهرت دولة روما قام النزاع فيه بين روما وقرطاجة . فلما انتصرت روما فى النهاية صبغت حوض البحر المتوسط بمدنيتها وربطت شعوبه بما سنّته من قوانين وما مهدته بينه من طرق وما فرضته على رعاياه من ولاء لها ولأباطرتها . فلما سقطت الدولة الرومانية الغربية ورثتها القبائل المتبربرة فى الغرب والدولة البيزنطية فى

الشرق . أما الدولة البيزنطية فثبتت إلى أن جاء العرب ثم الأتراك فقضوا عليها وصبغوا شرق البحر المتوسط وجنوبيه بالصبغة العربية الإسلامية . وأما القبائل المتبربرة فقد اعتنقت الدين المسيحى ، وظلت المسيحية مسيطرة فى غرب البحر وشماليه إلى الآن .

ثم جاءت حركة الاستكشافات الحديثة قرب نهاية القرن الخامس عشر ، وساح ڤاسكو داجاما إلى الشرق حول رأس الرجاء الصالح ، وكشف كولمب عن القارة الحديثة ، فانتقل ميدان النشاط البحرى والتجارى من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى ، وتحول مركز الثقل فى العالم غرباً تاركاً دول البحر المتوسط وشعوبه فى ركود وسبات لم تُفِقْ منه إلا على دوىّ الثورة الفرنسية وصرخة نابليون فى مصر والشرق .

عند ذلك تنبهت الدول إلى أهمية البحر المتوسط وعادت الحركة إلى مياهه . وسرعان ما هبت الأنواء الحربية فألهبت أمواجه واهتاجت كوامن الأحقاد الدولية فى قاعه ، وسمع العالم قصف المدافع فى مواقع « أبى قير » « والطرف الأغر » و «نوارين» و « القرم » . ثم فتحت قناة السويس ، واستولت انجلترا على قبرص واحتلت مصر ، كما احتل الفرنسيون الجزائر وتونس ثم مراكش . وتحركت إيطاليا فى سنة ١٩١١ فاستولت على طرابلس وجزر الدوديكانيزا



وأخيراً اخترقت البحر الأحمر إلى أثيوبيا وكانت الشرارة التى اندلعت منها نار الحرب الأوربية الثانية .

***

هـذا كله كان من شأنه أن يجعل البحر المتوسط ميداناً للتسابق وحلبة للمنافسة الدولية الحادة ، حتى لم يبق شك فى ذهن أحد قبيل الحرب الأخيرة وفى أثنائها أن السيادة فى البحر المتوسط ستقرر مصير الحرب فى النهاية وأن النصر سيكون حليف الدول التى ستسود هذا البحر براً وبحراً وجواً .

وليس معنى السيادة فى هذا البحر هو ان تكون للدولة جيوش معبأة وأساطيل مجهزة وقواعد ومطارات محصنة ، فقد كان لإيطاليا فى الحرب الأخيرة شىء كثير من هذا ولم تفد منه فتيلا . إنما المهم أن يكون بيدها مفتاح إحدى « البوابتين » اللتين تحكمان إغلاق البحر شرقاً وغرباً ، فإذا أغلقتا فياشقاء الأساطيل والشعوب المعادية التى يضيق عليها فى الحصار فتبقى شبه مأسورة قابعة فى مكانها لاتستطيع حراكاً ولا تملك بيعاً أو شراء أو أى اتصال بالخارج .

والبوابتان مفتوحتان فى وقت السلم ، ولكنهما فى وقت الحرب بيد الحارس متى شاء يسر فتحهما لسفنه وجيشه ومهماته ولسفن حلفائه وعتادهم ، وأحكم رتاجهما ضد أعدائه . وتشاء المصادفات السياسية العجيبة أن يكون حارس البوابتين الذى بيده المفتاحان ، من غير أهل سكان البحر المتوسط ولا من أصحاب المصالح الحقيقية فيه ولكنه المالك الأول لحركة المرور منه وإليه ، وله على طول هذا الطريق نقط بوليسية يشرف منها على الحركة ويلوذ بها عند الحاجة .

أما الحارس فبريطانيا . وأما البوابتان فهما قناة السويس فى الشرق وجبل طارق فى الغرب . وأما النقط البوليسية فأهمها مالطة وقبرص وعدن .

ولما كان البحر المتوسط هو الشريان الحيوى للتجارة والمواصلات بين الغرب والشرق فإن كلا من الدول العظمى حاولت ، بقدر ما أوتيته من حول وسياسة ، أن تكسب لنفسها حقوقاً توازن بها بعض ما كسبته بريطانيا لنفسها وتحول بواسطتها دون تسلط بريطانيا تسلطاً كاملا فى مصاير هذا البحر العظيم ، وفى مقدمة هذه الدول روسيا إذ ضاقت ذرعاً بتجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور السنة ، فوطدت عزمها على أن يكون لها منفذ إلى البحر المتوسط

وحاولت من أجل ذلك ، ولا تزال تحاول إلى الآن ، أن يكون بيدها مفتاح البوابة الخلفية المعروفة « بالمضايق » أو أن يكون المفتاح تحت تصرفها فلم تفلح ؛ لأن تركيا الحارس الأصلى للبوابة قد هبت أخيراً من رقادها وقبضت على المفتاح بيد من حديد ولا سبيل إلى اغتصابه منها إلا بحرب عارمة . وتقوم سياسة روسيا الآن فى البحر المتوسط على فكرة تحطيم مفاتيح هذه المنافذ جميعاً وجعلها حرة للجميع ، أو إنشاء قواعدها تتخذ منها ملاذاً وعتبة للوثوب منها عند الحاجة ، فإذا تعذر تنفيذ هذا أو ذاك فلا حرج إذن أن يعهد بالبوابات ومفاتيحها إلى مجلس الأمن العام الذى يمثل الأمم المتحدة ، ولا بد أن يكون لروسيا فيه مكان مرموق .

أما فرنسا فقد شاءت المصادفات السياسية العجيبة أيضاً أن تخدمها فى القرن التاسع عشر خدمة عظيمة لم تكن تخطر لها على بال ، وخاصة بعد ضياع مستعمراتها فى أمريكا وآسيا وبعد انهزامها على أيدى بروسيا ، إذ تهيأ لهـا أن تقيم على ساحل إفريقية الشمالى إمبراطورية فرنسية عزيزة الجانب منيعة القواعد . وقد بدأت باحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ ، ثم أعلنت حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ومن هذين الإقليمين تغلغل النفوذ الفرنسى إلى مراكش .

***

ولما كانت مراكش على مقربة من البوابة الغربية ، ومنها تستطيع فرنسا إذ خلا لها الجو فى منطقة المغرب الأقصى أن تصطنع بوابة أخرى تواجه جبل طارق وتنافسها بل تهددها — قام الحارس الأصيل لتلك البوابة وقامت معه الدول الأخرى ذوات المصالح فى البحر يحولون دون تحقيق مأرب فرنسا ، واشتد الخلاف والتنافس بينها وبين انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فكانت فرنسا تعرقل مساعى انجلترا فى مصر والسودان ، وانجلترا وألمانيا تعملان ضد فرنسا فى شمال إفريقية ، حتى كاد الخلاف يفضى فى النهاية إلى إعلان الحرب بينهما أثر حادث فاشوده سنة ١٨٩٨ غير أن سُحُب الخلاف ما لبثت أن تبددت بفضل مساعى الوزير الفرنسى الشهير دلكاسيه Delcassé الذى آمن بأن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى يجب أن تخشاها فرنسا وأن أمن فرنسا ونجاتها لا يتحققان إلا على أساس معاهدة تحالف مع بريطانيا من جهة ومع روسيا من جهة أخرى . وكان

الصفاء بين انجلترا وألمانيا قد تعكر على أثر إعلان إمبراطور ألمانيا خطته البحرية التى أراد بها منافسة انجلترا فى تفوقها البحرى ، فسارع الملك ادوارد السابع إلى تمهيد الطريق لعقد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى أبريل سنة ١٩٠٤ وهو أساس التحالف الحديث بين الدولتين .

وبمقتضى هذا الاتفاق تركت انجلترا تنفذ برنامجها فى وادى النيل كما تركت فرنسا تعمل حرة فى مراكش ، ولكن بتحفظين مهمين تفاهمت عليهما الدولتان : الأول أن ساحل مراكش الشمالى الغربى المواجه لجبل طارق لا يدخل فى المنطقة الفرنسية وإنما يحتفظ به لأسبانيا ، وهى الدولة الضعيفة التى لا تقوى على مناهضة انجلترا أو الكيد لها . والثانى أن ميناء طنجة يصبح ميناء دوليًّا محايداً فتزال حصونه وتهدم قلاعه ويمنع تسليحه . وكان سلاطين بلاد المغرب قد أرادوا أن يحولوا دون توغل ممثلى الدول فى داخل أراضى السلطنة فقرروا أن يكون مقامهم فى ميناء طنجة بمنأى عن العواصم الوطنية ، فكان هذا بدء اصطباغ طنجة بالصبغة الدولية .

وكانت أسبانيا فى هذه الفترة من الزمن قد نهضت من كبوتها أثر انهزامها فى الحرب الأمريكية الأسبانية سنة ١٨٩٨ وضياع جزر الفلبين وكوبا وبورتو ريكو من حوزتها وصممت أن تصلح من حالها وتعوض بعض ما فقدته فى الداخل والخارج من ثروة ونفوذ ، فأحدثت انقلاباً اقتصاديا صناعيا نهضت على أثره البلاد نهضة شاملة ، ثم ما لبثت أسبانيا أن أدركت أنها أقرب دول أوربا إلى مراكش ، وأن الصلات بينها وبين بلاد المغرب كانت فى بعض أحقاب التاريخ من الوثاقة بدرجة جعلت بعضهم يقول إن حدود إفريقية الشمالية تبدأ فعلا من جبال البرانس . لذلك لم تجد فرنسا بدًّا من إرضاء أسبانيا جارتها وقريبتها اللاتينية البوربونية ، فعقدت معها أيضاً معاهدة فى أكتوبر سنة ١٩٠٤ وافقت فيها فرنسا على منطقة النفوذ الأسبانى فى الشمال الغربى مقابل اعتراف أسبانيا بمركز فرنسا الخاص فى مراكش .

وما كادت ألمانيا تعلم بخبر المعاهدتين حتى ثارت ثائرتها واعتبرت اتفاق هذه الدول وإهمالهم شأن ألمانيا فى أمر دولى عظيم الخطر كهذا إهانة للشرف الألمانى الرفيع لا يغسلها إلا الدم أو التهديد بإراقته . وكانت روسيا حليفة فرنسا قد منيت بهزيمة منكرة أمام اليابان ، فقام وليم الثانى إمبراطور ألمانيا — وكان إذ

ذاك فى إبان سطوته وجبروته — وتحدى فرنسا وانجلترا وأعلن أنه سيزور طنجة بنفسه ليبرهن للعالم على أن سلطان مراكش لا يزال ملكاً مستقلا حقيقاً بزيارة إمبراطور ألمانيا، وأن انجلترا وفرنسا لا تستطيعان أن تفرضا إرادتهما على العالم فى غيبة ألمانيا. وفعلاً نزل الإمبراطور بطنجة فى مارس سنة ١٩٠٥ فى أثناء رحلة له فى البحر المتوسط وحمل سلطان مراكش على أن يدعو الدول الى مؤتمر دولى عقد فى يناير سنة ١٩٠٦ فى « الجزيرة » إحدى موانىء أسبانيا الجنوبية لبحث موضوع مراكش. ثم ما لبث أن سقط « دلكاسيه » وزير خارجية فرنسا الذى ألف الاتفاق الودى ضد ألمانيا، فكان هذا أكبر نصر سلمى صادفته سياسة وليم الثانى إمبراطور ألمانيا.

غير أن مؤتمر الجزيرة لم يحقق آمال ألمانيا فإن إيطاليا انحازت إلى جانب انجلترا، ولم تستفد ألمانيا كثيراً من وجود النمسا إلى جانبها. وعلى ذلك انتهى المؤتمر بتقرير سياسة « الباب المفتوح » فى مراكش مع المساواة الاقتصادية لجميع الدول، كما قرر أن لفرنسا مركزاً خاصًّا فى مراكش لتجاور أراضيها وتقارب مصالحها. وعلى ذلك تشجعت فرنسا فواصلت سياسة التدخل فى مراكش معتمدة على صداقة بريطانيا وعلى سكوت إيطاليا بعد أن ألقموها طرابلس وجزر الدوديكانيز. وفى ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية فاس، فتحركت ألمانيا وأرادت أن تلقى الرعب فى قلب فرنسا فأرسلت سفينة حربية تحتل « أغادير » على ساحل الأطلنطى، فتراجعت فرنسا وطلبت المعونة من الحكومة الإنجليزية فأعلنت هذه بلسان وزيرها لويد جورج أن انجلترا ستقف إلى جانب فرنسا وأنها لن تسمح بنزول الألمان فى أية بقعة من شمالى غربى إفريقية. فهدأت الحال نوعاً وسارعت فرنسا إلى مفاوضة ألمانيا رأساً وقدمت لها لقمة دسمة سائغة من إقليم الكنغو الفرنسى مقابل اعترافها بمركز فرنسا الخاص فى مراكش. وبذلك انتهت الأزمة المغربية الثانية التى كادت تضرم نار الحرب بين الدول وتعجل بالحرب الأوربية الكبرى وتقدمها ثلاث سنوات عن موعدها المحتوم.

وبعد ذلك لم تلق فرنسا فى بلاد المغرب أى اعتراض يؤبه له، فأعلنت حمايتها سنة ١٩١٢ وانقسمت مراكش إلى ثلاث مناطق: المنطقة الكبرى وتخضع للنفوذ الفرنسى، والمنطقة الثانية وتخضع للنفوذ الأسبانى ولا تزيد مساحتها على ١٥٠٠٠ك. م مربع وعدد سكانها نحو ٧٥٠٠٠٠ وبها ميناء « سبتة » Ceuta

التى تضارع جبل طارق فى مناعته ولـكنها فى يد أسبانيا لا أهمية لها . وفى هذه المنطقة قبائل الريف المشهورين بشجاعتهم وحسن بلائهم ضد الأسبان، وقد دوّخ زعيمهم عبد الـكريم قواد أسبانيا من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٢٧ ولولا تعاون الحـكومتين الفرنسية والأسبانية عليه لقضى عبد الـكريم على النفوذ الأسبانى فى شمالى إفريقية . ثم منطقة طنجة الدولية ولا تزيد مساحتهـا على ٢٢٥ ميلا مربعاً وسكانها نحو ٨٠٫٠٠٠ أكثر من نصفهم مسلمون و ٨٠٠٠ من اليهود و ١٤٠٠٠ أسبانى . والمنـاطق الثلاثة خاضعة اسماً لسيادة سلطان مراكش ، فيمثله فى مراكش الأسـبانية « الخليفة » ويمثله فى طنجة « المندوب » .

وقد حاولت الدول قبيل الحرب العالمية الأولى أن تقرر نظاماً ثابتاً لطنجة خارج نطاق الحمايتين الفرنسية والأسبانية ، ولكن جاءت الحرب وشغلت الدول بمشا كل السلم ولم تستفق لطنجة إلا فى سنة ١٩٢٣

***

وكانت فرنسا تطمع وفق خطتها — عقب الحرب العالمية الأولى — فى ضم طنجة إلى الحماية الفرنسية ، ولـكن انجلترا ومعها أسبانيا عارضتا فى ذلك ، واستقر الرأى فى النهاية على وضع نظام دولى محايد خضعت له إلى سنـة ١٩٤٠ حين تشجع فرانكو على أثر انكسار فرنسا فأعلن انقضاء النظام الدولى وضم طنجة إلى حكم أسبانيا مباشرة .

ويقضى النظام الذى وافقت عليه الدول الثلاث فرنسا وانجلترا وأسبانيا فى باريس فى ديسمبر سـنة ١٩٢٣ بأن يكون لطنجة مجلس تشريعى مكون من ٢٦ عضواً تمثل فيـه الجاليات الأجنبية والمسلمون واليهود ، كل طائفة بحسب أهميتها ، وتكون السلطة التنفيذية بيد هيئة المراقبة التى تتألف من ممثلى الدول الثلاث ومندوب السلطان ،ولهذه الهيئة بأكثرية الآراء حق منع تنفيذ القرارات التى تصدرها الجمعية التشريعية . ويعين للميناء حاكم إدارى فرنسى له مساعدان أحدهما أسبانى والآخر بريطانى . ولطنجة محاكم مختلطة تقضى بين الأجانب . أما المسلمون واليهود فلهم محاكمهم الخاصة . ولم تشترك فى هذا النظام إيطاليا ولا أمريكا وروسيا ، ولـكن إيطاليا اشتركت فى سنة ١٩٢٨ بمساعى انجلترا حتى

تأنس بصوتها إلى جانبها هى وأسبانيا ضد فرنسا ، ولم يقع فى وهم انجلترا أن تنحاز الدولتان إلى أعدائها .

ولما كانت الجالية الأسبانية فى طنجة هى أكثر الجاليات الأجنبية عدداً فإن مركز أسبانيا فى طنجة جعل يقوى على مر الزمن وخاصة بعد قيام الحكم الجمهورى بها سنة ١٩٣١ ، فعين اسبانى لقيادة البوليس وعين وكيل أسبانى للجمارك كما عين أسقف أسبانى للرياسة الدينية الكاثوليكية ، وزيد عدد ممثليها فى اللجنة التشريعية .

ولم تفد طنجة كثيراً من نظامها الدولى بل أصبحت مباءة لكل ما عرف عن النظم الدولية من مفاسد .

والحق أن من الظلم البين على مراكش أن يفرق بينها وبين ثغرها الأول طنجة فتعقد اللجان لبحث نظام طنجة وحدها كأن طنجة ليست من صميم مراكش .

إن طنجة ومراكش كلها بل تونس والجزائر أيضاً ، كل هذه تؤلف جميعاً مسألة واحدة تقع تحت عنوان واحد هو الاستعمار الفرنسى فى جنوبى البحر المتوسط وشعوب البحر المتوسط سواء أكانت تسكن شرقيه أو غربيه أو فى جنوبه ، شعوب ناهضة لها ديانات إلهية وشرائع وأدبيات ، وكان لهم فى الماضى تاريخ مجيد ومدنيات اقتبست منها المدنية الحديثة نوراً وعرفاناً ولهم آثار وتقاليد يعتزون بها وتحفزهم للعمل على استرداد استقلالهم ومجدهم الغابر . ولهم فوق ذلك لغة شريفة شائعة ، وبينهم وشائج نسب وقربى تربط بينهم وبين إخوانهم أعضاء جامعة الدول العربية . فخليق بالحلفاء أن يواجهوا الحقائق بجلاء وشجاعة ، فيبحثوا مشكلة شعوب شمالى إفريقية مرة واحدة ولا يكيلوا لشعب كان تحت حكم إيطاليا بصاع وللشعوب التى تحملت النير الفرنسى بصاع آخر ؛ فإن الجميع قد استعبدهم الاستعمار وهم أحرار ، وأرهقهم الظلم وهم أبرياء ، وقد استجاب الجميع لصيحة الحق والحرية المنبعثة من وراء المحيط الأطلنطى فقدموا بلادهم وأرواحهم ثمناً للنصر ومهراً للحرية التى كانوا يظنونها بالأمس قريبة المنال فلما أصبحوا لم يجدوها ويا للأسف إلا سراباً !

محمد رفعت

LA NATIONALISATION DE LA LITTERATURE

J. P. SARTRE

تأميم الأدب

[ننشر هذا المقال الرائع الذى تفضل بارساله إلينا الكاتب الفرنسى العظيم جان پول سارتر . وسيرى القراء أنه يعرض لموضوع عظيم الخطر هو الصلة بين الأدب والسياسة والاجتماع . وكل ماتتمناه هو أن يتدبر أدباؤنا هذا المقال القيم ، فقد يدعو كثيراً منهم إلى التفكير ، وقد يثير فى نفس كثير منهم خواطر قيمة] .

فى سنوات الفوضى الشاملة التى تلت معاهدة ڤرساى كان المؤلفون يستحيون من الكتابة ، وكان النقاد لا يرغبون فى القراءة . ولم يكن الإنسان يجد أدباء فى الأندية الأدبية ، بل يلتى فيها أشخاصاً احترفوا الكتابة فى الغزل الماجن والإجرام واليأس والثورة والتصوف . وكان هؤلاء الكتاب يقبلون ، على أثر إلحاح ناشريهم ، أن يصدروا رسالة مرة أو مرتين فى كل سنة . ولما كانوا لا يعيرون قراءهم أقل اكتراث ، فضلاً عن أنه أصبح من الأمور المتفق عليها أنه ليس فى وسع الألفاظ التعبير عن المعانى ، فإن الجمهور كان يشترى كتباً كثيرة ولكنه يقرأ قليلا . وإذا ما دفع الشعور بتبعة المهنة أحد محررى الصحف إلى التفرغ بضع ساعات لهذه المهمة ، فإن نظره كان ينفذ خلال النص كما تنفذ الشمس خلال زجاج النافذة ، ويبلغ الرجل نفسه فيجعله موضوع كتابته . ذلك أن ذوق العصر كان يميل إلى الإرهابية . وكانوا يفترضون أن المؤلفين لم يكتبوا قط ، وإذا ما نظروا إلى مؤلفاتهم فلم يكن ذلك إلا باعتبارها مجموعة من المعلومات المنوعة عن خُلُقهم . وكانوا يتحدثون عن وسائلهم الكتابية وعن أساليبهم البيانية ، كأن الأمر لم يكن متعلقاً بحيل فنية يصطنعونها ، بل

بتفاصيل شيقة تتصل بحياتهم الخاصة . فلم يكونوا يذكرون عن «جيرودو» أنه نشر هذا الكتاب أو ذاك ، بل « أنه يأخذ بيدنا ، ويجعلنا ندور معه . بخيل إلينا أننا نتبعه فى « بيلاك »[1] وهانحن أولاء فى الصين ، تراه يرمى بسهم يصوبه نحو برلين وإذا بطير من طيور الجنة يهوى من السماء فى «ميلووكى»[2] » ونستطيع أن نتبين من هذا إلى أى مدى وصل الاحتقار فى ذلك الوقت للمسائل الأدبية الخالصة .

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، وقد أعيد إلى الأدب وإلى البيان كرامتهما وسلطانهما . ولم يعد المقصود إشعال نيران فى أدغال الحديث ، والمزاوجة بين « ألفاظ » يحرّق بعضها بعضاً ، وإدراك المعانى المطلقة بإحراق مفردات القاموس ، بل أصبح الغرض من الكتابة تحقيق الاتصال بين الكاتب وغيره من الناس عن طريق استعمال الوسائل الموجودة القريبة من متناول اليد استعمالا متواضعاً . وإذ قد زال الزَّهْو الذى كان يقضى بفصل الفكرة عن اللفظ ، واستقلال كل منهما عن الآخر ، لم يعد من الممكن حتى أن نتصور احتمال أن الألفاظ لا تعبر عن الفكرة تعبيراً صادقاً . وقد استرد قدر من الأمانة والصدق يسمح بألا يُقبل حكم يصدر على أساس هذا الشعور الفائق الوصف البعيد المنال الذى لا تستطيع الألفاظ الإفصاح عنه ولا يسع الأفعال بيانه . وقد رئى أنه لا يمكن تعرف النيات إلا عن طريق الأعمال التى تخرجها إلى الوجود وتحققها ، ولا تبين المعانى إلا عن طريق الألفاظ التى تترجمها وتعبر عنها . وعاد النقاد على أثر ذلك إلى القراءة . وكان هذا خير ما يمكن أن يرجوه الإنسان ويتمناه ، لو لم يظهر فى الأسلوب الذى يصطنعه النقاد للتحدث عن الآثار الفكرية بوادر اتجاه جديد أشد خطراً من الاتجاه القديم . نعم إنه لم يعد أحد ينظر إلى المؤلف على اعتبار أنه رجل شاذ أو مجنون أو قاتل أو دجال ، أى على أنه دمية من هذه الدمى التمثيلية المهرجة . بل على العكس لا يترك النقاد فرصة تمرّ دون أن يذكّروه بعظمته وبالواجبات الملقاة على عاتقه .

ولست أدرى حيال ذلك أخير للكاتب أن ينظر إليه على أنه من هذه

---

(١) القرية التى ولد فيها بفرنسا .
(٢) مدينة فى الولايات المتحدة .

[التعليقات كلها من المترجم]

الدمى التمثيلية ، من أن ينظر إليه تلك النظرة الرسمية التي ينظر بها إلى موظف حكومي ذى مركز محترم . فان الوقار الذى يحاط به الكاتب يذكر تذكيراً قوياً بذلك الوقار الذى يوجه إلى السيدات العاملات فى الجمعيات الخيرية وإلى كبار موظفى الحكومة . وقد قال لى ذات يوم شخص ذو مكانة رسمية وهو يتحدث عن « دولان [1] » : « إنه ثروة وطنية » . لم أضحك من هذا القول لأن القلق يساورنى بسببه ؛ إذ أنى أخشى أن يسعى اليوم عن طريق مناورة ماهرة إلى تحويل الكتاب ورجال الفن إلى ثروات وطنية . لا شك أن لنا أن نغتبط من أن الحديث عن حوادثهم الغرامية قلّ ، وأن قد زاد من ناحية أخرى التحدث عن آثارهم نفسها . إنما هذا الحديث الأخير يغمره إجلال مغالى فيه وزائد عن الحد . وليس مرجع ذلك أن النقاد ازدادوا تسامحاً ، أو أنهم يتساهلون فى المدح والثناء ، إنما مرجعه أن هؤلاء النقاد لا يستطيعون وضع المؤلفات التى يتحدثون عنها فى مواضعها إلا بصعوبة كبيرة . وقد أتى على الأدب حين من الدهر كان مجرد الاجتراء على نشر كتاب — بعد ما كتبه « راسين » أو « فينيلون » أو « بسكال » — يعد وقاحة بالغة . ولم يكن تفوّق الكاتب — مهما امتاز هذا التفوق — من شأنه أن يجلب له الصفح عما ارتكب من جرم باقباله على الكتابة . أما اليوم فالأمر على عكس ذلك . والآثار الأدبية الجديدة ينظر إليها حتى قبل ظهورها نظرة فيها كثير من الرضا والعطف . على أن هذه الرعاية لا تتجه إلى ما يبذل الفنان من جهد للتعبير عن شعوره ، وهو دائماً جهد فردى منعزل وفيه كثير من التردد وعدم الاستقرار . إنما مبعثها أنه ينظر إلى كل كتاب جديد كأنه حفلة رسمية ، أو إن شئت فقل كأنه مساهمة مطاوعة للاشتراك فى أعياد الجمهورية الرابعة واحتفالاتها . ولا يُنقد هذا الكتاب على أنه ثمر ما زال فجّاً ولا يزال فى حاجة إلى النضج حتى يستخلص منه كل ما ينطوى عليه من قيمة ومن معان ، بل يُتحدث عنه كما يتحدث عن وليمة يقيمها المحاربون القدماء ، أو عن ذلك المعرض السنوى الذى يقام للسيارات . وقد أخذ جمهور قراء الأدب يحذو هذا الحذو وينتهج هذه السبيل . ففى بعض الأوساط لم يعد يقال عن قصة أو قصيدة أو عن أى أثر أدبى إنه رائع أو طريف

---

(١) أحد كبار المخرجين المعاصرين في المسرح الفرنسي .

أو مؤثر ، إنما يتخذ صوت رخيم ينطوى على كثير من الاهتمام للإدلاء بهذا النصح : « عليك بقراءته فانه مهم جداً » . مهمٌّ كأنه خطاب يلقيه بوانكاريه يوضح فيه سياسته المالية ، بمناسبة إزاحة الستار عن نُصب تذكارى للموتى ، أو كأنه حديث يدلى به زعيم من زعماء العمال . تصور مثلا أن مدام دى سيفينييه تكتب لابنتها : « لقد شاهدت مسرحية « إستير » ، إنها خطيرة جداً ».
هل يتحول الأدباء فيصيروا رجالا مهمين ؟

ثم كيف نستطيع أن نحكم على خطورة مؤلفات تبتدئ فى وجودها ؟ أليس ينبغى أن تمر مائة عام حتى يمكن تقدير هذه الخطورة ، وذلك بالحكم على نتائج هذه المؤلفات وعلى ما أحدثت من أثر ؟ وسرعان ما تدرك النهج الذى ينتهجه النقاد ومدّعو الحكم فى الأدب . فاهتمامهم بتقدير الكتاب فى نفسه أقل من اهتمامهم بتقدير ما سيكون لهذا الكتاب من أثر فى الوقت الحاضر وفى المستقبل تقديراً إجماليـًا مقدماً . وعلى ذلك فإنهم يرسمون فى الحال التيارات الأدبية التى سيوجدها ، ويحللون الدور الذى سيقوم به فى حركة اجتماعية لم تنشأ بعد . فعند ما نشر مسيو « جوليان جراك »[1] كتابه « المظلم الرائع » بادر النقاد إلى التحدث عن « عودة إلى السوريالزم » . عودة مَنْ ؟ فإن مسيو جراك لم يُفارق هذا المذهب فى يوم من الأيام . وحتى إذا رجعنا إلى « قصر أرجول »[2] فأننا نتبين على عكس ذلك أنه يبتعد كثيراً عن أسلوبه الأول . غير أن نقادنا الحاذقين لا يكترثون بإظهار ما فى آراء الكاتب من اتصال ، أو ما يطرأ على شخصيته من تطوّر بطيء مع محافظتها على نهج أساسى واحد . وإنما ينظرون إلى الأثر الأدبى فى نفسه ، كأنه منفصل عن مؤلفه . ففى سنة ١٩٤٥ أى بعد تحرير فرنسا بستة أشهر قامت « ظاهرة من ظواهر مذهب السوريالزم » . هذا وحده ما يسترعى اهتمامهم . وكان هذا أسلوبهم فى النقد حتى قبل الحرب ؛ إذ كانوا يقولون عند ما ظهر « سان ساتورنان[3] » : « هذه القصة تعتبر مرحلة هامة ،

---

(١) من الكتاب المعاصرين الملحوظين . وكتابه المذكور « المظلم الرائع » يدخل مذهب « السوريالزم » فى الأدب دون أن يعتبره مذهباً خاصاً ، بل باعتباره أسلوبا طبيعياً من أساليب الكتابة .

(٢) ظهر قبل « المظلم الرائع » . وهو أول كتاب أصدره وعرّفه إلى الجمهور .

(٣) قصة ظهرت حوالى سنة ١٩٣٥ .

إذ أنها تدل على عودة النظام إلى الأدب » . ما أعجب هذا الحكم ! فإن نشأة مسيو « شلومبرچيه » والتحاقه بحزب النظام يعتبران مرحلة واحدة . وإذا نظرنا إلى أصحاب الشغب والاضطراب أمثال « بريتون » و « كوكتو » فإنى لا أظن أن « سانت ساتورنان » قد أثّر فيهم أقلّ تأثير ، بل لعلهم لم يقرءوه . ومع ذلك فإن مثل هذا الاعتراض لا يزعجهم فى قليل أو فى كثير . فكل عام جديد ، بل كل مطبوع جديد يعتبر فى نظرهم بدء مرحلة أو نهايتها ، أو كأنه فى نفس الوقت بداية ونهاية . وهذا أحد النقاد يتنبأ لنا بأن أمامنا عشرين عاماً عجافاً لن تظهر آثار هامة قبل مرورها . على أن غيره يرى فى نفس الوقت أن تلك الفترة ستأتينا بسنوات سمان ، وهو يبين لنا فى دقة كيف أن أدب المستقبل القريب سيكون خصباً بسبب ما أحدثه الاحتلال من آلام وما أنزله من مِحَن . ويحذّرنا ثالث من خطر التأثير الأمريكى فى الأدب الفرنسى ، أى إن أمامنا عشرين عاماً من القصص الأمريكى . على أن رابعاً يهدئ من روعنا ، لأن نشر قصة ، ولا أدرى أية واحدة هى ، كان بمثابة الناقوس الذى يؤذن بوفاة هذا التأثير السيئ وانقضائه ، فى حين يقول خامس وسادس وسابع بظهور مذاهب أدبية جديدة يستكشفونها فيما نحن فيه من اضطراب . فيقولون لنا إن هناك مذهباً « وجودياً [1] » يمتد أثره فيشمل فنون الرسم والتصوير ؛ إذ أنه يوجد رسامون ومصورون « وجوديون » ، بل موسيقيون « وجوديون » . ويظهر — وأنا أعتذر من التحدث عن نفسى — أن لى فى ذلك شأناً . على أننا إذا صدّقنا ناقداً آخر فليس لى أى دخل فى ذلك ، إذ أنى زعيم مذهب « السوريالزم الجديد » ، وتحت لوائىْ « إيلوار » و« بيكاسو » (وأنا أستميحهما كل العذر من ذلك ؛ فإنى ولله الحمد ، لم أنسَ بعد أنى لم أكن إلا طفلا غِرًّا فى الوقت الذى بلغا فيه مكانتهما الفنية التى يؤمن لهما بها الناس جميعاً) . وآخر مذهب ظهر مذهب « التبؤس » وهو مذهب من حداثة العهد بحيث لم أعرف بعد أن له من يمثله بين الأدباء . وإلى جانب هذا فهناك ألوان أخرى من العبث ، مثال ذلك أن يحلو لبعضهم أن يصوّروا لنا الكتاب الذى ننتظره . وهم يرونه كما كان « چوفروا روديل [2] » يرى الأميرة النائية . ويجدون عبارات

(١) يعتبر « سارتر » كاتب هذا المقال زعيم هذا المذهب فى فرنسا .
(٢) شاعر من شعراء القرون الوسطى .

يتحدثون بها عنه تبلغ من الإقناع حداً يجعلنا نراه معهم . وها هو ذا العالم قد جعل ينتظر فى شوق عظيم هذه القصة التى أصبحت قصة المستقبل ، والتى أسبغ عليها منذ الآن مسحة من وقار الحفلات الجليلة الرهيبة . سنجد فيها تصويراً لسمائنا وآمالنا وغضبنا . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نجد متطوعاً يكتبها . ويذهب ناقد آخر إلى أننا نجتاز الآن ثورة ؛ فلأدبنا إذن كل خصائص أدب الثورات ، ثم هو يسرد هذه الخصائص . ومن ذا الذى لايفهم حَنَق هذا الناقد الأخير عند ما يتبين فيما بعد أن الكتّاب الشبان من الخفة والرعونة بحيث لايحققون نبوءاته . لابد أن يكونوا كتّاباً أدعياء ، هدّامين ، بل لعلهم من المحافظين الرجعيين . وقد تحدث أحد النقاد فى الشهر الماضى عن قصة فرنسية ممتازة عن الأنصار البولنديين ، فكتب فى كل اطمئنان وبساطة : « إنها قصة المقاومة » . ولو أننا كنا فى الأزمنة الماضية لامتنع النقّاد عن الحكم على المستقبل بهذا الشكل الجازم الذى يقطع كل سبيل ، ولتركوا فرصة للروس والبلجيكيين والهولنديين والتشيك والإيطاليين ، بل للبولنديين أنفسهم وللآلاف من الفرنسيين المتحفظين بكتاب عن هذا الموضوع . أما الناقد المعاصر فلا يبالى بمثل هذا الاحتياط السخيف ، فإن لذته فى تعميم الأحكام وتطبيقها على الحالات المشابهة . وعند ظهور أى أثر أدبى جديد يقوم بعمل حساب ختامى ، كأنّ هذا الأثر حدٌّ بين انتهاء التاريخ والأدب . فنرى « الحساب الختامى للاحتلال » و « الحساب الختامى لسنة ١٩٤٥ » و « الحساب الختامى للأدب التمثيلى المعاصر » . هو مغرم بهذه الحسابات الختامية . وليسهّل على نفسه وضعها يقف بجرة قلم سير الكاتب فى مهنته . مثال ذلك أن كثيراً من النقاد قرروا بكل اطمئنان ودون تردد بعد ظهور « المدعوة » و « إنريكو » أن « سيمون دى بوفوار [1] » وأن « مولوجى [2] » لن يكتبا شيئاً بعد ذلك . كما أنى أذكر أن ناقداً كان يسائل : ألا يكون « الغثيان » ، وهو أول كتاب لى ، فى نفس الوقت « وصيتى الأدبية » ؟ وكانت هذه دعوة رفيقة ، إلى التوقف ؛ إن المؤلف الذى يعرف كيف يعيش يكتب

---

(١) زوجة « سارتر » وتعتبر من أنصار المذهب « الوجودى » .

(٢) كاتب شاب من الملحوظين . اكتشفه « سارتر » . والده من سكان أفريقية الشمالية ، ووالدته فرنسية .

وصيته الأدبية فى سن الثلاثين ، ثم يقف عند هذا الحد . والشنيع من أمر هؤلاء المؤلفين الجادين المجتهدين الذين يخرجون كتاباً كل عامين أن النقاد ملزمون فى كل مرة أن يعيدوا النظر فى الأحكام السابقة التى أصدروها عنهم . وإذا كانوا فى كل مرة لا يستطيعون أن يقدّروا بالضبط مصير الكتّاب الناشئين من حيث النجاح والإخفاق ، فإنهم يجدون أنفسهم عند ما يظهر كاتب جديد فى موقف هذا « القارئ » الذى يعمل فى دار كبيرة من دور النشر والذى كتب على مخطوط أرسله إليه « بيير بوست [1] » وعلى أثر قراءته لهذا المخطوط : « يسأل « بييربوست » عن المؤلف ، أموهوب هو؟ » . والسؤال عن المؤلف الموهوب فى لغة الناشرين معناه : كم كتاب فى صدره ؟ وقد قرر النقاد أنه لايوجد فى صدر « مولوجى » إلا كتاب واحد ، أى إنهم بادروا فى الحكم على هذا الشاب وأصدروا حكمهم عليه كأنهم انتقلوا الى المستقبل ، فى نهاية حياته الطويلة ، واستقروا استقراراً ثابتاً فى هذه اللحظة الدقيقة الممتازة التى تفيض فيها نفس « مولوجى » والتى يمكن فيها طبقاً للحكمة القديمة أن يقرّر أعاش سعيداً أم شقيًّا ، مجنوناً أم عاقلاً . وهم ينظرون إلى « أزيكو » ، وهو الأثر الأدبى الوحيد لهذا المتوفى ، وعلى اعتبار أنه لم يصدر بعده أى أثر آخر من شأنه أن يدفع على إعادة النظر فى الموضوع ، فيصدرون عليه حكماً نهائيا . قد تقول : لكن « مولوجى » أصدر كتاباً ثانيا بعد ذلك . هذا صحيح ، ولكن كان مخطئاً حين أصدر هذا الكتاب ، وقد بيّن النقّاد له ذلك بشكل جلى واضح .

مامعنى كل هذا ؟ وما الصلة بين الخواطر المختلفة المتناثرة التى عرضناها ؟ عندما تستاء من قراءة مقال فى إحدى الصحف فقلما تفكر فى كاتبه . ولو أنك فكرت لما وجد سخطك لنفسه تكأة ، ولهبط استياؤك ، إلا إذ كان المقال صادراً عن رجل شهير . وإذا بدا لك هذا المقال على أنه سخرة كلف به محرر مسكين حرره فى الليل وسط ضوضاء غرفة التحرير المشتركة ، فإن غضبك سيتحول إلى رثاء . ذلك أنك لاتنظر إلى الألفاظ التى تثير سخطك على أنها إشارات مطبوعة على الورقة التى بين يديك ، بل يخيل إليك أنك تسمعها مترددة على آلاف الشفاه كأنها هفيف الريح فى اليراع . وكل واحد من هذه الألفاظ حدث اجتماعى مادام قد مر من

(١) قصصي معاصر

شفاه البعض إلى آذان البعض الآخر ، ومادام كان سبباً فى إيجاد اتصالات متكورة بين مختلف اعضاء الهيئة الاجتماعية . وفى نهاية الأمر لانجد للمقال صلة على الاطلاق بالهذيان الليلى الذى يصدر من صحفى غير مسئول ، انما هو تمثيل مجموعى عام ينتشر خلال مئات الآلاف من الأذهان . وهو باعتباره تمثيلا مجموعياً يبدو لك فى نفس الوقت ضاراً ! ومحاطاً بالجلال . وقد اتفق النقـاد والأدباء اليوم على النظر إلى أى كتاب نظرتهم إلى مقال فى صحيفة يومية . ولايشغلون أنفسهم بما أراد المؤلف أن يقول ، بل هم أكثر من ذلك ينظرون إلى هذا الكتاب كأنه لم يكن له مؤلف . ولايهتمون به إلا على أنه عبارة جامعة سائرة ستحشد خلال بضـعة أيام أو بضعة أشهر جيشاً من القراء . وهم يرون فيه إنتاج الشعور المجموعى قد صدر من تلقاء نفسه ، أو كأنه مؤسسة من المؤسسات العامة . وليجيد الناقـد وصف هـذه المؤسسة ويوضح تطورها نحو غايتها ، ويبيّن مختلف تأثيراتها ، فانه يؤثر أن ينظر إليها بأعين حفدته ، وأن يبدى رأيه فيها كما يصدر كتاب دراسى فى الأدب حكمه عن كتاب مضى عليه خمسون ومائة عام . فالواقع أن مثل هذه الـكتب الدراسية هى التى تستطيع وحـدها أن تقدر مدى التأثير الفعلى لأى إنتاج ذهنى ، وهى التى تستطيع وحدها أن تفسر لنا ماصادف من نجاح ، وأن تحكم على بقائه أوعدم بقائه ، لأنها وحدها تستطيع بعد مرور مائة عام أن تكتب التاريخ . فانه يمكن بعد انقضاء هذا الأمد من الزمن أن يصدر حكم صحيح عن « السوريالزم » أعاد أم لم يعد الى الوجود فى السنوات المحيطة بسنة ١٩٤٥ وعن كتاب « التربية الاوربية » أكان أم لم يكن كتاب المقاومة . فبعد مرور مائة عام يمكن تجديد التيارات الأدبية التى ظهرت بعد هذه الحرب . كما يمكن بعـد مرور مائة عام أن يكتب وصف دقيق لشكل القصة كما ننتظرها (هذا على فرض أننا ننتظر لها شكلا معيناً) وذلك بمقارنة مدى النجاح الذى يصادف القصص المختلفة التى ستظهر خلال فـترة السنوات العشر التالية . إلاّ أننا قوم عجلون . ونحن متسرعون فى معرفة أنفسنا وفى الحـكم على أنفسنا . ذلك أنه خلال هذه السنوات العشرين الأخيرة تقدّم الشعور الواعى فى الغرب تقدماً عظيما . وتحت ضغط التاريخ علمنا أننا تاريخيون . فكما ان مختلف فروع العلوم والآداب فى القرن السابع عشر تأثرت ببحوث ديكارت فى الرياضة فاتسّـمت بها ، وتأثرت فى القرن الثامن عشر بنظريات نيوتون فى الطبيعة ، وفى القرن التاسع عشر بنظريات كلود برنار

ولامارك فى علم الحيـاة ، كذلك تأثر قرننا بالتاريخ واتّسم به . فنحن نعرف أن أقل حركة تصدر عنا ستعين على صوغ التاريخ ، وأن أشد آرائنا شخصية ستساهم فى تكوين هذا الفكر الموضوعى الذى سيطلق المؤرخ عليه عبارة الفكر العام لسنة ١٩٤٥ . ونحن نعلم أننا ننتمى إلى عصر سيكون له فيما بعد اسم معيّن ومظهر خاص ، وأنه ستستخلص بسهولة خصائصه العامة وتواريخه الهامة ومعناه العميق . ونحن نحيا فى التاريخ كما يحيا السمك فى الماء ، ونشعر شعوراً دقيقاً حاداً بتبعتنا التاريخية . أو لم يقل لنا فى سان فرانسيسكو إن مصير المدنية سيتقرر فى السنوات المقبلة ؟ أو لم يكن هتلر يردد قوله : إن تلك الحرب التى فقدها ستقرر مصير الانسانية لألف عام ؟ وكلما ازداد شعورنا التاريخى حدّة ، ازددنا سخطاً من تخبطنا فى الظلام ، ومن خضوعنا لحكم محكمة لن نعرفها ، ومن شعورنا بأننا نحاكم فى قضية كتلك التى وصفها « كافكا [1] » نجهل ماسيتقرر فيها بشأننا ، بل قد لايصدر فيها قرار . أليس من المؤلم لنا أن يكون سرّ عصرنا وتقدير أخطائنا تقديراً دقيقاً موكولاً إلى أشخاص لم يولدوا بعد ، إلى أشخاص لن يزالوا أطفالاً سيؤدبهم أولادنا وحفدتنا حتى بعد وفاتنا بمدة طويلة ؟ نريد أن نقطع الطريق على هؤلاء الأطفال الأغرار ، ونريد أن نُقرّر منذ الآن وللأبد ما يجب أن يكون رأيهم فينا . ولو استطعنا أن نعكف على أنفسنا فننظر فيها وأن نستخلص مالأعمالنا من أثر تاريخى فى نفس الوقت الذى تحدث فيه هذه الأعمال ، فقد يخيل إلينا أننا سنفحم هؤلاء الأطفال ، وأننا سنعرض عليهم حكماً على عصرنا يبلغ من القوة والسداد مبلغاً لن يبقى عليهم بعد ذلك إلاّ أن يقبلوه كل القبول . وكذلك نقضى وقتنا فى تحديد الحوادث التى نحياها وفى ترتيبها وإلصاق عنوانات لها ، نقضى وقتنا فى تدوين كتاب تاريخ دراسى عن القرن العشرين لتقرأه الأجيال المقبلة . ولطالما ضحكنا من هذه التمثيلة الشعبية التى كان مؤلفها يضع على لسان أبطاله من جنود معركة « بوفين [2] » هذه العبارة : « أما نحن فرسان حرب المائة عام . . . » . والآن يجب أن نضحك من أنفسنا ، فان شبابنا كانوا يسمون أنفسهم « جيل مابين الحربين » وكان ذلك قبل اتفاق ميونيخ بأربع سنوات . يجب أن

(١) اشارة الى القصة التى كتبها « كافكا » واسمها « القضية » . والمتهم فى هذه القضية يتخبط امام تهم لايعرفها ولا يواجه بها ولايعرف الحكم الذى صدر فيها

(٢) معركة وقعت فى اوائل حرب المائة عام .

نضحك منهم وإن أثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين فيما أطلقوا على أنفسهم من لقب ؛ لأنهم جعلوا يتحدثون عن أشخاصهم كأنهم أبناء أنفسهم . وهذه أيضاً طريقة غير مباشرة للاعلاء من شأن «الأنا» le moi هذا « الأنا »البغيض فان الإنسان لايسعه إلا أن يحترم آباءه وأجداده . يجب أن نقنع أنفسنا بهذه الحقيقة المرّة وهى أنه مهماارتفعنا للحكم على عصرنا فان التاريخ سيكون فى المستقبل أكثر منا ارتفاعاً لإصدار حكمه علينا . وهذا الجبل الشامخ الذى يخيل إلينا أننا اتخذنا فيه لأنفسنا عش النسر لن يكون بالقياس إليه إلا بمثابة جحر من جحور الضباب ، والحكم الذى نكون أصدرناه سيضم إلى أوراق قضيتنا . ومهما نحاول أن نكون مؤرخى أنفسنا فان مجهودنا سيذهب عبثاً . فما المؤرخ نفسه إلا ثمرة من خلق التاريخ . وحسبنا أن نصنع تاريخ زماننا من يوم إلى يوم كما نستطيع ، وأن نختار بين السبل تلك التى تبدو لنا أقومها . ولكننا لانستطيع أن نصدر فى هذا التاريخ مثل تلك الآراء الحاسمة التى كانت من أسباب نجاح كبار مؤرخينا أمثال « تين » و « ميشليه » ، فنحن فى التاريخ ، يأخذنا من كل وجه . والأمر كذلك بالنسبة للناقد ، فعبثاً يغار من مؤرخ الأفكار .

يستطيع « بول هازار [1] » أن يتحدث عن الأزمة الفكرية فى سنة ١٧١٥ ، ولكننا لا نستطيع أن ندرس « أزمة القصة فى سنة ١٩٤٥ » . بل هل نعلم أن القصة تجتاز الآن أزمة ؟ وكل ما يمكننا أن نتبينه بوضوح ما ينوى كل مؤلف وكل مدرسة أدبية أن يعملاه ، كما يمكننا أن نتبين من آثار هذا المؤلف أو أصحاب هذه المدرسة أينفذون فعلا برنامجهم . فى مقدورنا أن نستخلص بعض الطوايا المستترة وبعض الأغراض الخفية . ولكن ليس فى وسعنا أن نتصور الشكل الذى سيتخذه هذا الأثر الأدبى فى نظر قراء المستقبل ، كما أنه لا يمكن منذ الآن أن نعتبره من مقتنيات الفكر الموضوعى لعصرنا ، لأن ناحيته الموضوعية لا تزال خافية علينا ؛ إذ أن هذه الناحية ليست إلا المظهر الذى سيتخذه هذا الأثر فى نظر الأجيال المقبلة . فليس يسعنا أن نكون فى نفس فى الداخل وفى الخارج . ونحن حين ندرس الآثار الفكرية بروح من ذلك الوقار الذى لم يكن يتجه فيما مضى إلا لكبار الموتى ، نوشك أن نقضى عليها . فما من

---

(١) كان أستاذ الأدب فى « الكوليج دى فرانس » .

قصصي يكتب عنه الآن — وإن قل شأنه — إلا اتخذت الكتابة عنه مظهر الاجلال الذي كان « لانسون » يتخذه في أسلوبه للتحدث عن « راسين » أو « بيديه » للتحدث عن « أغنية رولان » . وقد يرضى ذلك بعض الكتاب ، لكن هذا الرضا يصحبه شيء من الحنق الغامض ، لأنه لا يطيب للانسان أن ينظر إليه ، وهو حي ، على أنه بناء من تلك الأبنية العامة . ولنأخذ حذرنا من هذا الأمر ، فان هذه السنة الأدبية ، وهي لا تمتاز بصفة خاصة عن غيرها من السنوات بنوع آثارها وقيمتها ، تملؤها الأبنية العامة . منذ الآن يجب أن نتعلم التواضع من جديد ونصطنع روح المغامرة . وما دمنا لا نستطيع أن نخرج عن الميدان الشخصي إلى الميدان الموضوعي، من الذاتية إلى الموضوعية — ولا أقصد الذاتية الفردية بل ذاتية العصر — فينبغي أن يعدل الناقد عن إصدار أحكام يظنها نهائية لا مرد لها ، ويجب أن يعتبر نفسه في نفس موقف الكاتب ويشاطر حظه من حكم المستقبل عليه . فليست القصة تطبيقاً مدبراً محكما لقواعد الفن الأمريكي ولا توضيحاً لنظريات « هيدجير[1] » ولا هي نشرة من نشرات « السورياليزم » . كما أنها ليست عملا من أعمال السوء ، أو حادثاً له نتائج دولية خطيرة ، إنما هي محاولة فيها مجازفة تحتمل النجاح والإخفاق ويقوم بها فرد من الأفراد . وعند ما يقرأ شخص من معاصري المؤلف قصته ، وهذا الشخص مثل المؤلف محاط أيضاً بنفس السياج من الذاتية ، فانه يشترك معه في احتمالاته . فالكتاب جديد غير معروف ، لما يظهر خطره بعد ، وعلينا أن ندخله دون أن يصحبنا دليل . ولعلنا لا نتنبه إلى أظهر الصفات التي يتحلى بها . كما أنه من الجائز على عكس ذلك ، أن يدفعنا بريق سطحي إلى الخطأ في تقديره . وربما استكشفنا في نهاية إحدى صفحاته فكرة ألقيت عفواً ، من تلك الأفكار التي يخفق القلب لها فجأة ، والتي تضيء الحياة كلها ، كما حدث « لدانييل دي فو نتانان[2] » عند ما استكشف « الغذاء الدنيوي[3] » . وأخيراً يجب أن نخاطر : أيكون الكتاب جيداً أم رديئاً . لنخاطر فهذا كل ما نستطيع . ومشاركة الناقد في

---

(١) فيلسوف « وجودي » ، وزعيم هذا المذهب في ألمانيا . أثر في « سارتر » وفي مذهبه في فرنسا .

(٢) بطل من أبطال قصة « أسرة تيبو » تأليف روجيه مارتان دوجار .

(٣) كتاب من تأليف أندريه جيد .

الميل العام إلى التقدير الاجتماعى للكتب ، وخوفه من التقصير فى هذه المشاركة يجعلانه يقرأ للمرة الأولى وكأنه يعيد القراءة ، فهو مطمئن إلى أحكامه . وأخشى أن تكون أحكامه هذه التى يصدرها على كتاب ما فتحجره تحجيراً علامة من تلك العلامات التى تؤذن بموت الفن ، والتى كان يتنبأ « هيجل » بها .

وقد يُقال : ما الذى يدفعه إلى سلوك هذا المسلك ؟ فهذا الناقد الذى كان يدعى منذ نحو عشرين عاماً تلمّس أدق مايمتاز به المؤلف من خصائص فردية عن طريق حدس دقيق ، ماله يقصر اهتمامه اليوم على البحث عمّا للأثر من صدى فى الهيئة الاجتماعية ؟ ذلك أن المؤلف نفسه أصبح اجتماعيًّا . لم يعدْ فى نظر النـاس ذلك الشىء النادر الوجود ، بل تغيرت نظرتهم إليه ، وصاروا يعتبرونه الآن سفيراً لهم وممثلا . وفيما مضى كان كل كاتب جديد يشعر أنه غير مرغوب فيه على الأرض كأنه زائد عن الحاجة ، ولم يكن أحد ينتظره . فالجمهور لاينتظر شيئاً أو بالضبط ينتظر الكتاب الجديد الذى سيصدره القصصيون الذين يعرفهم ، والذين تشبّع بأسلوبهم وتمثل آراءهم ونظراتهم . إلا أن بين المشكلات التى تظهر فى كل عصر والحلول العارضة أو الموروثة التى تحلّ بها هذه المشكلات بقدر المستطاع يتحقق دائماً نوع من التوازن . وكل شخص جديد يظهر مظهر الدخيل . فلم يكن العالم ينتظر فرويد ، وكانت نظريات ريبو وفوندت فى علم النفس تكفى ، مهما كانت قيمتها ، لتفسير كل شىء ماعدا مشكلة أو مشكلتين شاذتين كان يرجى ردّهما إلى النظام . كما أنه لم يكن ينتظر أنشتاين ، فكان يُظن أن من الممكن تفسير تجارب ميكلسون ومورلاى دون التخلى عن نظريات نيوتون فى الطبيعة . كذلك لم يكن ينتظر بروست أو كلوديل ، فإن موباسان وبورجيه وليكونت دى ليل كانوا يكفون لإرضاء حاجات النفوس الرقيقة المشاعر . ونحن اليوم كذلك لا ننتظر الأفكار أو الأسلوب ، إنما ننتظر الرجال . يُسعى إلى المؤلف فى داره ، ويُتوسل إليه . فإذا ظهر أول كتاب له قيل : « ما هذا ! ما هذا ! قد يكون المؤلف رجلنا . » وإذا ماظهر الثانى فنحن واثقون بأنه هو هو . وإذا ظهر الثالث يكون قد عُقد له لواء الامارة ، فأخذ يرأس اللجان ويكتب فى الصحف السياسية ويُرشح للنيابة فى البرلمان أو لعضوية المجمع اللغوى . المهم أن يتوّج فى أسرع وقت ممكن . وقد جعل الناشرون ينشرون له وهو حى آثاره بعد الموت . ولعل

المثال يهيئ تمثاله . وهذا بالضبط هو التضخم الأدبي . وفي الظروف العادية الهادئة يوجد فرق طبيعي مستقر بين العملة المتداولة وبين الغطاء الذهبي لهذه العملة ، كما يوجد مثل هذا الفرق بين شهرة مؤلف والكتب التي يخرجها . فإذا ما اتسع هذا الفرق نشأ تضخم . وقد اتسع الفرق الآن إلى أقصى الحدود . وكل شيء يجري كأن فرنسا في حاجة ملحة إلى رجال عظام .

وهذا يرجع أولا للصعوبة في حلول كتاب جدد محل أولئك الذين تنتهي مهمتهم . ففي الظروف الطبيعية كان هذا الحلول يكفله التسرب المتصل لعناصر منتسبة إلى الأجيال الجديدة ، إلى الطبقات القديمة من الكتاب . لذلك لم يكن التغيير ملموساً جداً . وكان الشيوخ بتشبثهم بما اكتسبوا من امتيازات يقفون في سبيل اندفاع المحدثين إلى حد ما . وبعد سنة ١٩١٨ اختل التوازن لمصلحة الشيوخ ، فإن الشباب بقوا في ساحات القتال ، في فردون على المارن والإيزر . أما اليوم فالأمر على عكس ذلك . نعم إن فرنسا فقدت كثيراً من شبابها ، لكن الهزيمة والاحتلال من ناحية أخرى عجلا بتصفية الكتاب من الأجيال السابقة . فكثير من الشيوخ الذين كللهم المجد تحولت سيرتهم تحولاً سيئاً ، في حين التمس غيرهم لأنفسهم مأوى في الخارج يلجأون إليه ، وبقوا به يغمرهم النسيان شيئاً فشيئاً ، وفريق ثالث منهم أدركته الوفاة . وقد قال شاعر مجيد في شيء من الحسرة والألم حين اطلع على ثبت ناقص للأدباء الذين تعاونوا مع العدو : « إن كفة مجدنا لخفيفة بالقياس إليهم » . فمنهم الخونة والمتهمون أمثال مونتيرلان ، وسيلين ، وشاردون وجوهاندو ، ودريو ، وارنانديس ، وأبيل هرمان ، وأندريه اتيريف ، وهنري بوردو . ومنهم المنسيون أمثال موروا ، ورومان ، وبرنانوس (وهذا الأخير يجتهد اليوم ما استطاع ليذكرنا بوجوده) . ومنهم المتوفون أمثال رومان رولان ، وجيرودو . ولما عاد ماريتان إلى نيويورك بعد زيارة قصيرة لفرنسا سئل عن رأيه في الجمهورية الرابعة ، فقال : « إن فرنسا في حاجة إلى رجال » يريد بالطبع : « ... إلى رجال من سني » . على أن من الحق رغم ذلك أن الخسارة المفاجئة في صفوف الشيوخ من الأدباء قد تركت فراغاً كبيراً نحاول ملأه على عجل . كذلك تجري الأمور في بعض البلاد حين يتولى الحكم حزب جديد ، فإن هذا الحزب يبعد نصف مجلس الشيوخ ويعين مكانه أعضاء جدداً . وعلى ذلك رفع إلى مرتبة الزعامة بعض

الكتاب كانوا خليقين أن ينتظروها مدة طويلة لو أنهم نشأوا فى ظروف عادية . على أنه ليس بهذا بأس ، بل على العكس . ففى اثناء الاحتلال عند ما فجئ الجمهور بخيانة بعض كبار الكتاب تحول عنهم إلى رجال أحدث منهم سناً ولكن ممن يمكن الإعتماد عليهم فمنحهم ثقته . وفى نفس الوقت أضفى على هؤلاء الناشئين الحديثين مجداً لما يستحقوه بعد بفضل آثارهم ، ولكنهم منحوه لإيجاد التعادل والتوازن بينهم وبين ما أفقده الخونة .

وكانت هذه الحركة تنطوى على قوة وعظمة مؤثرتين . وأنا أعرف بعض الكتاب الذين صمتوا فرفعهم صمتهم . لم يرفعهم من الناحية المعنوية كما يمكن أن يظن ، بل من الناحية الأدبية . وهذا عدل . فليس واجب الأديب مقصوراً على الكتابة بل يتعداها أيضاً إلى إيثار الصمت عندما تقضى به الضرورة . أما الآن وقد انتهت الحرب ، فمن الخطر أن نتصيَّد كبار الرجال معتمدين على نفس المبادئ والأسس . وقد كان الكتاب مضطرين إلى الراحة ، لكن الكتاب لا يستريحون . وليس بين الكتاب المنتجين اليوم من لم يشارك من قريب أو بعيد فى المقاومة ، كان له على الأقل ابن عم أو ابن خال أو أى قريب آخر اشترك فى هذه الحركة . وبذلك أصبحت الكتابة والمقاومة مترادفتين فى الأوساط الأدبية . وليس من بين المؤلفين من يظهر كتاباً جديداً عارياً مجرداً من كل شىء كالطفل الوليد ، بل كل كتاب يظهر تحيط به هالة من الشهامة . وينشأ عن ذلك لون خاص من الزمالة والإخاء . فإذا عرض الناقد لكتاب سأل نفسه : « كيف أستطيع وأنا من المشتركين فى المقاومة أن أقول لهذا المقاوم القديم إنى لا أسيغ قصته الأخيرة عن المقاومة ؟ » . وهو مع ذلك يقوله له لأنه أمين ، ولكنه يشعر القارئ أن هذا الكتاب ، على الرغم من إخفاقه ، ينطوى على صفات أرفع وأندر من تلك التى كان ينطوى عليها لو أنه نجح ، ينطوى على شىء كأنه أريج الفضيلة . وما هى إلا خطوة يسيرة فى هذا الاتجاه حتى يتحول هذا الخلط الذى لامفر منه بين القيمة المعنوية للكاتب وقيمته الأدبية ويستغل فى المصلحة السياسية . فكيف الوقوف فى وسط الطريق ! فمن اختار لنفسه فى براءة وسذاجة أن يحب قصصياً معيناً لأنه كان يقاوم العدو ، لِمَ لا يختار لنفسه أن يحب قصصياً آخر لأنه كان زميلاً له فى الحرب ؟ وفى بعض الأحيان تتداخل الأحكام وتختلط : فهذا الكاتب وهو « بورجوازى » وكاثوليكى ،

لا يمكن أن تكون له قيمة أدبية فى رأى الناقد من أحزاب اليسار ، ومع ذلك فإنه قيم ما دام قد اشترك فى المقاومة . ويخرج من هذه المآزق بتقديرات مختلفة متفاوتة ، ويجرى فى العالم الأدبى موجة قوية من المجاملة . لذلك لن أتهم بالجبن أولئك الذين يكبرون كتباً مراعين فى ذلك مغزاها السياسى أكثر من قيمتها الحقيقية . فهذه حالنا جميعاً اليوم . ولعل أشد المنكرين لهذه الحال قد يصدرون فى أحكامهم عن دوافع سياسية . والمؤلف الذى يختار على هذا النحو والذى يدفع إلى الصف الأول — على الرغم منه فى بعض الأحيان — يمثل المقاومة أو أسرى الحرب أو الحزب الشيوعى أو الحزب الديموقراطى المسيحى ، فهو يمثل كل شىء إلا نفسه . وكيف نعرف أن المكانة التى يحتلها تأتيه من السنوات التى قضاها فى المنفى أو فى السجن أو فى الغربة أو من المقاومة الخفيفة ، أو أنها تأتيه بكل بساطة من موهبته الأدبية . على هذا الأساس تستهلك الأحزاب السياسية عدداً ضخماً من كبار الرجال . فى سنة ١٩٣٩ رشح الحزب الشيوعى الكاتب « بول نيزان » لجائزة الحلفاء الأدبيـة ، ومكنه من الحصول عليها . وكان « بول نيزان » فى ذلك الوقت المرشح الكبير ومنافس « أراجون » وقد غادر نيزان الحزب عند توقيع الاتفاقية الألمانية السوفيتية . وأنا أراه مخطئاً فى تصرفه ، وإن يكن ذلك من شأنى . ولكن ما هذا التحول الذى جرى بشأنه بعد ذلك ؟ يجب أن نلاحظ أولاً أنه مات مقاتلاً ، وأنه فضلاً عن ذلك كان كاتباً من الطراز الأول . واليوم فما بال الصمت يخيم على اسمه : فأولئك الذين يحصون خسائرنا يذكرون بريقو وديكور . أما نيزان فلا ذكر له . أيجب أن نستنتج من ذلك أن أراجون إذا ترك الحزب (وأنا أعرف أن هذا فرض غير معقول) سيهبط إلى أسفل الدرك بعد أن ارتفع إلى القمة ؟

والجمهور كله شريك فى هذا المسلك . وقد تبينـا فى خزى وهوان أن فرنسا لن تقوم فى عالم الغد بالدور الذى كانت تقوم به فى عالم الأمس . والحق أن أحداً منا لا يلام فى ذلك : فلم يكن فى بلدنا ما يكفيه من الرجال ، ولم يكن فى أرضنا ما يكفى من الثروة المعدنية . وضعف هذه الثروة المعدنية فى فرنسا ، مثله فى أوربا الغربية نتيجة تطور طويل . ولو أننا تنبهنا إلى الأمر تدريجيا لهيأنا أنفسنا لذلك فى شجاعة . على أن المهمة الباقية لنا لاتزال رائعة ، ولكننا لم نر الحقيقة إلا بعد الهزيمة . وحتى سنة ١٩٣٩ كان انتصارنا الماضى من جهة — ذلك الانتصار

الذى ساهم فى زيادة الأمور سوء على سوء بالاقلال من عدد السكان على أثر ضحايا الحرب — وإزدهار حياتنا الفكرية والأدبية من جهة أخرى ، كل ذلك أخفى عنّا قيمتنا الفعلية . فنحن نحتمل كارهين هذه الحقيقة التى اتّضحت لنا فى خشونة وجفاء . فالخزى الذى لحقنا على أثر هزيمتنا فى معركة سنة ١٩٤٠ ، والألم من حرماننا التسلط فى أوربا ، هذان الأمران يمتزجان فى قلوبنا . فيخيل إلينا أحياناً أننا دفنّا وطننا بأيدينا . وقد نرفع رأسنا أحياناً مؤكدين أن فرنسا الخالدة لا يمكن أن تموت . وبعبارة أخرى تسلط علينا فى السنوات الخمس الأخيرة داء عضال من مركب النقّص . والموقف الذى يتخذه سادة العالم الآن ليس من شأنه أن يبرئنا من دائنا . نضرب المائدة بأيدينا فلا يصغى إلينا أحد . نذكّر بمجدنا الماضى ، فنُجاب بأنه بالفعل مضى وانقضى . إلا أننا أدهشنا العالم فى أمر واحد ، فإنه مازال يُعجب بقوة أدبنا فيقال لنا : « ماذا ! لقد هزمتم واحتل العدو أرضكم وخرّبها ، وأنتم على الرغم من ذلك تنتجون كل هذا الأدب ! » . ومن السهل تفسير أسبابِ هذا الإعجاب ، فإذا كان الإنتاج الأدبى للانجليز والأمريكين قليلا ، فذلك أنهم كانوا مجندين ، وكان كتّابهم مشتتين فى أنحاء العالم . أما نحن ، فعلى عكس ذلك ، كنّا مضطهدين ومطاردين ، وفى كثير من الأحيان معرّضين للموت . ولكنّا على الأقل كنّا فى فرنسا ، فى بلدنا ، فى منازلنا . وكان فى وسع كتّابنا أن يكتبوا ، إن لم يكن فى وضح النهار ، فعلى الأقل فى الخفاء . ثم إن رجال الفكر من الأنجلوسا كسون ، وهم مؤلفون طبقة خاصة منفصلة عن بقية الأمة ، يعجبون دائماً كلما رأوا فى فرنسا أدباء وفنانين متصلين اتصالاً وثيقاً بحياة بلدهم ومعنيين بشؤونها . وأخيراً فإن كثيراً منهم يشارك فى هذا الشعور الذى أفضت به إلىّ قريباً سيدة إنجليزية إذ قالت لى : « يتألم الفرنسيون فى كبريائهم ، ويجب أن نقنعهم بأن لهم فى العالم أصدقاء . لذلك ينبغى ألاّ نتحدث إليهم الآن إلاّ فيما نعجب به من آثارهم وأعمالهم ، فى أدبهم مثلاً » . ونتيجة لهذا الأعجاب الذى تُسْرِع الشعوب فى إبدائه ، وتتكلف نشره ، تظهر الولايات المتحدة وانجلترا وكثير من الدول الأخرى فى العالم اهتماماً كبيراً بكتّابنا . ولم يحدث فى يوم من الأيام أن وجهت إلى كتابنا القصصيين وإلى سفرائنا دعوات بقدر ماوجهت إليهم الآن . ورغبةً فى رؤيتهم وفى الاجتماع إليهم وفى إطعامهم قد سمّنت سويسرا بعضهم وسمّنت أمريكا بعضهم الآخر ،

وستعمل بريطانيا ما تستطيع . وفى أثر ذلك أخذنا أدبنا على أنه جدّ . فأولئك الذين لم يكونوا يرونه فيما مضى إلاّ عبثاً يتفرغ له المتعطلون ، أو نشاطاً منكراً يعتبرونه وسيلة من وسائل الدعاية فيتعلقون بمكانته الخطيرة لأن الأمم الأجنبية تؤمن بها . وقد يؤثر كثيرون منا أن يكون موضع الإعجاب بنا قوة صناعتنا أو كثرة عدد أسلحتنا . غير أن حاجتنا إلى التقدير بلغت حدًّا جعلهم يقنعون بالاعجاب بالأدب . وهم يتمنّون فيما بينهم وبين أنفسهم أن تستردّ فرنسا مكانتها الحربية فتصبح البلد الذى أنتج تورين وبونابرت ، ولـكنهم مؤقتاً يقنعون أن تكون البلد الأدبى الذى نشأ فيه ريمبو وفاليرى . ويصبح الأدب فى نظرهم لوناً من ألوان النشاط يحّل مؤقتاً محل غيره . وكان مباحاً أن يعتبر الـكاتب رجيما لعيناً فى ذلك الوقت الذى كانت المصانع فيه تُسيَّر ، وعندما كان للقواد جند يخضعون لأمرهم . أما اليوم فيبحث فى لهف عن كتاب ناشئين حديثى السن ، ويسرع فى وضعهم فى فرن صناعى كذلك الذى يوضع فيه بيض الدجاج لتعجيل فرخه ، حتى ينموا بسرعة فيصيروا رجالاً عظاماً يرسلون إلى لندن وستوكهلم وواشنطن .

ولم يتعرض الأدب قط لمثل هذا الخطر الحائق. فالسلطات الرسمية وغير الرسمية، الحكومة والصحف بل كبار رجال المصارف والصناعة استكشفوا قوته وسيستغلونها فى مصلحتهم . وإذا نجحوا فى تحقيق غرضهم كان للـكاتب بعد ذلك أن يختار ، فإما أن يختص فى نشر فنون الدعاية الانتخابية ، وإما أن يلتحق بقسم من أقسام وزارة الاستعلامات . وحينئذ لا يهتم النقاد بتقدير مؤلفاته . بل بتقويم أهميتها الوطنية ومدى نفاذ أثرها . واليوم الذى يستطيعون فيه استعمال الإحصائيات فإن نشاطهم سيتقدم تقدماً عظيماً . والمؤلف إذ يصبح موظفاً ويرزح تحت عبء مظاهر التكريم سيتوارى فى استسلام وراء آثاره الأدبية . وعندئذ لن يذكر اسمه وعلى أحسن الفروض سيتحدث بسهولة التعبير عن قصته « لمالرو » أو « لشانسون » كما يقال اليوم شراب « فاولـر » أوقانون « أهم » ، وذلك لمجرد الاستذكار . وتوجد على حدود المدن الـكبيرة مصانع تجمع فيها القمامة ، وهذه القمامة تحترق احتراقاً جيداً ما بقيت الحرارة مرتفعة . والهيئة الاجتماعية ، وهى توالى مجهودها ، تريد أن تجمع هذه المواد التى لم ترلها حتى الآن أوجهاً للاستعمال ، وأعنى بها الـكتاب . ولنأخذ حذرنا من مثل هذا

العمل ، فقد كانت بيننا قامة ثمينة لابأس بها . فماذا نربح إذا تركناها تتحول إلى دخان ؟ ولا يجب أن تفهم المهمة الأدبية على هذا الوجه . نعم إن الكتاب حدث اجتماعى ، وإن على الكاتب حتى قبل أن يأخذ قلمه أن يقتنع بهذه الحقيقة كل الاقتناع . فالواقع أن عليه أن يشعر شعوراً تامًّا بتبعته ، فهو مسئول عن كل شىء : مسئول عن الانتصار فى الحروب وعن الهزيمة ، مسئول عن الثورات وعن قمعها ، وهو شريك فى الاضطهادات إذا لم يكن بطبيعته حليفاً للمضطهدين. وليس يرجع ذلك إلى أنه كاتب فحسب ، بل يرجع إلى أنه رجل قبل كل شىء . وهذه التبعة يجب أن يحياها وأن يريدها . (ويجب أن تكون الحياة والكتابة شيئاً واحداً بالقياس إليه ، لا لأن الفن ينقذ الحياة ، بل لأن الحياة تعبر عن نفسها بوسائل مختلفة ، ووسيلة التعبير عن الحياة هى الكتابة) . لا ينبغى أن يعكف على كتبه ليحاول أن يتبين مدى تأثيرها فى حفدته . فلا عليه أن يعرف أو لايعرف أنه سيستحدث تياراً أدبيًّا جديداً ، وكل مايطالب به أن يقوم بأداء مهمته ويتعهدها فى الوقت الحاضر . ليس عليه أن ينتقل إلى مستقبل بعيد ليحكم على آثاره ، إنما يجب أن تنصبّ إرادته على المستقبل القريب ، يوماً فيوماً . قد يرى المؤرخ أن الهدنة الموفقة سنة ١٩٤٠ أعانت على كسب الحرب ، معتمداً فى رأيه على أن ألمانيا لم تكن لتجرؤ على مهاجمة الاتحاد السوفيتى — وكانت هذه المهاجمة أول خطوة فى سبيل هلاكها — لو أن الإنجليز استقروا منذ سنة ١٩٤٠ فى مدينة الجزائر أو فى بيروت . هذا جائز . إلا أن هذه الاعتبارات لم تكن لتقوم سنة ١٩٤٠ إذ لم يكن فى وسع أحد أن يقدر وقوع النزاع بين ألمانيا وروسيا بمثل هذه السرعة . وعلى ذلك ، وعلى أساس المعلومات الواقعية التى كانت بين أيدينا فى ذلك الوقت ، كان يجب مواصلة الحرب . ولا يختلف الكاتب فى هذا عن رجال السياسة ، فإن مايعرفه قليل محدود ، ويجب أن يصدر عما يعرفه . وما عدا ذلك — أى مدى نجاح آثاره على مر الزمن — فمن أسرار الغيب التى لايمكن إدراكها . لنعترف أن لكتبنا ناحية ستخفى علينا دائماً : فالحب ، وسيرة الفرد ، والثورة ، كل هذه أمور نعرف أولها ولانتبين أعقابها . فلم يشذ الكاتب إذن عن هذا الحكم العام ؟ من أجل ذلك يجب أن يغامر ويقامر بالنتائج . ويقال له من كل صوب إنه الرجل المنتظر . فليعلم حق العلم أن ليس هذا حقًّا ، إنما ينتظر ممثل للفكر الفرنسى ، لارجل يحاول فى قلق أن يبتكر التعبير

بالألفاظ عن معان جديدة . وقد قامت شهرته الحاضرة على خطأ فى الفهم والتقدير . ويُنتظر الرجل العظيم دائماً لأنه مصدر فخر لأمته ، ولكن الفكرة العظيمة لا تنتظر لأن ظهورها يؤذى النفوس . فليقبل الأديب إذن الأصل الذى تقوم عليه الصناعة ، وهو خلق الحاجة ليمكن إشباعها . فليخلق إذن الحاجة إلى العدالة والحرية والتضامن ، وليحاول أن يرضى هذه الحاجات بما ينشىء من آثار . ولنتمن أن يتاح له التخلص من مظاهر الحفاوة والتكريم التى أثقلت كاهله ، فيجد فى نفسه القوة التى تسمح له بالخروج على التقاليد ويشق لنفسها طرقها الجديدة معرضاً عن الطرق السلطانية ولو أعدت له الدولة سيارة تسابق البرق .

ولم أعتقد قط أن من اليسير إنتاج أدب رفيع إذا كان الاحساس رديئاً والشعور سيئاً ، ولكنى أعتقد كذلك أن الاحساس الرفيع والشعور الممتاز لا ينشآن عفواً ، بل لا بد من أن يثيرها الكاتب . وربما استطاع النقد أن يساهم فى إنقاذ الأدب إذا ما عُنى بفهم الآثار الأدبية اكثر من عنايته بتقويمها . ومهما يكن من شىء فقد وطنَّا أنفسنا على محاربة التضخم الأدبى . وأغلب الظن أننا لن نكسب بذلك عطف كثير من الناس . لكن الأدب نائم ، ومن الممكن أن يكون شعور عنيف ، وإن كان غضباً ، خليقاً بإيقاظه .

جان بول سارتر

نقلها عن الفرنسية دكتور توفيق شحاته

ذكرى الشباب

قد ازدرفتْ على الخمسين سنى ... فلست من الشباب وليس منى
جريت مع الصِّبا أمداً بعيدا ... على ما فىَّ من سقم ووهن
فأعجزنى الصِّبا هرباً وولىَّ ... ولو أنى قدرت كفيتُ قِرنى
وفزتُ بما تناهبه لِداتىَ ... من اللذات فى دعة وأمن
ولكنى رجعت بغير زاد ... سوى النكدين من ألم وحزن
وما بَرَّتْ بموعدها الليالى ... ولا وَفَّى الشباب بحسن ظنى
فمن كان الشباب له عقيدا ... فمن عهد الشباب نفضت رُدنى
وطبت عن الفجيعة فيه نفسا ... ولو أنى عليه قرعت سِنِّى
وكيف ألامُ فى ترك التصابى ... وغَضِّى عن ذوات الحسن جفنى
ولم أنعم بروض الحب يوما ... ولم أسمع بلابله تغنى
ولم يك للهوى عندى حديث ... فترويه دموع العين عنى
ولم أظفر بفاتنة لعوب ... يخلِّد حسنها آيات فَنِّى
ولو ظفرتْ بها نفسى لكانت ... وسيلتها إلى جنات عدن
وكانت مِنَّةً للدهر عندى ... مبرأة بغير أذًى ومَنٍّ
على أن المليحة إن أصابت ... محبا تتخذه عبدَ قِنٍّ
وما أنا بالذى يسطيع صبراً ... على عنت القطيعة والتجنى
وهل يَغْتَرُّنى غصُنٌ رطيب ... طبيعته التأوّد والتثنى
وكيف أبيعها قلبى عليما ... بما فى البيع من وكس وغبن
وآمنها على جَسَدِى وروحى ... لتهدم منهما ماعشت أبنى
طُبعتُ على الوفاء فإن تغاضى ... حبيبٌ أو تلفَّتَ لم يجدنى

وصاحبت الرجال وصاحبونى — على الحالين من ثقة وظن

أواصلهم على أمل وشك — وأهجرهم بقلب مطمئن

فلم أبدأ بعُدوانٍ صديقا — ولم أقلب له ظهر المجن

أكيل لصاحبى صاعا بصاع — وآبى منه ما يأباه منى

وما فارقت من أحد وعندى — له ماعِيبَ من حسدٍ وضغن

وذلك أنَّ لى نفساً عزوفا — كَلِفتُ بحب ما قد كلفتنى

تَرَفَّعُ عن مقارفة الدنايا — وتسمو فوق آفاق التظنى

وقد عَبَّدتُها فتعبدتنى — كأنى شِدتها لتكون سجنى

على شوقى

AL-MUKTATAF & AL-MOKATTAM
Printing & Publishing Offices

SARRUF, NIMR & MAKARIUS
PROPRIETORS
Tel: 46256 & 46255

Telegraphic Address "MOKATTAM", Cairo
العنوان التلغرافي "المقطم"

ادارة المقتطف والمقطم
ومطبعتهما
لصروف ونمر ومكاريوس
تليفون نمرة ٤٦٢٥٥ و٤٦٢٥٦

مصر في ١٩٤٥/١٠/٢١ Cairo

عزيزي الأستاذ سلامه موسى

سلاما وتحية وبعد فأرجو انه تقبل عذري عن عدم
استطاعتي نشر مقالكم "جورج واشنطون والديمقراطية
الامريكية" لا لشيء الا لانه "المقتطف" سيجري على خطة
الامتناع عن نشر أي شيء لكاتب مصري يتصل بمجلة
"الكاتب المصري". وبما انكم كتبتم مقالا في عدد هذه المجلة
الاخير، فأرجو انه تعلم انى اعتبر ان هذا اتصالا
يمنعني آسفا من الاسف عن نشر مقالكم هذا فارده لك
مع كتابي راجيا انه تكونوا بكل خير وعافية المحب
[illegible]

كتاب رئيس تحرير المقتطف إلى الأستاذ سلامه موسى

ونحن نستغفر الله لصاحب هذا الكتاب من تقصيره فى ذات الحرية والنحو والذوق ونؤكد أن هذه المجلة ترحب بالكتاب جميعاً ومنهم اللذين يكتبون فى زميلتنا المقتطف الغراء.

جورج واشنطون والديمقراطية الامريكية

إذا ذكر الأمريكى اسم واشنطون ارتسمت فى ذهنه صورة أعظم الأمريكيين فى شرف الغاية واستقامة السلوك. وعاصمة الولايات المتحدة تتسمى بهذا الاسم تقديراً للزعيم العظيم الذى حقق الاستقلال لوطنه وعبّد الطريق لكى يسير الشعب الأمريكى عليه نحو الديمقراطية.

وقد وُلد جورج واشنطون فى ١٧٣٢ فى أسرة إنجليزية الأصل كانت قد هاجرت إلى القارة الجديدة فى ١٦٥٧. ولم يحصل الصبى على تعليم مدرسى راق. ولم تكن الجامعات وقتئذ منتشرة بين المهاجرين. والتحق منذ أن بلغ الشباب بعمل كاسب هو مسح الأرض للورد فيرفاكس. وكان هـذا اللورد يملك نحو ستة ملايين فدان أى أكبر من الأرض المزروعة فى القطر المصرى كله. وهذا القدر من الأرض يدلنا على أن « الدنيا الجديدة » كانت جديدة بالفعل تنادى من يشتريها وتكشف عن كنوزها للقادمين إليهـا من المهاجرين الأوربيين. وكان سكانها الأصليون الأمرنديون فى طور بدائى من الحضارة يعجزون عن استثمار الأرض. فكان المهاجرون يطاردونهم نحو الغرب، ويستعمرون الأرض بالزراعة. ومارس واشنطون مساحة الأرض وعرف الأمرنديين وأدرك من الأبعاد الجغرافية الشاسعة لهذا الوطن الجديد عظمة المستقبل الذى ينتظر الأمريكيين.

وكانت أمريكا فى ذلك الوقت موضوع النزاع بين فرنسا وبريطانيا كل منهما تحاول اغتصاب ما تملكه الأخرى أو السبق إلى الأرض البكر واحتلالها. وكان التصادم بين الدولتين لا ينقطع. واختير واشنطون لمحاربة الفرنسيين على رأس كتيبة من المهـاجرين. وبقى يقاتل إلى أن تم الصلح بين الدولتين فى ١٧٦٢.

ثم قام النزاع بين المهاجرين وبين الحكومة البريطانية بشأن فرض الضرائب هل هو من حق الإنجليز أم من حق الأمريكيين فى ١٧٧٦. وكان واشنطون القائد الأعلى للقوات الأمريكية. وفى ٤ يوليه من تلك السـنة أعلن استقلال

الولايات المتحدة ، وهو العيد الذى يحتفل به الشعب الأمريكى كل عام .

واستمرت الحرب عدة سنوات انتهت بالصلح الذى عقد فى باريس فى سنة ١٧٨٣ وهو الصلح الذى اعترفت فيه بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة .

وهنا تبدو لنا شخصية واشنطون على أجلها وأبسطها . فإن هذا الرجل الذى أصبح الجمهور يحبه بل يعبده لم يُزْهَ بالنصر ولم يعتز بعقامه بل عاد إلى مزرعته فلاحاً يدرس كتب الزراعة ويزرع الأرض متزوياً عن الناس عاكفاً على فلاحة الأرض ، كأنه لم يكتب بيده ويحقق بسيفه وثيقة الاستقلال لأمته .

وفى ١٧٨٩ حين انتهت الولايات الثلاث عشرة من وضع الدستور الاتحادى لحكومتها استدعى من مزرعته لكى يكون الرئيس الأول لهذه الجمهورية الجديدة . وهنا نجد فى مذكراته اليومية التى كان يكتبها بالمزرعة فى اليوم الذى غادرها فيه هذه الكلمات التالية : « ١٦ مارس . ودعت المزرعة وودعت حياتى الخاصة وهناءتى المنزلية . وغادرت كل ذلك إلى نيويورك بنفس مثقلة بإحساسات من القلق والألم لا تستطيع الألفاظ أن تعبر عنها . وكلى رغبة فى أن أخدم وطنى وألبى نداءه ، ولكن مع ضعف الأمل فى أنى سأحقق ما ينتظر منى » .

وقضى واشنطون مدة الرياسة ثم أعيد انتخابه مرة ثانية . وكان يعانى متاعب كثيرة . فإن الحكومة الأمريكية كانت فى طفولتها ليس لها سند من سوابق الماضى ولا قوة من خطط المستقبل . وكان هاملتون وجيفرسون يتراوحان الرأى العام ويهيئ كل منهما خميرة خاصة للمستقبل . فكان هاملتون يطلب إيجاد دولة عامة يرأسها ملك أو رئيس ينتخب مدة حياته مع أقل ما يمكن من السلطة لكل من الولايات . وكان يطلب تأييد الشراء والمال والبنوك والصناعة ، فى حين كان جيفرسون الذى عاش فى فرنسا أيام فولتير وديدرو وروسو يطلب حماية الفقراء وبعض الاستقلال للولايات . وكان جيفرسون يتكلم كأنه ميرابو فى الثورية الفرنسية . ومن كلماته :

« إن طغيان المشترعين الآن وفى المستقبل لسنوات عدة قادمة سيبقى أعظم الأخطار الماثلة أمامنا . ثم سينشأ بعد ذلك طغيان القوة التنفيذية . ولكن هذا الخطر سيكون فى مستقبل أبعد » .

ومات واشنطون فى ١٧٩٩ بعد أن استمر الدستور والإدارة فى أنحاء البلاد والحياة العامة لأى إنسان تخفى كثيراً من أخلاقه لأنه يضطر إلى أن يتزيا بزيها .

ولكن النزاع الذى قام بين واشنطون وجيفرسون يدل على أنه كان ينزع إلى الحكم الجمهورى راضياً بما فيه من حرية واسعة للأفراد . وكان بعيداً عن التهور ، يحب أن يرى مقاليد الحكم فى أيدى المتعلمين دون الغوغاء . والأغلب أنه كان يعبر فى هذا عن رأى القادة والساسة المستنيرين الذين كانت تتنازعهم عاطفتان إحداهما تلك المثليات العالية التى كانت تستهدفها الثورة الفرنسية ، والأخرى ذلك الخوف من الشطط الذى وقعت فيه .

أما حياته الخاصة فتدل عليها معيشته فى مزرعته ، فإنه كان يأنف من البذخ والأبهة . وكان يضبط نفسه ويلتزم مقياساً عالياً من الأخلاق . فإنه بعد أن خطب خطيبته التى تزوجها بعد ذلك أرسل خطاباً إلى مسز فيرفاكس يخبرها فيه أنه كان يحبها ، ولكن شرفه منعه من أن يبوح لها بهذا الحب وهى متزوجة .

وقبل وفاته بسنة وكان عمره وقتئذ ٦٦ عاماً أرسل إليها خطاباً قال فيه : « إن جميع الحوادث التى مرت بى لم تستطع أن تنزع من رأسى تلك اللحظات السعيدة — وهى أسعد ما فى حياتى — التى استمتعت بها فى رفقتك » .

ومع أن الشعب كان ينوى انتخابه للرياسة للمرة الثالثة فإنه أصر على الرفض . وإلى واشنطون تعزى إلى حدما كراهة الأمريكيين للاشتباك فى المشكلات السياسية العالمية ورغبتهم فى تنظيم بيتهم قبل كل شىء . ويجب أن نذكر أن الأمريكيين فى عصره كانوا يجدون أوربا منكوبة بالمطامع والخلافات وشهوات الفتح والامتلاك .

وكانوا أمة صغيرة ناشئة يرسمون مثلياتهم عن الحرية والإخاء والتسامح ويحسون أنهم بناة المستقبل فيجب أن يتوقوا كل ما وقعت فيه أوربا . وقصارى ما كانوا يطمحون إليه أن يجدوا الوسائل ميسرة للتجارة العالمية الحرة .

وما دمنا فى سياق الحديث عن الرئيس الأول للولايات المتحدة فإنه يحسن أن نذكر شيئاً عن وظائف الرياسة كما نص عليها الدستور الذى اشترك واشنطون فى دعمه . فالرئيس يتعاون مع مجلسين : أحدهما مجلس الشيوخ الذى يمثل الولايات بحساب شيخين لكل ولاية بصرف النظر عن عدد سكانها ، فهو الآن مثلا ٩٦ عضواً يمثلون ٤٨ ولاية . ويبقى الشيخ ست سنوات ، ويغير ثلث الأعضاء كل سنتين . أما مجلس النواب فينتخب أعضاؤه بحسب السكان لمدة سنتين . وليس للرئيس الحق فى أن يقدم مشروعاً للبرلمان ، ولكن له أن يرسل الرسائل للتنبيه

والانذار بشأن المشروعات التى يحتاج إليها الشعب . وعنـد ما يدرس البرلمان مشروعاً ويقدمه للرئيس لـكى يصير قانوناً يمكن الرئيس رفضه فى مدى عشرة أيام . ووكيل الرئيس الذى ينتخب معه يرأس مجلس الشيوخ ، وهو حلقـة الاتصال بين الرئيس والبرلمان . وللرئيس الحق فى اختيار وزرائه . ولكن ليس لهؤلاء الوزراء أن يدخلوا أحد المجلسين ويناقشوا الأعضاء فى أى مشروع . على أن مجلس الشيوخ يجب أن يحصل الرئيس على موافقته عند تعيين كبار الموظفين فى السفارات والمحـكمة العليا وغيرها . وإعلان الحرب من حق البرلمان وحده . ولـكن خطة الرئيس قد تؤدى بالطبع إلى حال الحرب دون أن يكون للبرلمان قوة على منع ذلك . وكل معاهدة تحتاج إلى موافقة ثلثى الأعضاء فى مجلس الشيوخ . فإذا كانت المعاهدة تنطوى على التزامات مالية فلا بد عندئذ من موافقة مجلس النواب أيضاً .

وهناك ما يسـمى « المحـكمة العليا » وهى مؤلفة من تسعة قضاة يختارهم الرئيس بموافقة مجلس الشيوخ ، ولا يجوز عزلهم . وهذه المحـكمة تفصل فى كل نزاع ينشأ بين إحدى الولايات وبين الحـكومة المركزية ، وتستطيع أن تحـكم بإلغاء أى قانون يخالف الدستور .

***

الأمم الديمقراطية كثيرة ، ولـكل منها لونها الخاص فى النزعات الديمقراطية . ومن الحسن أن نعرف فى مصر هذه الألوان كى نقارنها بنظائرها عندنا فنعرف موقفنا أو مرتبتنا بين الأمم .

والولايات المتحدة هى أكبر الأمم الديمقراطية مساحة وأكثرها ثراء ، حتى لتكاد نيويورك تكون العاصمة التجارية للعـالم ، كما تكاد واشنطون تـكون العاصمة السياسية له . وقد تقبَّـل العالم « النقط الأربع عشرة » التى أذاعها الرئيس ولسون فى الحرب الـكبرى الأولى ، كما تقبل الحريات الأربع وميثاق الأطلنطى اللذين أذاعهما الرئيس روزفلت كما لو كان كل من هذين الرئيسين يمتاز بمزية عالمية خاصة تتجاوز حدود وطنه . ومرجع هذا أن العالم يحس أن الولايات المتحدة الأمريكية تتبوأ مركز الزعامة والقيـادة للأمم الديمقراطية . ومن هنا يجب أن نعرف شيئاً عن الديمقراطية الأمريكية .

يعود النظام الديمقراطى فى الولايات المتحدة إلى سنة ١٧٧٦ حين أعلن الثائرون الأمريكيون استقلالهم وانفصالهم عن الإمبراطورية البريطانية . ونصوا فى وثيقة الاستقلال على ما يلى :

« نحن نؤمن بهذه الحقائق البديهية : وهى أن جميع الناس قد خلقوا متساوين وأن خالقهم منحهم جميعاً حقوقاً لا يملكون النزول عنها . ومن هذه الحقوق الحياة والحرية وابتغاء السعادة . وأن الحكومات إنما تستمد سلطانها المشروع من رضاء المحكومين . فإذا اتجهت أية حكومة مهما يكن شكلها إلى محو هذه الحقوق فإن للشعب أن يغيرها أو أن يمحوها ويقيم مكانها حكومة تستند إلى هذه المبادئ وتنظم سلطانها على نحو يكفل للشعب سلامته وسعادته ».

هذه هى شهادة الميلاد للجمهورية الأمريكية . وهى تنص على حق الشعب فى هدم الحكومة إذا اعتدت على حقوقه الأصلية . ثم نجد أبراهام لنكولن بعد ذلك بخمس وثمانين سنة أى سنة ١٨٦١ يؤيد هذا الرأى بقوله : « هذه البلاد ملك للشعب الذى يقطنها . وإذا ضاق هذا الشعب بأخطاء الحكومة القائمة فله أن يستعمل حقه الدستورى فى تعديلها أو حقه الثورى فى هدمها » .

فيجب أن نذكر عن نظام الحكم الديمقراطى أن للشعب الأمريكى حقين هما حق دستورى فى تغيير الحكم ، وحق ثورى فى هدم الحكم .

وأمة تنشأ ولها مثل هذه الشهادة الميلادية يجب أن تعيش حرة . ولعله مما يفيد أن نذكر هنا أن دستور الولايات المتحدة ينص أيضاً على أنه لا يجوز للحكومة أن تنكر على أحد حق حمل السلاح ، كأن الذين وضعوا الدستور ذكروا أنه لا يمكن هدم الحكومة بلا سلاح . ولذلك يجب أن يهيأ الشعب بالسلاح ، حتى إذا شاء هدمها استطاع ذلك .

ومما يجب أن نستبصر به فى تفهم الديمقراطية الأمريكية هذه الشروط التالية التى نستخرجها من دستور الولايات المتحدة ، وغايتها جميعاً صيانة حريات الشعب أزاء طغيان الحكومة :

١ — لا يجوز للبرلمان (الكونجرس) أن يسن قانوناً لاحتضان دين معين أو لمنع الممارسة الحرة لأى دين آخر .

٢ — ولا يجوز للبرلمان تحديد حرية الخطابة أو حرية الصحافة .

٣ — ولا يجوز له أن يسن قانوناً بشأن حق الشعب فى الاجتماعات السلمية وحقه فى رفع العرائض إلى الحكومة لتصحيح أخطائها .

٤ — ولا يجوز للبرلمان منع الشعب من حمل السلاح .

٥ — ولا يجوز إيواء الجنود فى المنازل إلا بعد رضا أصحابها مدة السلم . أما مدة الحرب فلا يجوز هذا إلا وفقاً لنظام ينص عليه قانون .

٦ — ولا يجوز انتهاك حرمات الأشخاص والمنازل والأوراق والممتلكات سواء أكان هذا الانتهاك بالتفتيش أم بالقبض غير المشروعين .

٧ — ولا يجوز اعتقال أحد لكى يجيب عن جناية قتل أو أى جريمة شنيعة أخرى إلا بعد حكم من هيئة محلفين كبرى . . . ولا يجوز إجباره على أن يكون شاهداً على نفسه ، كما لا يجوز أن يحرم من حياته أو حريته أو ممتلكاته بغير الوسائل القانونية .

٨ — ولا يجوز للدولة الاستيلاء على الممتلكات الخاصة بدون التعويض العادل .

٩ — وفى جميع الاجراءات الخاصة بالمحاكمات الجنائية يكون للمتهم الحق فى محاكمة علنية وعاجلة أمام هيئة محلفين نزيهين فى الولاية والمركز اللذين وقعت فيهما الجريمة . . . وللمتهم الحق فى إجبار الشهود الذين فى مصلحته على الحضور كما له الحق فى تعيين المحامين عنه .

١٠ — يجب ألا يفهم من تعديد بعض الحقوق فى الدستور الإنكار لسائر الحقوق التى يملكها الشعب أو التصغير من شأنها .

***

ونحن حين نتحدث عن رؤساء الولايات المتحدة يجب أن نذكر هذه الشروط التى يستضىء بها كل رئيس كلما أقدم على مشروع كبير أو كلما أحس حيرة فى اتجاهاته وخططه . فإنها شروط المجتمع الديمقراطى الذى يطلب من الدولة أن تخدم الفرد لأنها أنشئت من أجله ، ولم يخلق هو من أجل الدولة كما هو الرأى الشائع عند الحكومات الفاشية .

وقد رأس الولايات المتحدة منذ ميلادها إلى الآن عدد كبير من الرجال البارزين ، كل منهم يستحق أن يترجم لحياته فى كتاب . وبعضهم قد حقق

لنفسه شخصية عالمية . فنحن حين نذكر ولسون أو روزفلت لا ترتسم صورة أحدهما فى أذهاننا باعتباره الرئيس للولايات الأمريكية بل اعتباره الزعيم العالمى الذى يضع الترسيمات الجديدة لحياة مثلى يستمتع بها جميع البشر فى القارات الخمس. فإن كلا منهما قد قصد إلى غاية سامية هى إلغاء الحروب . فوضع الأول شروطه الأربعة عشر التى تمخضت عن عصبة الأمم . ووضع الثانى — بالاشتراك مع رئيس الوزارة البريطانية — ميثاق الأطلنطى ثم الحريات الأربع .

هذا الروح العالمى هو ثمرة المذهب الديمقراطى الذى ينهض على احترام الإنسانية يصرف النظر عن السلالة أو اللون أو الشرق أو الغرب . وكما كانت أثينا ينبوع الديمقراطية للعالم فى العصر القديم ، قد أصبحت واشنطون ينبوع الديمقراطية للعالم فى عصرنا .

ولكى نفهم العوامل التى ولدت فيها الولايات المتحدة يجب أن نعرف رجلين هما هاملتون وجيفرسون . فقد قام صراع بين هذين الرجلين قبل وضع الدستور على المبادئ العامة التى ينبغى أن يبنى عليها . فقد كان عدد الولايات قبل الاستقلال ١٣ ولاية . وكانت كل منها حريصة على صيانة استقلالها . كما كانت هناك اتجاهات صناعية ومالية فى المدن تخالف الاتجاه الزراعى فى الريف . وكان على الشعب الأمريكى أن يختار نظام الحكم هل يجب أن يكون باستقلال الولايات كل منها يبقى حراً فى سن قوانينه ، أم تندغم جميعها فى دولة واحدة وتنزل كل ولاية عن استقلالها ؟

فكان هاملتون يدعو إلى حكومة مركزية قوية فى واشنطون تخضع لها الولايات وتنزل عن استقلالها . وقد أنشأ لهذا السبب صحيفة « الاتحادى The Federalist » ودعا إلى موتمر سنة ١٧٨٧ على هذا الأساس . وكان يرى أن الرئيس يختاره البرلمان مدى حياته . وأنه ، أى الرئيس ، يعين الحكام للولايات . ولكن جيفرسون كان يقاوم هذا الرأى ، فيطالب أكبر قسط لاستقلال الولاية وأقل قسط من السلطة للحكومة المركزية . وانتهى المؤتمر إلى رأى جيفرسون ، وأصبحت سلطة الولاية غير محدودة إلا بالمقدار الذى نزلت عنه للحكومة المركزية فى واشنطون . ولكن سلطة هذه الحكومة المركزية محدودة ومعينة بنصوص لا يمكن أن تتجاوزها . ونحن نجد الآن أن لكل ولاية حقها فى سن القوانين الخاصة بها عن الزواج والطلاق ومعاقبة المجرمين

وقوانين الصناعة والمال . ولا يمكن حكومة واشنطون أن تتدخل إلا فى الشؤون الاتحادية العامة التى نص عليها الدستور .

وهنا نرى أن جيفرسون تغلب على هاملتون . ولكننا نرى انتصاراً لهاملتون على جيفرسون فى ناحية أخرى ، هى توجيه الأمريكيين إلى الصناعة والتجارة بدلا من القنوع بالزراعة . فقد كان جيفرسون يتخيل المستقبل الاقتصادى للشعب الأمريكى قائماً على الزراعة فقط . وكان يدعو إلى الهجرة نحو الغرب الذى كان لا يزال بكراً حافلا بالغابات لايسكنه غير الأمرنديين أى السكان الحمر الأصليين . وكان يطلب حماية المزارع ، ولا يرى التاجر أو الصانع جديرين بالحماية . ولكن الشعب الأمريكى اعتنق مذهب هاملتون واتجه الاتجاه الصناعى التجارى الذى حقق للولايات المتحدة تفوقاً عالميا لم تكن لتحققه لولاه .

ومع أن الولايات المتحدة أمة عظيمة فى عصرنا فإن الطوالع الاقتصادية والسياسية تجعلنا نشعر بأنها سوف تكون فى المستقبل أعظم بكثير مما هى الآن فإنها تحوى أوسع مساحة من الأرض الخصبة ، إلى جنب كنوز لاتكاد تفنى من المعادن والفلزات . وقد نمت فيها ثقافة علمية تستغل هذه الموارد وتبنى بها حضارة مادية وروحية لم يعهد التاريخ مثلها فى الماضى .

سلامه موسى

مصر حلقة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب

امتازت مصر على كثير غيرها من مراكز الحضارة فى العالم بأنها جمعت فى حضارتها بين أمور ثلاثة ، هى القدم ، والاستمرار ، والاتصال المنتظم بالعالم الخارجى فى الشرق والغرب . فأما عن القدم فإن مصر فى إجماع الباحثين من أقدم مواطن حضارة البشر التاريخية ، إن لم تكن أقدمها فى كثير من ضروب المدنية . بل إن بعض عناصرها الأولى ترجع إلى عهود طويلة قبل فجر التاريخ . وقد بدأت فيها الزراعة وما صاحبها من استقرار فى القرى ، وانتقال من الحياة القَبَلية المتنقلة إلى الحياة المدنية المستقرة ، حول الألف السادسة أو الخامسة قبل الميلاد أى منذ سبعة آلاف سنة على وجه التقريب . ثم بدأ التاريخ المكتوب فى مصر بعد ذلك بألفى سنة ، أى فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد .

وأما عن الاستمرار فإن التاريخ المصرى من حيث اتصال حلقاته يعتبر أطول التواريخ . ومع أنه حدثت فيه فترات انقطاع ، كعهد الاقطاع الأول بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى ، وكعهد الاقطاع الثانى بين الدولتين الوسطى والحديثة ، وعهد الاضمحلال الأخير بعد عصر الفراعنة ، وعهد غزوة الأتراك وما تلاها ، فإن تلك العهود جميعاً إذا ما أضيف بعضها إلى بعض لا تزيد على جزء محدود من تاريخ المدنية والحضارة فى مصر ، بل لا تكاد عهود الركود والاضمحلال فى تاريخنا الطويل تتجاوز بضعة عشر قرناً على أوسع تقدير ، وهى نسبة ضئيلة إذا ماقيست بعهود الركود فى تواريخ غيرنا من الأمم . وقد استطاعت هذه البلاد أكثر من مرة أن تنهض بعد اضمحلالها ، وأن تجدد التاريخ بعد عفائه ؛ فاحتفظت بمكانتها فى عالم المدنية والثقافة خلال ثلاثة أرباع تاريخها أو ما يقرب من ذلك ؛ كما استطاعت رغم أدوار الصعود والهبوط أن تحتفظ على مر الأيام بطابعها الحضارىّ العام ، وأن تنمى ثقافتها بما تحييه من تراثها

القديم ، ومايبنعث فيها من روح جديد ينزع إلى الخلق والابتكار حيناً ، وإلى التجديد بالاقتباس من العالم الخارجى حيناً آخر .

وقد كان اتصال مصر بالخارج قديماً قدم الحضارة فى مصر ؛ بل إن مصر لم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن غيرها من الأمم ، وإن كانت الصحارى على الجانبين والبحار فى الشمال والجنوب الشرقى قد نظمت ذلك الاتصال ، وجعلته فى حدود معينــة ، سمحت لمصر أن تأخذ عن الخارج ما ينمى حضارتها ، ويغذى ثقافتها ، ويعينها على أن تكون واسطة بين الشرق والغرب ، ولـكنه فى الوقت ذاته لا يطغى على روحها ، ولا يطمس معالم مدنيتها المميزة . كذلك لم يكن اتصال مصر بالخارج واحداً فى كل العهود ؛ بل هو فى الواقع كان مرتبطاً بعاملين : أولهما سعى مصر لأن تتصل بالعالم المجاور ، وأن تبادل أهله سلع التجارة وألوان الفكر والثقافة . وثانيهما تلك الصلات العالمية التى كان لا بدّ لها أن تسلك طرقاً معينةً رسمتها الطبيعة بحيث تمر فى أرض الزاوية التى يتصل فيها اليابس ويكاد يقترن الماء . والناظر إلى تاريخ الصلات العالمية بين الشرق والغرب يستطيع أن يميز فى غير صعوبة بين عصرين كبيرين ، تفصل بينهما نقطة تحوُّل خطير اتفقت وغزوات الإسكندر . فقبل عهد الإسكندر كانت هناك عدة مناطق لـكل منها حضارتها الخاصة ، فى الصين ، والهند ، والشرق الأدنى الأسيوى ، ومصر ، وبلاد الإغريق . وكانت كل من هذه المناطق تكوّن عالماً حضاريًّا متميزاً ، لا يتصل اتصالاً مباشراً إلا بالعالم المجاور له ؛ كاحتكاك مصر بالشرق الأدنى الأسيوى ، أو بلاد الإغريق بمصر ، أو الشرق الأدنى ببلاد الإغريق . فلما جاء الإسكندر وقام بحملته التاريخية من بلاد الإغريق إلى الشرق الأدنى ثم مصر ثم حدود برقة ، ثم عاد إلى مصر ، ومنها إلى الشرق الأدنى وإيران وتركستان الغربية وحدود تركستان الصينية ، ثم اتجه نحو الهند ، ثم عاد إلى الشرق الأدنى وقضى نحبه ؛ كانت هذه أول حملة احتكّت فيها مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكاً مباشراً ، ترك أثره وطابعه الدائم فى حيـاة الناس وأفكارهم ؛ وكانت هذه أول حرب « عالمية » بالمعنى المعروف ؛ لأنها امتدت من البحر المتوسط إلى حدود الصين ، وترتب عليها ما يترتب عادة على أمثال هذه الحروب الواسعة ؛ فتقاربت أجزاء العالم ، وظهرت « العالمية » ، أو بعض بوادرها على الأقل ، ووضعت أسس الاتصال العالمى ،

ففتحت الطرق ، وسعى عليها التجار والملاحون فى البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضاً قبل عهد الإسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة .

وقد يعنينا بصفة خاصة أن نلحظ ما نشأ عن هذه العالمية ، وما صحبها وترتب عليها من ثورة فكرية لا نزال نلمس أعقابها وآثارها حتى اليوم ؛ وقد تمثّل ذلك على وجه الخصوص فى أن الفكر الدينى فى الشرق الأدنى اتجه اتجاهاً جديداً كان له أثره الدائم فى الحياة الدينية والروحية ، وما داخلهما واتصل بهما من فكر وثقافة . والذى يدرس تاريخ الأديان فى الشرق الأدنى لا يملك إلا أن يلمس الفرق بين اليهودية من ناحية ، والمسيحية والإسلام من ناحية أخرى . فقبل عهد الإسكندر (القرن الرابع ق . م .) لم يكن الناس مهيئين لأن يتقبلوا الأديان « التبشيرية » ، أى التى يفرض على من يؤمن بها إبلاغ الرسالة إلى غير المؤمن ؛ وعلى هذا جاءت اليهودية غير تبشيرية ، ولم تنتشر فى العالم ؛ ومع أن اليهود ساروا فى الأرض وانتشروا فيها انتشاراً عنصريًّا ، فإنهم لم يذيعوا ثقافتهم ولم يبشّروا بدينهم بين الناس ، على حين جاءت المسيحية والإسلام بعد الإسكندر دينين تبشيريين ، دعت الأولى إلى المحبة الشاملة ، ودعا الثانى إلى الأخوة العالمية ، وانصرف كل منهما عن العنصر والجنس ، وعن الوطن والإقليم ، فانتشرا وبشّر بهما الأنصار ونقلوا ما داخلهما من فكر وفلسفة ، ومن لغة وثقافة ، إلى الشرق أو إلى الغرب ، أو إلى الاثنين معاً .

أحدثت حرب الإسكندر إذاً ثورة فكرية فى بلاد الشرق القديم ، ووجّهتها وجهة ثقافية جديدة . وكانت مصر أسبق بلدان هذا الشرق سيراً فى الاتجاه الجديد ، وأبعدها إغراقاً فيه . ولعل ذلك قد تمثّل بصورة جلية فيما استقبلت به مصر الفرعونية الديانة اليهودية واليهود قبل عهد الإسكندر بألف سنة أو نحو ذلك ، وفيما استقبلت به المسيحية والإسلام بعد ذلك بقرون ؛ فقد طاردت مصر اليهودية واليهود على نحو ما هو معروف ، على حين أنها اعتنقت المسيحية ودافعت عنها وكافحت من أجلها ضد اضطهاد أباطرة الرومان الأول ، ثم اعتنقت بعد ذلك الإسلام واستمسكت به وتعصبت له حتى يومنا هذا .

ومع ذلك فلم يكن الانقلاب مقصوراً على شؤون الدين فى حدوده الضيقة ،

وإنما هو قد شمل الثقافة بمعناها الأوسع . وقد أبرز ظهور العالمية والاتصال بين الشرق والغرب قيمة موقع مصر الجغرافى ، كحلقة الاتصال وحجر الزاوية فى اتصالات العالم . وكانت مصر قد استأهلت لأن تـكون واسطة الثقافة بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ؛ بل عقد الاتصال بين الأجيال التى لاحَقَ بعضها بعضاً على مر الزمن . فمصر بلاد غنية ، عريقة فى الحضارة والمدنية ، ذات ثقافة قديمة امتازت كما ذكرنا بالعراقة والاستمرار ووثيق الاتصال بغيرها من البـلاد والشعوب . وبديهى فى معرض الوساطة الثقافية ونقل نتاج الفكر وتراث العقل أن يعين ذلك كله مصر على أن تحتضن ألوان الثقافة التى انتهت اليها أو مرت بها ، وأن يغذيها بما يحفظ لها حيويتها وإن صبغها بصبغة جديدة ، قد تباعد قليلا أو كثيراً بينها وبين ما كانت عليه قبل أن تصل أرض مصر . ولولا ما كانت عليه مصر من مدنية وحضارة عاشت على الزمن ما استطاعت بلادنا أن تحتضن ما احتضنت من ثقافات أجنبية ، ولا أن تنقل تلك الثقافات إلى أهل الشرق حيناً وأهل الغرب حيناً آخر . فكما أن فاقد الشىء لا يعطيه ، كذلك الجاهل لا يمكن أن يكون ناقل علم أو ناشر معرفة أو رسول ثقافة . ولقد رأينا مصر بعد عهد الإسكندر تحتضن ثقافة الإغريق وعلمهم ، وتحفظ تراثهم العقلى بعد أن مات فى بلاد الإغريق نفسها أو كاد ، وصارت الإسكندرية مركز الثقافة الإغريقية فى العالم ، حيث تزاوج الفكر الاغريقى بالفكر المصرى ، فظهرت فلسفة دينية جديدة ، وعلم وفن جديدان . وكانت الإسكندرية ومصر عامة أكثر ملاءمة من حيث الموقع الجغرافى ، فانتشرت الثقافة الجديدة على نحو لم يكن ليتاح للفكر الاغريقى لو لم يهيأ هذا المركز الجديد الذى يلائم الانتشار والاتصال بالبر والبحر على السواء ، والذى هو ملتقى أهل المناطق الحارة وما يتصل بها شرقاً وأهل المناطق المعتدلة وما يتصل بها غرباً . والحق أن فضل مصر والإسكندرية فى تغذية الثقافة الإغريقية وإذاعتها ، وكذلك فى حفظها على الزمن للأجيال اللاحقة فضل لا ينكر . وقد تكررت هذه القصة فى صورة جديدة عند ما ظهر الإسلام ونبت فى بيئة صحراوية كانت صالحة للاستلهام والابتكار ، ولـكنها لم تكن لتصلح للتغذية والتربية والإنماء ؛ فاحتضنت مصر الدين الجديد والثقافة الجديدة ، وغذتهما من تربتها ولبانها ؛ واتخذ الإسلامُ والثقافة العربية مركزاً جديداً ، ولـكن ليس فى الاسكندرية ذات البيئة البحرية

والاتصال الشمالى ؛ وإنما فى القاهرة التى هى خليفة هليوبوليس القديمة مدينة العلم والنور ، حيث احتكّت أفكار المصريين منذ القدم بأفكار غيرهم من أهل المشرق . وهكذا أصبحت مصر والقاهرة خاصة قاعدة الثقافة الجديدة ومعقلها ، لا سيما فى عهود اضمحلال البلاد العربية ذاتها ؛ فظهرت فى مصر علوم الإسلام وفنونه ، وجانب كبير من فلسفته وتصوفه . ولولا أن قيّض الله للإسلام هذا البلد الأمين المضياف ، ذا التراث العقلى والفنى ، وذا الموقع الجغرافى المتصل ، ما كان له ذلك الذيوع ، ولا كانت لثقافته العربية تلك المكانة وذلك الاستمرار .

والغريب فى أمر مصر وعلاقاتها الثقافية — أو لعله ليس غريباً — أن التاريخ أعاد نفسه أكثر من مرة ، وإن اختلفت صور ذلك من عصر إلى عصر . وكانت هذه الأرض الطيبة على الدوام بلداً مضيافاً يرحّب بالوافدين إليه فى طلب الثقافة والمعرفة ، واللاجئين إليه فى طلب الرزق والأمان ، من حملة العلم أو دعاة الفكر . ففى مصر القديمة الفرعونية كانت هليوبوليس مقصد الوافدين من البلدان المجاورة ؛ ولم تقتصر اتصالاتها على بلاد المشرق ، وإنما وفد إليها فى أواخر العهد الفرعونى كثير من أبناء الإغريق الذين تعلموا ونقلوا كثيراً عن مصر القديمة . ثم فى العهد البطلمى والرومانى غدت الاسكندرية مركز العلم والنور والعرفان ، قصدها العلماء والباحثون وأهل الحكمة والأدب والفن ، فآوتهم الدوله وأجرت عليهم الأرزاق من خيرات مصر . ثم فى العهد الاسلامى تكررت هذه الصورة فى لون جديد ؛ فظهر الأزهر وأروقته التى جمعت العلماء والمتعلمين من مشارق العالم الاسلامى ومغاربه ؛ وجادت مصر فى كرم وغير منّ على أبناء تلك البلاد جميعاً ، لا بخيراتها وطيباتها فحسب ، بل كذلك بغذائها الروحى والعقلى الذى ما كان ليتهيأ فى بلد غير مصر . حتى إذا ما جاء العصر الحديث وأخذت مصر تتصل بالغرب الجديد ، وتقتبس من ثقافته وحضارته ألواناً تضيفها إلى ما جمعت عن الماضى ، وتزاوج بينها وبين تراثها المصرى والشرقى ، خرجت مصر على العالم بلون جديد من الثقافة المصرية العربية ، أو سمِّها إن شئت الثقافة العربية المصرية ، وجادت مصر بهذه الثمرة الجديدة فى سخاء وفى غير منّ أيضاً على جاراتها القريبة والبعيدة . من أم الثقافة العربية ؛ بل إنها لم تكتف فى ذلك بما قدمت للوافدين عليها من كرم الضيافة ، وإنما هى

قد سعت إلى تلك البلاد جميعاً بأبنائها ورسلها تبعث بهم يحملون لواء الثقافة الجديدة ، ويطوّفون بمشعلها فى الشرق والغرب والجنوب .

وقد لا يعنينا كثيراً أن نحاول تفسير ما جُبِلت عليه مصر فى علاقاتها الثقافية من حب الأخذ وحب العطاء فى غير تضييق وفى غير حساب ، ومن التأثير فى العالم الخارجى والتأثر به فى غير وجل ولا تردد ، بل من عدم التقتير والتقييد من جانبها إن هى أعطت وأثّرت ، وقلة الحذر وعدم استشعار ما يسمونه مركّب النقص إن هى أخذت وتأثرت . فقـد يكون مرجع ذلك كله ما كانت ترتكن إليه من قوة ذاتية مستقرة ، وثروة ثقافية كامنة ، جعلتها تحس بأن ليس يضيرها الأخذ ولا العطاء ، وأنها مهما أخذت ومهما أعطت فذخيرتها من تراث العقل والفكر ، ورصيدها من مقومات الحياة مادية ومعنوية ، ليس مما يخشى عليه من التغيير والتبديل أو النقص والتبديد . كذلك قد يكون ذلك النهر العظيم الذى يفيض بالخير فى كل عام ، وتلك التربة الطيبة التى تكاد تنبت كل الثمرات ، قد علّمت المصريين كرم السجية وسخاء الطبع منذ استقرت بهم الحياة فى وادى النيل ، فاشتقوا كرمهم من كرم الطبيعة ، وسخاءهم من سخائها . وقد يكون موقع مصر الجغرافى على مفترق الطرق هو الذى فطر المصريين على لطف المعاشرة وحب التآخى والمخالطة ، وهو الذى تطلّبَ منهم جميل المعاملة وإكرام الوفادة إن هم أرادوا أن يستجيبوا لمقتضيات ذلك الموقع استجابة طبيعية لا تكلف فيها ؛ إذ لا يملك المقيم على مقرن الأرضين ومفرق البحرين إلا أن يقوم بدور المضيف للقادم وعابر السبيل . وهكذا اعتاد المصريون أن يكونوا مضيفين ، وتبددت عنهم الريب والشكوك فى الطارقين مهما يكن لونهم وثقافتهم ، فأعطوهم وأخذوا عنهم ؛ وكانوا فى عطائهم جوادين كرماء ، أعطوا مما تجمّع لديهم من تراث تليد هو من نتاج البيئة المصرية ذاتها ، وتراثٍ طريف هو فى أصله من نتاج البيئات المجاورة ولكنه غرس فى أرض مصر فتغذى بلبانها واتخذ طابعها إلى حدٍّ يسير أو خطير . ثم إن المصريين لم يحسوا فى يوم من الأيام بالحرج فى أن يأخذوا عن غيرهم بعض ألوان الثقافة ؛ لأنهم كانوا فى ذلك ككل كريم لا يتردد فى الأخذ والقبول لأنه لا يتقاعد عن البذل والعطاء .

وعلى كل حال فمهما تكن علة هذه الظاهرة فى مصر والمصريين ، ومهما يكن مرجعها إلى أحد تلك الأسباب السالفة أو إليها مجتمعة ، فإن الذى يهمنا الآن

هو أن نسجل ما ترتب على ذلك من أن مصر لعبت دوراً بالغ الخطورة فى تاريخ الاتصالات الثقافية وانتشار الثقافة البشرية ، وأن هذا الدور كان مستنداً إلى دعامتين أساسيتين ، إحداهما ما أنتجته مصر ذاتها من ثروة عقلية ساهمت بها فى تطور العلم والمعرفة والثقافة البشرية العامة . وثانيتهما ما قامت به مصر للعالم من وساطة فى النقل وتمكين للاتصال بين الشرق والغرب عن طريق موقعها الجغرافى . والذى يريد أن يتفهم ماهية هذا الدور الخطير الذى لعبته مصر فى تاريخ البشر الثقافى تفهما عميقاً صحيحاً لابد له أن يجمع بين هاتين الدعامتين فى بحثه وألا يفرق بينهما بحال . وقد يكفينا للتدليل على ضرورة هذا الجمع أن نورد هنا عدداً من الأدلة والأمثلة المختارة .

وللثقافة البشرية فى عرف الباحث والمؤرخ نواح أربع أساسية ، يتصل كل منها بناحية من حياة الإنسان . فأما الأولى فناحية الروح وما يشبع نزعاتها من عقائد وأديان ، ومن فكر دينى وفلسفة روحية . وأما الثانية فناحية الذوق والتذوق الحسى ، وما يجيب حاجاتهما من فن منظور كالرسم والنحت والعمارة وغيرها ، أو مسموع كالغناء والموسيقى . وأما الثالثة فناحية النطق والتصوير والتعبير ، وما يتصل بها من لغة وأدب ، وفنون تتصل باللغة والأدب . وأما الرابعة والأخيرة فناحية العقل والتفكير العقلى ، وما ينتج عنهما من مشاهدات للطبيعة ودراسة للأشياء واستخلاص للحقائق والقوانين وتبويب للمعرفة فى علوم وفنون لا تتصل بالروح والعاطفة وإنما تتصل بالطبيعة والعالم ، وما يحويان من قوى ومن أشياء . وهناك نواح أخرى وأفرع صغيرة من الثقافة والمعرفة البشرية العامة ، ولكنها تتصل من قريب أو بعيد بإحدى تلك النواحى الأربع الكبرى . وقد يبدو غريباً فى هذا التقسيم أن نضع الناحية الروحية فى رأس القائمة ، وأن نؤخر ناحية العقل إلى الذيل . ولكن هذا هو الترتيب الطبيعى والواقعى لما حدث فى تطور ثقافة الإنسان . فقد لوحظ أن الإنسان القديم نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ؛ وأنه إذ رأى الطبيعة من حوله وحاول فهم الأشياء عمد إلى تفسيرها تفسيراً روحيًّا ودينيا ، فنسب إنبات الحب مثلا إلى قوة غريبة لا يدركها وإن كان يؤمن بها ويرهبها ؛ وهو لم يحاول أن يفسر ذلك تفسيراً عقليًّا ، تصدقه المشاهدة ويقبله المنطق ، إلا فى دور لاحق من أدوار المعرفة . والواقع أن الإنسان لم يعمد إلى

إعمال فكره وإجهاد قوته العقلية فى فهم الأشياء وإدراك حقيقتها إلا متأخراً نسبيًّا فى تاريخ المعرفة البشرية . ولا يزال قسم غير ضئيل من شعوب البشر يتقاعد عن إعمال الفكر والعقل ، ويفضل فهم كثير من الأشياء على أساس روحى هو أقرب إلى فطرة الإنسان . بل لا يزال إجهاد الفكر وتحكيم العقل عملية شاقة يتكاسل عنها الفرد فى أرقى المجتمعات والشعوب ، ولا يعمد إليها ويعتاد ممارستها إلا بعد كثير من التعليم والترويض والتهذيب .

فأما ناحية الفن فقد ارتبطت منذ البداية ارتباطاً وثيقاً بناحية الروح ؛ وكثيراً ما سُخِّر الفن ، ولا سيما فى أطواره الأولى ، لخدمة الدين وإشباع الحاجات الروحية والدينية للفرد والمجتمع . وكذلك الحال إلى درجة ظاهرة فيما يتصل باللغة والأدب والفنون الأدبية . ولم يسخَّر الفن والأدب فى خدمة الناحية العقلية والإنتاج العلمى إلا بقدر محدود وفى العصور المتأخرة نسبيًّا من تاريخ الثقافة العامة .

لذلك كله كان من المستحسن عند الكلام على الثقافة العامة أن نبدأ بالناحية الروحية ، ثم ننتقل إلى النواحى الأخرى على التوالى ؛ لأن ذلك يكون أدعى إلى التمشى مع تطور الثقافة كما نعرفه اليوم . فإذا ما نحن علمنا أن مصر كانت من أقدم بلاد العالم مساهمة فى بناء المعرفة وإنماء الثقافة البشرية ، وجب أن تمتاز ثقافتها القديمة فى نواحى الروح والفن والأدب أكثر مما تمتاز فى الناحية العلمية . ولا ينبغى إذاً أن تقاس الأمور عند تقدير ما ساهمت به مصر القديمة بنفس المقياس الذى نلتزمه عند ما نقيس ما تساهم به الأمم الحديثة فى الفكر والثقافة . ويكفى أن نذكر أننا لو حاولنا أن نستعرض ما ساهمت به أمم أوربا الغربية فى إنماء ثروة البشر الثقافية خلال العصر الحديث والمعاصر لم نكد نجد إلا القليل مما يتصل بناحية الروح من الإنسان ، فى حين ينصب أغلب التقدم على الناحية العقلية المتصلة بالعلم والتطبيق العملى . فالحالة هنا هى فى جملتها عكس ما كانت عليه عند الأمم القديمة بصفة عامة .

ومع ذلك فقد يبدو أول الأمر أن مصر لم تساهم كثيراً فى بناء الناحية الروحية من ثقافة البشر وإقامة دعائمه الأولى ، وإن كانت قد ساهمت فيما بعد مساهمة رائعة فى نشر العقائد الشرقية ، وأهمها المسيحية والإسلام . ولكن الأمر أعمق من ذلك . ولقد كان المصرى منذ فجر التاريخ مستجيباً لبيئته ،

مستوحياً إياها ، مستلهما منها عقيدته التى كتب لبعض عناصرها الدوام على الرغم من أن مصر القديمة لم تخلف لنا ديناً منظما مشرعاً كما خلف لنا الشرق الأسيوى القديم فى دياناته السماوية . وآية ذلك أن المصرى الأول نظر إلى بيئته فوجد فيها ذلك الوادى الأخضر ، حيث يجرى الماء بالحياة وتجود الأرض بالطيبات ، وحيث يعيش ويسعى كل شىء حى ؛ ثم وجد على الجانبين تلك الصحارى المقفرة والفيافى المعسرة ، حيث الشمس المحرقة وحيث الخوف والموت والفناء . وقد انعكست صورة ذلك كله فى نفس المصرى وروحه ، فاهتدى إلى فكرة الخير والشر ، واتخذ لكل منهما إلـهاً . ثم دار الكفاح بين الإلـهين فى ذبذبة دائمة ، فانتصر الخير وإلـهه «أوزيريس» حيناً ، وطغى الشر وشيطانه «سيت» حيناً آخر . . . وتلك فيما يظهر نفس الفكرة — فكرة وجود «الله» «والشيطان» — التى ترددت فيما بعد فى كثير من الأديان اللاحقة التى لا يبعد أن تكون قد تأثرت من قريب أو بعيد بالفكر المصرى .

وهناك عناصر أخرى لا تزال باقية من الديانة المصرية القديمة ؛ ربما كان أظهرها تلك القصة الرائعة ، قصة إيزيس وشقيقها وزوجها أوزيريس وابنهما حورس ؛ وهم جميعاً من الآلهة . وقد حملت إيزيس بابنهـا حورس من أبيه أوزيريس (وبطريقة إلـهية غامضة) بعد وفاة هذا الأب . ويرى بعض الباحثين من أمارات الشبه بين هذه القصة وقصة مريم العذراء وابنها المسيح عليه السلام مايسوّغ فى رأيهم أن تكون القصة المصرية قد أثرت ولو بطريق غير مباشر ، فى تكييف القصة المسيحية ، وذلك بعد أن انتشرت عبادة إيزيس وابنها الإلـه الطفل من مصر إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط وشرقه فى العهد الإغريقى .

وفى العهدين المسيحى والإسلامى لعبت مصر دوراً جديداً ؛ كانت فيـه القاعدة التى انتشرت منهـا المسيحية إلى سواحل برقة ، وإلى بلاد النوبة والسودان ، وكذلك إلى الحبشة التى لا تزال ترتبط بالكنيسة القبطية ارتباطاً وثيقاً ، كما انتشرت بعض نظم المسيحية ، لاسيما نظام الرهبنة وحياة الأديار ، من مصر إلى بلاد البحر المتوسط وغرب أوربا . ثم جاء العهد الإسلامى فانتشر الدين الجديد غرباً وجنوباً نحو شمال إفريقية والسودان . ولعل من الطريف حقـاً أن نلحظ أن توسع العرب وانتشار الاسلام نحو شمال السودان لم يجىء من بلاد العرب عبر البحر الأحمر مباشرة ، وإنما جاء عن طريق شبه جزيرة سينه

ومصر ووادى النيل ؛ لأنها كانت الطريق الطبيعى لهجرة البدو والقبائل ، وللتوغل الجنسى والثقافى إلى السودان . وهـذا فى حد ذاته مما يزيد الرابطة التاريخية ويبرز الوحدة الطبيعية والبشرية بين شطرى وادى النيل .

فإذا ما تركنا الدين جانباً ، وانتقلنا إلى ميدان الفن وإشباع حاجات الذوق والتذوق الحسى فى الانسان ، لنسوق بعض الأمثلة مما أنتجت مصر للانسانية ، وجدنا غير قليل من عناصر الخلود فى هـذه الناحية من تراث مصر الثقافى الأول . ومرجع الخلود هنا أيضاً أن المصرى استلهم بيئته فى الاهتداء إلى فنه . فهو قد نظر إلى بيئته الـكبرى ، فوجد هذا الوادى المستقيم المنبسط يمتد سطح أرضه فى استواء لا اعوجاج فيه ، ويقوم على جانبيه حائطان رأسيان من الحجر الجيرى الأبيض المقطوع فى زاوية قائمة ، والذى يتكون من طبقات متوازية بعضها فوق بعض ، فى خطوط أفقية مستقيمة ؛ فإذا ما وصلنا سطح الهضبة امتدت الصحراء فى استواء عجيب مرة أخرى ؛ فليست هناك جبال ولا تلال تقطع خط الأفق . ولا بد للمصرى من أن يبتعد كثيراً عن جوار واديه ، وأن يتوغل إلى سواحل البحر الأحمر ليجد تلك الطبيعة ذات السطح المعقد المقطع ؛ أما فى الوادى وما جاوره فالطبيعة سهلة ومكونة من مسطحات تتقاطع فيها الخطوط الرأسية والأفقية . وقد انعكست صورة هـذه الطبيعة فى ذوق المصرى الذى قام على البساطة والسلامة وقلة التعقيد . وانعكس هذا الذوق بدوره فى فن المصرى ؛ فرأيناه يقيم المعابد والهياكل مثلاً فى أشكال هندسية مربعة أو مستطيلة ، ويرفع جدرانها فى هيئة تتسق والطبيعة التى نقل عنها ؛ ورأيناه يقيم الهرم مثلاً فى شكل هندسى ذى مسطحات بسيطة مستوية وأضلاع متساوية مستقيمة ، ينظر إليه الناظر فلا يرى غير هذه البساطة الرائعة التى تتمشى مع ما فى الطبيعة المحيطة من جمال بسيط وسحر هادئ وديع . فلنقارن بين هذه الهياكل المصرية القديمة ، أو بين هذا الهرم البسيط الرائع ، وبين هيكل من هياكل القرون الوسطى والعهد القوطى فى أوربا من كنائس وغيرها ، حيث المبانى تتقاطع فيها الخطوط والمنحنيات ، وتكثر فى سطحها الفجوات والنتوءات ، وتبرز من واجهاتها التماثيل والنقوش الـكثيرة ، وتختلف مستوياتها فى الارتفاع والانخفاض ، ويختلط فيها الظل والنور ؛ فيثير كل ذلك فى نفس الرائى رهبة مصدرها التعقيد المحير ، وروعة مرجعها الشعور الذى

لا يكاد يستقر على شىء معين مما يراه الناظر . أما الهرم فإن سحره وروعته ورهبته تربض كلها فى بساطة وجلال ووقار ، وتكمن فى أشكال ومسطحات هندسية بسيطة ، استطاع المصرى أن يضمّنها فنه ، وأن يرمز بها إلى أفكار من الدين والعقيدة لا تقل فى عمقها عما ترمز إليه كنيسة العهد القوطى فى أوربا .

وكذلك تمثلت بساطة الفن وسلامة الذوق فى العمارة المصرية خلال العصور ، ثم فى فن الرسم والتصوير . . . واحتفظ المصرى بهذه الصفة كامنة فى فنه على مر الزمن . حتى إذا ما جاء الاسلام ، وهو دين بساطة ، برزت قيمة هذه المزية فى الفنان المصرى ، وتمثلت فيما خلّفه من العهد الإسلامى من عمارات ومساجد تحلّيها رسوم عربية هندسية بديعة لا تزال تستهوينا بجمالها حتى اليوم . ومن يدرى ! فقد يبعث العهد الجديد فى نهضتنا الحديثة روحاً جديداً فى الفن المصرى . وقد رأينا العالم يتجه فى فن العمارة نحو البساطة والخطوط المستقيمة والواجهات المستوية والأشكال الهندسية فى الرسم والتصميم وفى الزخرفة والترويق ؛ وقد يجد الروح المصرى مجالا جديداً فى هذا الاتجاه .

فإذا ما انتقلنا الآن إلى الناحية الثالثة من الثقافة وهى ناحية اللغة والأدب وجدنا المصريين أسبق الناس جميعاً إلى استنباط الكتابة . وقد عبروا عن حاجاتهم بل عن أفكارهم فى صور جميلة مشتقة إلى درجة ظاهرة من البيئة المصرية ذاتها . وليس يعنينا تتبع تاريخ الكتابة فى مصر ؛ ولكن هناك رأيا يقول إن المصريين أثروا فى غيرهم من أهل المشرق القريب منهم وبلاد فينيقية ، وإن الكتابة المصرية القديمة أثرت فى بعض الكتابات اللاحقة عن هذا الطريق . ومهما يكن من أمر ذلك فقد أنتج المصرى القديم أدباً رائعاً فى لغته المصرية ، وانحدرت بعض آثار ذلك الأدب لا سيما الجانب الشعبى منه إلى العصور اللاحقة ؛ وربما كانت قصة الملاح المصرى التائه أصدق مثل على ذلك ؛ إذ أنها خُلدت فيما بعد فى قصة السندباد المعروفة فى كثير من الآداب الشرقية القديمة والحديثة .

وقد عاشت اللغة المصرية القديمة وآدابها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ؛ وتلك حقبة طويلة من الدهر ، لا تكاد تضارعها حياة لغة أخرى من لغات التاريخ ، غير لغة أهل الصين . ومع ذلك فإن آثارها لم تمت تماماً ؛ فهى لا تزال ماثلة فى بعض طرائق التعبير فى حديث أهل مصر ولهجاتهم ، وفى بعض أغانيهم

وأقاصيصهم الشعبية ، وإن كانت لغة التعبير قد تغيرت وحلّت العربية محلّ المصرية القديمة ، أو محل القبطية التى انحدرت عن المصرية القديمة .

وفى العهد الإسلامى أخذت مصر اللغة العربية عن بلاد العرب ، ولـكنها لم تقنع بأن تبقى عالة على تلك البلاد من ناحية الأدب والإنتاج الأدبى ، وإنما صار لها بالتدريج أدبها المصرى العربى ؛ بل صارت هى فى وقت من الأوقات القوّامة على لغة القرآن وآدابها ، ومركز الثقافة اللغوية والأدبية الأول فى العالم الإسلامى بأسره . وهى ما زالت كذلك حتى يومنا هذا .

فإذا ما انتهينا إلى الناحية الرابعة والأخيرة من نواحى الثقافة العامة ، وهى ناحية العقل ، وإشباع حاجات الفكر فى المشاهدة والتعليل واستنباط العلوم وما يتصل بها من فنون وتطبيق عملى ، برزت لنا مساهمة مصر منذ القـدم ، على الرغم من أن طبيعة الأشياء كانت تقضى كما ذكرنا بأن تكون تلك المساهمة على قدر يسير فى تلك الفترة المتقدمة من التاريخ . وكان ما ساهم به المصريون القدماء من هذه الناحية منحصراً على وجه الخصوص فى علوم الفلك والرياضات وبعض العلوم التطبيقية كالهندسة ومايتصل بها . وهنا أيضاً كانت الطبيعة هى المعلم الأول للمصرى ، الذى لاحظَ مثلا حركات النجوم فى أفلاكها ، كما لاحظ انقسام السنة إلى فصول ، فاهتدى إلى وضع تقويم يرجع عهده فى رأى بعض الباحثين إلى أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد ، ويقوم على تقسيم السنة إلى أشهر على نظام يشبه التقويم القبطى ، الذى لا يزال معمولا فى الزراعة المصرية إلى يومنا الحاضر . كذلك شاهد المصرى حركة الشمس ، وقسم النهار والليل إلى ساعاتهما المعروفة ؛ وساعد كل ذلك على ضبط الحياة وتوقيتها ، وهو أمر لازم من أمور المدنية ومستلزماتها الأولى .

كذلك برع المصرى فى علوم الحساب والرياضة ، وعبر عن عملياتها تعبيراً واضحاً ، وإن كان قد استخدم الرموز البسيطة فى التعبير . ثم انتقل إلى الهندسة نظرية وفراغية وتطبيقية ؛ وعمد منذ البداية إلى الدقة فى استعمال المقاييس والمعايير رغم قلة الآلات والأدوات لديه . فهو مثلا قد تصور شكل الهرم قبل أن يبنيه ، ولابد أنه قد رسمه لنفسه قبل أن يخرجه إلى حيز الوجود ؛ ثم هو قد قاس أبعاده فى الطبيعة ، ونحت حجارته على شكل مكعبات مستوية السطح متساوية الأبعاد إلى حد لا يتحقق إلا لمن توافرت له الدقة فى العلم والعمل ..

وتلك الدقة بعينها هى التى تمثل عنصر الخلود فى العلم المصرى القديم ؛ إذ لولاها ما استطاع المصرى أن يخرج للناس آثاره الخالدة ؛ بل لولاها ما استطاع أن يهيئ للحياة المصرية مقوماتها المادية الأساسية ، من قياس مياه النيل وضبطها ، وشق الترع والقنوات وحساب مناسيبها إبّان الفيضان ، وغير ذلك مما لم يكن ليستطاع بدونه إيصال الزراعة المصرية إلى ما وصلت إليه فى ذلك الزمن السحيق .

وقد استطاعت مصر أن تحمل لواء هذه العلوم الفلكية والرياضية والهندسية وغيرها من العلوم التطبيقية وذات القيمة العملية فى الحياة حتى جاء الإغريق ، فتلقوا عنها الرسالة ، وحملوا المشعل بدورهم إلى أن استعادته مصر فى عهد البطالسة الأُوَل ؛ ثم انتقل منها بعد ذلك إلى أيد أخرى فى الشرق والغرب .

* * *

تلك فى إيجاز قصة مصر ومكانتها فى تاريخ الثقافة البشرية العامة ، ومساهمتها بالإنتاج حيناً ، والنقل والإذاعة حينا آخر . وهى قصة لا تخلو من كثير من الروعة لمن شاء أن يمعن فى دراستها ويدقق النظر فى تفصيلاتها . بل هى تكاد تكون فى جملتها صورة حية من تاريخ الإنسانية فى كفاحها الطويل نحو ثقافة عالمية ، تقوم على أساس الأخذ والعطاء ، بين الشعوب فى حرية وسخاء . ولقد كانت مصر أم المدنية وأم الثقافة فى كثير من عناصرهما وألوانهما ؛ وبقيت مصر على الزمن أمة ذات مدنية وحضارة بعد أن مات غيرها من الأمم . فأين منها بلاد سومر وبابل وآشور ، حيث قامت مدنية زراعية عريقة ، ولكنها اندثرت ، فبارت أرضها وجف زرعها وعمّها البوار والخراب ، إلى أن تجددت فى بعض عصورها اللاحقة ؛ على حين أن أرض مصر بقيت تزرع وتؤتى أكلها فى كل عام خلال آلاف السنين . وأين منها كذلك — ورغم ما قد يبدو فى ظاهر الحديث من إسراف — بلاد الإغريق حيث ازدهرت الحضارة والثقافة ازدهاراً هائلاً ولكن خلال قرون معدودات ، ماتت بعدها فى تلك البلاد موتا . ولولا أن قيّض الله لها مصر لعفى عليها الزمن ، وجرى على كثير من أصولها النسيان . وأين منها بلاد الهند ، حيث قام خليط من الحضارات والثقافات ، شارك بعضها بعضاً فى قدر معين من العناصر المشتركة ، ولكنها بقيت على الزمن غير متسقة ، بل متفاوتة فى مراحل التقدم تفاوتاً لم يتَح للهند معه أن

تخرج للناس تامة الوحدة فى أى دور من أدوار التاريخ . ثم أين منها بلاد الصين ، وهى عريقة فى المدنية والثقافة ، مستمرة على الزمن حتى يومنا هذا ؛ ولكنها مع ذلك ورغم ضخامتها واتساع مساحتها ، لم تكن إلا لنفسها وما جاورها وأحاط بها من بلاد ؛ فهى لم تساهم بشىء يذكر فى خلق ثقافة عالمية . بل أين منها بلاد الغرب ذاتها ، وتاريخها الثقافى لا يعدو فصلا قصيراً من كتاب الزمن !

لقد أنتجت مصر كثيراً فى تاريخها الطويل ، ومنحت العالم كثيراً من نتاجها الطيب ، وكانت كريمة فى ذلك إلى أقصى حدود الطاقة ؛ بل إنها وهبت للعالم أرضها وموقعها الجغرافى الفريد ، فربطت بين أجزائه ، وقرّبت بين ماضيه وحاضره ؛ وأصابها من وراء ذلك بعض الخير ، أو إن شئت فقل أصابها خير كثير فى بعض العهود ؛ ولكنها قاست من وراء ذلك فى كثير من الأحايين . ولعل فى اختلاف تاريخنا السياسى بعد عهد الإسكندر عنه فى العهد الفرعونى ما يشهد بما حدث من تغيير بالغ ؛ إذ لم يعد أمر هذا التاريخ وتوجيهه مقصوراً على أهل الوادى وظروفهم المحلية ، وإنما اتصل كذلك بمسائل كثيرة «عالمية» لا دخل لمصر فيها ؛ وأفلت بذلك زمام التاريخ من أيدى مصر وأبنائها إلى أيد كثيرة امتدت إلينا من أدنى الأرض حيناً ومن أقصاها حيناً آخر ، وساهمت فى توجيه تاريخنا السياسى بقسط كبير .

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر ، حتى فى عهود ضعفها السياسى ، أن تقوم على تراث العالم من ثقافات التاريخ القديم والوسيط شرقية وغربية ، وأن تحفظ كثيراً من عناصر تلك الثقافات لتفيد منها الإنسانية فى أجيالها الثقافية .

وبعد ، فأغلب الظن أننا نعيش الآن فى فترة تطور من تاريخ الثقافة البشرية والاتصالات الثقافية العامة . وسواء أدرك العالم حقيقة ذلك أم لم يدرك فإن رسالة مصر فى هذا الطور الخطير لن تقل عما اضطلعت به من رسالات مماثلة فى الماضى . وسواء أراد المصريون أم لم يريدوا — وهم مريدون فيما يبدو من ظاهر الأمر — فإن بلادهم ستكون همزة الوصل بين الشرق والغرب فى هذا الجيل والأجيال القادمة . ومن الخير لمصر وللعالم أن يُمَكَّنَ لها فى أداء رسالتها والاضطلاع بواجبها على خير وجه وأكمله . ولابد لذلك من أن يتوافر شرطان أساسيان . فأما الأول فأن يدرك القائمون على شؤون الثقافة فى مصر خطورة هذا الدور الذى فرضه علينا موقعنا الجغرافى وتاريخنا الطويل فى شؤون الثقافة العالمية .

ولن تكون مصر جديرة بموقعها فى قلب العالم إذا هى قنعت بأن تكون مجرد «طريق» تمر فيه تيارات الثقافة بين الغرب والشرق «دون توقف» ؛ ولن تكون خليقة بماضيها الرائع ولا حقيقة بأن تتبوأ مكانها فى عالم المستقبل كما تبوأته فى عالم الماضى إذا هى لم تعمل لأن تكون «مركز اتصال» و «قاعدة» يلتقى عندها الشرق والغرب ، وتكون هى واسطة التعارف . ومصر لن تبلغ ذلك حتى تبدأ بنفسها ، فتأخذ من ثقافة الغرب كل ما تستطيع دون أن تحس حرجاً أو تستشعر مركَّب نقص ، ثم تحيى من تراثها القديمَ كل ما تستطيع إحياءه من ثقافة مصر الفرعونية والبطلسية والعربية الإسلامية جميعاً ؛ ففيها كلها من عناصر الثروة ما هو جدير بالبعث والحياة . . . وفى هذا الجمع بين القديم والجديد وبين المصرى والشرقى والغربى من ألوان الثقافة ما ينبغى أن يساهم فيه أكبر عدد ممكن من المصريين ؛ فنحن فى عصر لم يعد يحتمل أن يخص بالثقافة فريق من أهل مصر دون فريق . وكلما كثر المساهمون من المصريين فى خلق هذا اللون الجديد من الثقافة المصرية وتكييفه زاد الاحتمال فى أن يقيِّض الله لمصر من أبنائها عدداً أوفر ممن يحملون لواء الثقافة العليا ويساهمون بالخلق والابتكار ، فيخرجون للعالم الشرقى والغربى على السواء ثمرات جديدة من الفكر ، تكون عنوان مساهمة مصر الناهضة فى إنماء الثقافة العالمية الجديدة .

وأما الشرط الثانى الذى ينبغى أن يتوافر قبل أن يمكَّن لمصر فى قضاء واجبها وأداء رسالتها نحو العالم ، فأن يدرك هذا العالم خطورة ما تستطيع مصر أن تؤديه فى تعريف الشرق بالغرب وتعريف الغرب بالشرق ؛ وهى البلد الذى عرف الاثنين ، واحتك بهما منذ قرون وقرون ؛ بل هى ربما كانت البلد الوحيد الذى يستطيع كل من الشرق والغرب أن يجد فى ثقافته وتراثه الثقافى قليلا أو كثيراً مما يعرف ومما يطمئن إليه . وليس من شك فى أن العالم بحاجة إلى أن تتوثق الصلات فيه بين الشرق والغرب ، وأن تقوم على أساس من التقارب الفكرى والثقافى . ولا يكاد بلد يستطيع أن يؤدى فى هذا السبيل ما تستطيع أن تؤدى مصر . ولكن من حق مصر على العالم فى الشرق والغرب جميعاً أن تَلْقَى العون والتقدير فيما هى مستعدة بل راغبة فى أن تضطلع به . ولن يكون من صالح الإنسانية أن يؤدى ضعف مصر واضطرابها السياسى إلى إضعاف جهودها من ناحية الثقافة والتثقيف ، أو أن يستمر ذلك الضعف والاضطراب

فتنصرف جهود هذه الأمة إلى ما لا يخدم إحياء الثقافة ونشر العلم والمعرفة .
ولقد حدث خلال القرن الماضى وهذا القرن الذى نعيش فيه أن عرف العالم المتمدن لبلاد اليونان ما سبقت به من فضل فى تاريخ المدنية والحضارة ، فذكر لها ذلك فى جهادها السياسى والقومى العام . . . وما أحراه أن يعرف اليوم وأن يذكر ما سبقت به مصر إلى بلاد اليونان وإلى البشرية جمعاء من فضل سيبقى أثره شاهداً على الزمن !

سليمان حزين

غيـــــاب

الضّحى فى المرج مبهورُ الضياء
آسِنُ الصفحة من ريحٍ وماء
كلما همّ بلمحٍ من رجاء
سَبَقَ الغيمُ إليه فطواه

*

ما لهذا الطيرِ معقولَ الجناحْ
وغصونِ الدّوح مَلّتها الرياح
ونفوسِ القوم قد عُلّتْ براح
للأَبَى والصمتِ تُنْمَى كرمتاه

*

وسكونٌ جاثمٌ فى كلّ حىّ
وحَرورٌ لافح مِنْ كلّ فَىّ
وظلامٌ غائم فى مقلَتَىّ
آه لو تجلوه عنّى مقلتاه

*

أيها الغائبُ عن هذى المروجْ
أكثَرَ الصمتُ حَوالىَّ الضجيج
غيرَ همْسٍ من نُفاثاتِ الأريج
وحنينٍ للذى غابَ شذاه

*

أيها الغـائبُ لا عَتْبٌ عليكْ
الشبابُ النَّضْرُ ريّانٌ لدَيْك
وأمانيــكَ جميعـاً فى يديك
كيف تدرى أنّ فى الدنيـا عُناه

*

أنا يا دُنيــاى أبْلَتْنى الهمومْ
والليـالى الصُّمُّ والوجدُ الـكظيم
واستطابَتْ أفُقِى الـكابى غيوم
تلتقى الأقـدامُ فيها بالجبـاه

*

أنا يا دُنيــاىَ قلبٌ من شجونْ
خَفْقُهُ الموهونُ أنّاتُ الحزين
أثخنَتْ فى عزمه سودُ السنين
وتلاشــت فى منـاياهُ مُنـاه

*

كلُّ ماضيهِ من النُّعْمَى خـلاء
والغَـدُ المحجوبُ غَيْمانُ الرّجاء
أين يمضى خطوه — ماذا يشاء ؟
وسَناكِ الحلوُ لا يهـدِى خُطاه

*

إمنحى ماضيهِ من نعماكِ ذِكرى
فالغَدُ المحجوبُ يُخْفِى ثَمَّ أمرا
وأمَىَ الماضى تردُّ الشجوَ صَبْرا
وتشُدُّ العزمَ إن كلَّتْ قواه

*

وإذا ما مَرَّ يوماً فى رحابِكْ
يرتجى الرَّوْحَ على أعتابِ بابِك
فاغمريهِ بحياةٍ من شبابك
تبعثيه مِنْ جديدٍ للحياه

*

وإذا أبْصرتهِ مَلَّ الصِّحابْ
وأغَصَّ الكأسَ بالهمِّ المذاب
فامنحيهِ عطفةً يُمْحَ العذاب
وتحسّ الصابَ حلواً شفتاه

*

لا تمرّى كأمانيهِ سِراعا
واستقرّى فى لَياليهِ شعاعا
إنّهُ يجرعها ساعاً فساعا
وَيْحَ هذا العُمر لو طال مداه !

*

أنتِ نبعٌ من صفاء وحنانْ
يغمر القومَ بأضواء حسان
وهو المحرومُ مُعْتَدٌّ جبان
منطوى النفس على ذُلٍّ وجاه !

*

شاعِرٌ مَلَّ على البابِ الزحامْ
يشتهى الُحبَّ ويأبَى أن يُضام
فاحجبى القومَ وخُصّى بالسّلام
ذلك القلبَ فلا قَلْبَ سِواه

*

حَدّثيهِ ثمَّ لا تبغى جوابا
ودَعيهِ يصحب اللّحنَ العُجابا
وإذا ما هزّه الصمتُ فثابا
فارحميهِ واسأليهِ عن رُؤاه

*

إسأليه واغفرى خَفْقَ بيانِهْ
فالجمالُ الطّهْرُ أقوى من جَنانه
والحديثُ العذبُ يسرى فى كيانه
فيرُدُّ القولَ نشوانَ الشفاه

*

تلكَ يا غائبُ آمالٌ كِبارْ
فى رُؤى الليل وأوهامِ النهار
كلّما صاديتُ عنها الفكرَ ثار
ومَضَى يضرب فى دنيا هواه

*

كم سكبتُ القلبَ آمالاً حسانا
واثباتٍ تتخطّى بى الزمانا
ثم خلّتنى وأبقَتْ لى الهوانا
وكئيباً خفْقُه رَجْعُ أساه

*

علّمتنى صحْوةُ الحُلْمِ السُّكونْ
ورضا المغلوب بالجِدّ الطّعين
فإذا ما ضجّ فى نفسى الحنين
قلتُ أسوانَ وفى العُتْبَى نجاه !

*

أيها الغائبُ لا عَتْبَ عليكْ
الشبابُ النّضْر ريّانٌ لديك
وأمانيكَ جميعاً فى يديك
كيف تدرى أن فى الدنيا عُناه !

عبد القادر القط

رجع الصدى

الشرقُ محافظٌ . لماذا ؟

فى مقال الدكتور طه حسين عن « الأدب العربى بين أمسه وغده »[1] إستكشاف كبير . فقد وجد الدكتور أن الأدب العربى يتّسمُ بأنه جديدٌ قديم فى آن واحد ؛ وأنه كلما كان الأدب العربى يجنح نحو التجديد ، لم يكن يبلغ من التجدّد مدى بحيث يتحلّل عنده من كل قيود القديم ، وإنما كان يُبقى على أصول له ضاربةٍ فى القديم وتقاليد موروثة لامعدىً له عنها . ولم تكن السمةُ ذاتُ الوجهين ، سمة الجدّة والقدم ، متكافئة الوجهين على الدوام . ففى عصور النهوض كان وجه الجدّة يغلب وجه القدم . وفى عصور الإنحطاط كان وجه القدم يغلب وجه الجدّة . ولكنهما على كل حال ، لم يكن بينهما إنفصال تام . وعدم الانفصال هذا هو الذى ينفى عن الأدب العربى صفة الانقطاع بين قديمه وجديده ، تلك الصفة التى وُجدتْ فى آداب أخرى .

وقد فصل الدكتور القول فى سمة الأدب العربى المذكورة تفصيلاً دقيقاً لاسبيل إلى إعادته الآن . وحسبنا أن نحيل قراء هـذا العدد على العدد الأول ، سواء منهم من قرأ مقال الدكتور مرةً ومن لم يقرأه أو مرّ به مرا .

بيد أن الدكتور لم يُشر إلى السبب الذى يجعل الأدب العربى ، بل النفس العربية ، بل النفس الشرقية ، مستمسكةً بأصولها وتقاليدها إستمساكاً يبدو طوراً قوياً ممقوتاً وطوراً هيناً محتملاً . فهل يتلطف فيبيح لى أن ألفت خاطره الأثير عندنا إلى هذا السبب ؟

***

إن مردّ هذا الاستمساك ، إنما هو إلى عاملين اثنين ينحلّ أحدهما فى الآخر

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١ (أكتوبر ١٩٤٥) .

عند التحقيق الدقيق ويصبحان عاملا واحداً . أولهما ، هو الحياة البدوية التى حييها العربى وما يزال يحياها فى أجزاء كثيرة من آسيا الغربية وشمالىّ أفريقيا . فالذين اختبروا البدو ، يعلمون جيداً أن أليف البادية لا يرغب عنها ولا يجد فى غيرها بديلاً منها . صحيحٌ أنه كثيراً ما يشتاق إلى رؤية المدينة ويُفتَن بمباهجها إمّا صار فيها . ولكن الصحيح أيضاً ، أنه لا يطيل الإقامة بالمدينة ، ويضيق بها على تنوع مباهجها إذا ما أطال المكث ، ويحسّ كأن يداً تخنقه وكأن لا ردَّ لرُوحه ورَوْحه إلا البادية . وما فى البادية بعدُ غير الثبات والاستقرار . ما فى البادية غير الواحة والكلأ والسماء التى لا أول لها ولا آخر ، وغير بحور الرمال التى يكلّ الطرف دون مداها ، وغير السافيات وحمارة الصيف وصبارة الشتاء . ما فى البادية من متحرك إلا كثبان الرمل وإلا مضارب البدو : فقد تُجَنُّ الريح — وما أكثر ما تُجنُّ ! — فتحمل الكثيب من مكان إلى مكان . وقد تجدب الأرض وتجفّ الواحة ، فيرحل البدو ويتغير المنتجع . ولكن ما قيمة كلّ هذا التغير البسيط ؟ هل هو تغيّرٌ حقاً ؟ هل يُحدث فى نفس البدوى انقلاباً ذا أثر ؟ وهل يُحوّل البدوىَّ عما ألفه من رصانة وجفاف ووقار ؟

كلا ، ولا يقدر امرؤٌ على أن يحبب إلى البدوى مظاهر المدنيّة وما يجدُّ منها . كلا ولا يقدر على أن يجمّل فى عينيه مرأى حديقة أنف بديع ، كما يَجْمُل فى عينيه وقلبه وكلٍّ نفسه مرادُ الغزلان والأغنام والهواء الطلقُ والسماء الصافية الأديم . فالبادية وما فيها هى كل الجمال فى عين البدوى . وأصص الزهر التى تملأ دورنا ليست تعدل عنده شبراً من مخضوضر الكلأ . والقصور الفخمة فى المدنية ، إن هى إلا سجونٌ بالنسبة إلى الخيام التى ينتقل معها البدو أحراراً . . .

وأخيراً : لعلّ الدكتور لم يكن يريد من وراء مقاله كل الذى أردناه . وإنما أراد أن يقول فقط إن الأدب العربى غير منقطع الصلة بماضيه . ولكنْ أليس الأدب نفسه صدى النفوس ؟ وإذن فالنفوس العربية هى أيضاً شديدة التمسك بقديمها لا تتخلى عنه حتى فى العصور التى يرى العرب أنها عصور تجديد . نقول « النفوس العربية » إطلاقاً ولا نقول « نفوس البادين فقط » . لأن البادية لا تنفرد وحدها بهذه الروح : فأكثر المدن والأرياف فى آسيا الغربية وشمالىّ

أفريقيا تقع على سيف البادية أو فى قلبها ، أو هى وثيقةُ الصلات بالبادية . . . ولنذهب إلى أبعد من هذا . لنقل إن الشرق على العموم ، يتّسم بهذه السمة قليلا أو كثيراً ؛ لأنه يعايش الصحراء قليلا أو كثيراً . وما أكثر الصحارى فى بلاد الشرق وحياة الشرق ! .

***

أما الثانى من العاملين ، فهو التدين . وأُريدُ بالتدين معنىً واسعاً ، سواء أكان تديناً بالإسلام أم بالمسيحية أم باليهودية أم بالبوذية أم بالمانا Mana ، أم بغير هـذا وذاك من معبود . . . فالشرق متدينٌ أمينٌ على الينابيع الروحية دفوع عنها . وقد عصفت به ، أو ببعض أصقاعه ، عواعف جحودٍ وانحلال عديدة فتقاصر ظلّ الدين عن المدن إلى البادية والأماكن المعزولة . ولـكنّ الدين مع ذلك كان يظلّ متماسكا عنيداً إلى أن يُقيَّضَ له أن يعود فيبسط سلطانه من جديد نازعاً عن وجهه ، الحقيقى أو المزيّف ، حجابَ القطيعة والهجران .

وهذا العامل الثانى نفسُه ، إنما مردّه إلى العامل الأول عامل البداوة . فالبادية هى بيئة التدين العفوية . ولا حاجة إلى أن نشرح هذا القول وقد شرحه الـكثيرون من قبل . فالناس لايجهلون كيف يملأ فضاء البادية المترامى نفسَ البـدوىّ تهيّباً وجلالاً ، وحيرةً غامضة ، وتساؤلا داخلياً مقلقاً لا يستريح منه إلا أن يؤمن بقوة من القوى السحرية الغامضة المستترة أو بإله أحد سرمدىّ صَمد .

***

وهكذا يظهر لنا أن العامل الأول والأخير فى الروح العربية هو البادية . ويظهر لنا أن هـذا العامل هو الذى أوجد ، بين الاتصال العربى القـديم بالثقافات الأجنبية القديمة وبين الإتصال العربى الحديث بالثقافات الأجنبية الحديثة ، فرقاً بيّـناً أشار إليه الدكتور بتفصيل . وذلك لأن البادين كانوا قديماً أكثر منهم اليوم ؛ فلما قلّ عددهم فى هذا الزمان ، قلّ التحفظ فيما يتعلق العلاقات الشرق والغرب ! . . .

وإذن ، فما لم تَزُلِ البادية من عالمنا ، أو مالم تتغير معالمها ، لا تلقى اليد العربية — أو لنقل : الشرقية — العصا التى ورثتها من قديم الأزمان كابراً عن كابر كما يقولون . . . و « صاغراً عن صاغر » . . .

وليس بميسور ، حتى الدرجة الحاضرة التى نحن عليها من تطور علمنا الحديث ، أن نحوّل الصحراء إلى سهل وافر الخيرات والبركات . والممكن الوحيد اليوم فقط ، هو تمدين البادين الذين هم بالابتدائيين أشبه ، وتحضيرهم ليس غير .

[حماة] نزار سعيد

أوسكار وايلد

من الظواهر المألوفة فى تاريخ الفكر الإنجليزى أن المذاهب الاجتماعية ومدارس الفن تصل إلى انجلترا بعد جيل أو جيلين من ظهورها فى بلاد القارة الأوروبية . ولعل عزلة بريطانيا وراء المانش هى علة ذلك .

فرونسار والثورة على الأوضاع الأدبية فى القرن السادس عشر ظهرا فى فرنسا قبل شكسبير ومنهجه الانقلابى فى انجلترا ، والأدب الانجليزى فى تلك الفترة مدين للأدب الفرنسى بالشىء الكثير سواء فى مادته أو فى شكله . كذلك نضج ما يسميه النقاد بالأدب الكلاسى فى فرنسا قبل نضوجه فى انجلترا ، وتتلمذ درايدن على راسين وبوپ على بوالو ونقلا عنهما أصول الإنشاء التقليدى . ثم ظهر ما يسميه النقاد بالأدب الرومانسى فى فرنسا وألمانيا ومن ثم انتقل إلى انجلترا ، وتناسخ روسو فى شلى وجيتى فى وردزويرث .

ولكن فى الأدب الانجليزى حركة ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر تعرف بحركة « نهاية القرن » كان عمادها أوسكار وايلد . ولم تكن هذه الحركة تياراً محلياً بل كانت كالعادة صدى لحركة مماثلة لها عند الفرنسيين . على أن هذا التيار لم يتأخر فى الانتقال كثيراً كما تأخرت التيارات السابقة فى الانتقال ، فظهرت المدرستان فى پاريس ولندن فى جيل واحد . ولعل تقدم وسائل الاتصال هو السبب فى ذلك .

فما هى المبادىء الأساسية فى أدب أوسكار وايلد ، وما علاقته بحركة نهاية القرن ، وما الخصائص التى تفرد بها إنشاؤه فجعلت فضله على الأدب مذكورا ؟

١

ولد أوسكار وايلد فى السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٥٦ بمدينة دبلين حاضرة إيرلندا لأب ذاع صيته فى طب العيون وتعددت فضائحه حتى تردد على

المحاكم بسبب صبواته ، وام تشتغل بالكتابة وتهييج الرأى العام حاولت فى شبابها أن تقنع الإيرلنديين بأن يهاجموا قلعة دبلين ويطردوا الانجليز منها . وأهم ما يعرف عن أيام حداثته فى المدرسة أنه كان يمقت الألعاب الرياضية ويجيد اليونانية ويطيل من الأحلام . وقد جنى من حبه لآداب القدماء جوائز جامعية أدخلته كلية ترينيتى بدبلين حيث تتلمذ على الأستاذ ماهافى وتأثر بدعوته إلى إحياء حضارة اليونان ، ثم كلية مودلين بأكسفورد . وفى أكسفورد تعرف وايلد على الناقد العظيم چون رسكين وهو من دعاة الثورة على الآلة والعودة إلى العمل اليدوى ، وكثيراً ما خرج وايلد مع رسكين ليصلح الطرقات لا حباً فى الطرقات ولكن حباً فى رسكين . كذلك تعرف وايلد على الناقد العظيم وولتر پاتر صاحب الدعوة إلى عبادة الجمال. وقبل أن يتخرج وايلد فى أكسفورد بدأ فى تلك الجامعة حركة لإصلاح الأزياء ، وكان يقول إن إصلاح الملبس أهم للمجتمع من إصلاح الدين .

ثم انتقل إلى لندن وهناك أم ندوات الفن والأدب وخالط مشاهير رجال العصر : خالط الشاعر وليم موريس الناقم على الحضارة الآلية الداعى إلى الصناعة اليدوية ، والرسام هويسلر والممثلة الين تيرى وبرنارد شو وفرانك هاريس وسائر رجالات الأدب ودخل المجتمع الأرستقراطى فأصاب فيه نجاحاً عظيما . ولكن دخله الشخصى المحدود لم يكن يكفيه ليحيا هذه الحياة المترفة فنشر ديواناً من الشعر الردىء تلقاه النقاد ببرود وتلقاه القراء بشغف . وكان يجوب طرقات لندن فى زى عجيب يلفت الأنظار فأصبح حديث الخاص والعام وجعل الناس يقبلون على شراء ديوانه .

ولكن كل هذه كانت حلولا مؤقتة لضائقتة المالية ، ولم يسعفه إلا دعوة وصلته سنة ١٨٨٢ من أمريكا ليلقى فيها سلسلة من المحاضرات بأجر لا بأس به . ثم عاد من أمريكا إلى باريس وأقام فيها وقتاً قصيراً كتب أثناءه تراچيديا منظومة لاقيمة لها تدعى « دوقة پادوا » ، ولما نفد ماله القليل رجع إلى انجلترا يجوب بلدانها محاضراً ومحدثاً . وفى ١٨٨٤ تزوج من ابنة محام تدعى كونستانس مارى لويد ، واستقر فى حى تشلسى بلندن وأنجب منها ولدين واشتغل بنقد الكتب للصحف الأدبية . ولكن موهبته الأولى وهى فن الحديث كانت تنمو مع الأيام حتى اصبح وايلد أعظم محدث فى انجلترا ، بل إن من النقاد من لا يجد له

كفؤاً فى التاريخ بين المحدثين . وقد اعترف له كل من عرفوه من أقطاب الأدب فى انجلترا وفرنسا بسحر الشخصية وخصوبة الفكاهة وطلاقة اللسان . وكان إذا تحدث مزج الهزل بالجد والشعر بالفكر والخيال بالواقع فأسر قلوب السامعين . وفى ذلك تروى حكايات لاحصر لهـا تثبت أن وايلد كان إمام المحدثين ، يفتن أصدقاءه ويروض أعداءه بفكاهته المشرقة وذكائه المتلألئ وقدرته على التعبير الجميل .

وتولى وايلد تحرير مجلة « عالم المرأة » مدى عامين ، واشتغل بين عام ١٨٨٥ و١٨٩٠ بوضع مجموعة من القصص القصيرة أشهرها « جريمة اللورد آرثر سافيل » والقصص الخرافية وأشهرها « الأمير السـعيد » و « بيت الرمان » ، كما كتب بحثاً فى سونيتات شكسبير دعاه « صورة مستر و . هـ . » ومؤلفاً فى فلسفة الفن اسمه « النوايا » . وفى ١٨٩٠ نشر قصـته العظيمة « صورة دوريان جراى » تباعاً فى مجلة ليبنكوت ثم جمعها وأضاف إليها وصدّر لها فى العام التالى وأخرجها فى صورة كتاب . وقد أحدث ظهور هذه القصة ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية وثارت ثائرة الصـحف واتهمت وايلد بأنه كاتب منحل ، ووصفت كتابه بأنه منافٍ للأخلاق وما هو كذلك ، فنقاد اليوم يصفون وايلد بأنه كاتب أخلاقى من الدرجة الأولى . وفى عام ١٨٩١ نشر وايلد بحثه المشهور « روح الإنسان فى النظام الاشتراكى » وقضى الشطر الأكبر من تلك السنة بباريس يكتب مسرحيته العظيمة « سالوميه » باللغة الفرنسـية . وفيما كانت ساره برنار تعد العدة لإخراج هذه التمثيلية فى لندن جاء أمر السلطات بمصادرتها وتحريم إخراجها، فأعلن أوسكار وايلد أنه سوف يهاجر إلى فرنسا ويتجنس بالجنسية الفرنسـية احتجاجاً على هذه المعاملة . ولـكنه لم يفعل ، ومضى فى الـكتابة وظهرت على المسرح كوميدياته المشهورة « مروحة الليدى وندرمير » سنة ١٨٩٢ ثم « امرأة لا أهمية لها » سنة ١٨٩٣ ثم « أهمية أن تسمى إرنست » و « الزوج الـكامل » سنة ١٨٩٥ .

وهكذا بلغ أوسكار وايلد فى عام ١٨٩٥ قمة مجده وأصاب من المـال ما تمناه لنفسه ، ولـكن المجد أفسده فجعله يتنكر لأصـدقائه القدماء ويضيق صدراً بنصح الناصحين ويعرب عن آرائه فى معاصريه بصراحة مؤذية ، فانفض من حوله أصحابه وكثر أعداؤه وباتت حياته الخاصة مضغة فى أفواه الناس ، ولم يبق له إلا

جماعة من السفلة المتزلفين يترضونه طمعاً فى ماله . وفى العام نفسه نزلت به المحنة الكبرى التى حطمت حياته جملة ، فقد أهانه المركيز كوينسبرى واتهمه فى أخلاقه ، فلم يسع أوسكار وايلد إلا أن يرفع أمره إلى القضاء ويطلب عقاب المركيز كوينسبرى . ولكن المحاكمة انتهت بالقبض على أوسكار وايلد ، وهكذا تغير الوضع ووقف المدعى موقف المتهم ، وثبت للمحلفين شذوذه ، فصدر الحكم بحبسه سنتين مع الأشغال الشاقة قضاهما بين سجن واندزويرث وسجن ردنج وذاق فيهما مر العذاب . ولكن الشهور الستة الأخيرة من حياته فى السجن كانت محتملة ، فقد سمح له بالقراءة والكتابة بعد أن تشفع له أصدقاؤه . وفى السجن مر وايلد بنوبة تصوف شديدة وجذبته شخصية يسوع المسيح فكتب إلى صديق له خطاباً مطولا يفيض بالتوبة نشر فيما بعد تحت عنوان « من الأعماق » بعد استبعاد ما جاء به من عبارات شخصية .

وبعد أن خرج وايلد من السجن نزح إلى برنيفال بفرنسا ، وهناك عاش تحت اسم سباستيان ملموث ، وفيها أتم قصيدة طويلة هى « سجن ردنج » بقلم ج ٣ — ٣ وهو الرقم الذى كان يحمله أيام أن كان سجيناً . ولكن نوبة التصوف التى اعترته داخل السجن زالت عنه بعد خروجه منه ، وعاد أوسكار وايلد كما كان العابث اللاهى المقبل على أطايب الحياة ، ولم تذهب المحن بمرحه ولا بملكته على السخر بكل شىء . ويبدو أن الاختبار العصيب الذى مر به قد شل إرادته نهائياً ، فكف عن الكتابة حين ترك برنيفال وذهب يتنقل بين أصدقائه بنابولى وسويسرا وجنوب فرنسا ثم هبط باريس أخيراً وفيها حضرته الوفاة سنة ١٩٠٠ . مات وثنياً كما عاش وثنياً ، ولم يخنه مجونه حتى وهو يجود بأنفاسه الأخيرة .

٢

يعد أدب أوسكار وايلد ثورة على الأدب الفكتورى ، اى ثورة على الأدب الإنجليزى فى عصر الملكة فكتوريا . ولم يكن وايلد الثائر الوحيد على ذلك الأدب ، ولكنه كان أنشط الثائرين وأقواهم شخصية وأكثرهم جلجلة لأن سلاحه كان الهجاء . وقد هجا وايلد القرن التاسع عشر ، وأفكاره ونظمه ورجالاته أمر الهجاء ، وبذر بذور الشك فى سلامة المجتمع الفكتورى فمهد بذلك

لأدب جديد لا أثر فيه لفلسفة القرن التاسع عشر . ومع أن وايلد لم يترك أثراً ملحوظاً فى أحد من كبار الكتاب المحدثين اللهم إلا أولدس هكسلى فقد لعب دوره التاريخى ألا وهو تحطيم الأصنام القديمة وتهيئة الجو للمعبودات الجديدة، معبودات القرن العشرين ، وليس هذا بالعمل الهين .

كان العصر الڤكتورى فى إنجلترا عصر رخاء ، ولكن أقرب إلى التعبير العلمى أن يقال أن حضارة القرن التاسع عشر كانت حضارة البورچوازية ، حضارة الطبقة المتوسطة ، كما كانت حضارة القرن الثامن عشر حضارة الارستقراطية ، حضارة الأشراف . وقد بدأ القرن بالبورچوازية الثائرة المكافحة صاحبة المثل العليا الداعية إلى تكبيل الملكيات المستبدة وإلغاء امتيازات الأشراف وتحرير العبيد ، المطالبة بالتصويت العام والتعليم العام وتكافؤ الفرص وبقية حقوق الإنسان ، المنادية بالحرية والإخاء والمساواة كما كان يقول الفرنسيون ، وانتهى القرن بالبورچوازية المنتصرة المستقرة الراضية التى تنشد الهدوء وتكره كل تغيير اجتماعى ، البورچوازية الغنية صاحبة الامبراطوريات التى لا تغرب عن أملاكها الشمس ، الباطشة بالحركات العمالية المناهضة للتصويت العام والتعليم العام وتكافؤ الفرص المصادرة لحقوق الإنسان الحانثة بعهود الحرية والإخاء والمساواة . أما شاعر البورچوازية الساخطة فقد كان شلى وأما شاعر البورچوازية الراضية فقد كان تينسون .

وقد ظلت البورچوازية ساخطة حتى تم لها النصر الأخير على الأرستقراطية وتمت لها السيادة السياسية والاقتصادية داخل انجلترا وخارجها . ولم تكن تلك السيادة لتتم لها فى القرن التاسع عشر لولا أنها استحدثت فى القرن الثامن عشر انقلاباً فى وسائل الانتاج خطير الشأن هو الانقلاب الصناعى . فما أن جاء عصر الملكة ڤكتوريا حتى كان الانتاج الآلى قد بلغ حداً عظيما من الوفرة والاتقان . وكان لا بد للانتاج الآلى الضخم من أسواق ، أسواق للخامات وأسواق للاستهلاك ، فكان الاستعمار . ولم تولد الطبقة البورچوازية بالانقلاب الصناعى وحده ، فقد كانت فى أوربا طبقة بورچوازية متاجرة قبل أن توجد الطبقة البورچوازية الصانعة ، ولكن التقدم الآلى العظيم هو الذى ضاعف حيويتها وأنضج فلسفتها وأثبت أهليتها للحكم وإدارة البلاد .

فالعصر الڤكتورى إذاً كان عصر الآلة والانتاج الضخم والرخاء والتمدد

الاستعمارى . وقد كانت الانسانية ترجو من وراء الانتاج الآلى خيراً كثيراً فوجد بعض المفكرين أن هذا النصر المادى العظيم يحقق لها الخير الذى ترجو وبشروا بأن غاية النشاط الاجتماعى هى « التقدم » وآمنوا بأن الانسانية قد « تقدمت » فعلا فى ظل الملكة ڤكتوريا ! وكان تنسيون شاعر الملكة إمام المعبرين عن هذه الفلسفة .

ولكن فريقاً آخر من المفكرين لم ير فى الحضارة الآلية والتوسع الاستعمارى والرخاء المادى إلا نذيراً بانهيار عظيم يوشك أن يعصف بكل ما تعتز به الإنسانية من مثاليات . وقالوا بأن روح الإنسان فى خطر لأن الآلة تحكمه وأن الفردية فى خطر لأن الآلة تصب الأفراد فى قوالب متشابهة كما تصب المعادن فى قوالب متشابهة . وأن المجتمع فى خطر لأن الفردية تختفى ، ودعوا إلى تحطيم الآلة والعودة إلى العمل اليدوى ونسجوا جواً من سحر الخيال حول المدنيات الغابرة التى سبقت الانقلاب الصناعى .

فنهم من دعا للرجوع إلى العصور الوسطى الرسام مادوكس فورد والرسام الشاعر روزيتى والشاعر وليم موريس والناقد چون رسكين وأرّخوا انهيار القيم العليا بظهور رافائيل قطب حركة النهضة الأوربية وكتبوا عن الفرسان والحب الروحى ومجدوا الفن القوطى الذى تجسدت فيه آلام المسيح والزجاج الملون فى الكاتدرائيات الأثرية وتكثلك بعضهم قليلا أو كثيراً .

ومنهم من دعا للرجوع إلى حضارة هيلاس ، حضارة اليونان ، ونادى بالوثنية الفنية على الأقل كوولتر پاتر وأوسكار وايلد وچورچ مور وماكس بيربوم وليونيل چونسون وإرنست داوسون الخ ولقبوا بالهلينيين واصطنعوا حركة لعبادة الجمال وعبادة الحس على غرار الإغريق ، ومجد بعضهم المجتمع الأثينى الذى كان الفرد فيه حراً من أكثر القيود الخارجية ودعوا إلى إحياء الروح اليونانية التى كانت تحرص على تقديس الحواس حرصها على تقديس العقل ، وزعموا أن فى الشخصية جانباً اجتماعياً يتكون عن طريق التقليد وتوارث اختبار الغير وجانباً فردياً يتكون عن طريق الاختبار المباشر الذى يصل الانسان بالخارج رأساً دون حاجة إلى وساطة الآخرين وحكموا بأن الأول زائف لا نفع فيه وأن الثانى هو أساس الفن العالى والعلم العالى وسائر القيم الانسانية العليا ، وجروا وراء الاختبار المباشر وتقديس الحواس حتى عرف أكثرهم بين الناس بالإباحية

والبوهيمية والانحراف . وهذه عبادة الجمال التى كان أوسكار وايلد رائدها وهذه حركة نهاية القرن .

وهى كما ترى حركة بورچوازية رغم ثورتها على البورچوازية ، وهى بورچوازية لأنها ظهرت لتنعى ذبول الفردية ، وتتهم الآلة بأنها علة ضياع الشخصية فى الناس وفى إنتاجهم وتقرن بين الفن والفردية ، وتندب الزمن الخالى أيام أن كان النجار فناناً ذا أسلوب يصنع الموائد على طراز وصانع الأحذية وصانع الساعات وصانع النسيج فنانين يضعون شخصيتهم فيما ينتجون .

لقد كانت البورچوازية ايام كفاحها مع الأرستقراطية ثائرة متحررة من القيود العقلية والقيود الأخلاقية الموروثة تطالب المجتمع بأن يثور على هذه القيود وأن يتحرر منها كما نعرف من فلسفة قادتها المفكرين أشباه روسو وشلى وبيرون . فلما تمت لها الغلبة فى عهد ڤكتوريا بفضل تمام الانقلاب الصناعى أصبحت طبقة محافظة حريصة على تقاليدها مترمتة فى قوانينها الأخلاقية جادة فى عملها متمسكة بالفضائل إلى حد مرهق منصرفة إلى جمع المال و « التقدم » تؤمن بالعلم وحده لتحقيق هذا التقدم كما نعرف من فلسفة شاعرها الأول تنيسون .

ولكن وايلد واصحابه أعلنوا حول عام ١٨٩٠ أن القرن التاسع عشر يموت وأن المبادىء البورچوازية الصارمة تموت معه . وسعوا إلى التجديد لاحباً فى التجديد وحده ولكن ليسخروا من البوچوازية المحافظة ، فابتكروا الملابس الغريبة الزاهية والأدب الغريب الزاهى ، ومزقوا التقاليد حيث مجدها الڤكتوريون وأسرفوا حيث اقتصدوا وانصرفوا إلى انتهاب لذات الحياة حيث تشددوا فى الفضيلة وهزءوا من نظرية التقدم وعرّضوا بالعلم وقالوا بأن الفن طريق الخلاص .

قال وايلد وزملاؤه إن المجتمع ما زال بالعلم يحميه حتى حرره من سلطان الكنيسة وضغط الجماهير ووقى العلماء تدخل السلطات باسم الأخلاق أو باسم العقائد العامة ، وطالبوا المجتمع أن يفعل بالفن ما فعله بالعلم وظهرت بينهم نظرية الفن للفن وأنكروا أن يتقيد الفنان بقواعد الأخلاق او أن يوضع الفن فى خدمة المجتمع . وهذا أوضح مظهر للروح البورچوازية الفردية التى تميزت بها حركة نهاية القرن .

وقد أحست انجلترا فى عصر ڤكتوريا بأنها تستطيع أن تعيش بمعزل عن القارة الأوروبية مكتفية بنفسها وركدت تجارة الفكر بينها وبين فرنسا وسائر

البلدان ولم يبق منها إلا القليــل كمحاولة الشاعر سوينبرن أن يتأثر خطى بودلير ومحاولة القصصى هنرى چيمس أن يكتب فلوبير بالانجليزية . ولـكن سيادة انجلترا الاقتصادية بدأت تتزعزع فى نهاية القرن وظهرت فيها بوادر زوال النعمة باشتداد المنافسة الخارجية ، فليس غريباً إذا أن يزول عن الانجليز صلفهم الأول وان ينمو فى انجلترا إحساس بالحاجة إلى التعامل الثقافى مع دول القارة فتخرج من عزلتها وتقبل على إنتاج الفرنسيين ، والروس ، والألمان . ومن يدرس حركة نهاية القرن يجد أن چورج مور ، وأوسكار وايلد ، والرسام بيردسلى وصغار مدرسة « المنحطين » كما يلقبهم بعض النقاد قد التمسوا وحيهم الفنى فى القــارة عامة وفى باريس خاصة .

ولقد تتمسح مدرسة ماقبل رفائيل ومدرسة عبادة الجمال فى الاشتراكية ولـكن أتباع هاتين المدرستين فى حقيقتهم مفكرون فرديون بورچوازيون لا صلة لهم بالحركة الاشتراكية رغم أن وليم موريس قد دعا لنظام الملـكية العامة وصور للناس الحيـاة فى المدينة الفاضلة تصويراً جميلا ورغم أن أوسكار وايلد قد قطع للناس بأن الإنسانية لن تنتصر على أوجاعها المادية والروحية إلا باختفاء الملـكية الفردية . وآية ذلك البغض الشديد الذى حمله هؤلاء وأولئك للآلة ، والاشتراكية العمالية ، الاشتراكية بمعناها العلمى المنظم تمجد الآلة وتعدها الوسيلة الوحيدة لحل مشكلة الإنتاج وإسعاد الملايين وتؤرخ التاريخ الحديث بالانقلاب الصناعى .

فاشتراكية وايلد ومن عاصروه إذاً اشتراكية خيالية أو اشتراكية طوبية كما قد يسميها فردريك إنجلز أحــد مؤسسى الفلسفة الاشتراكية . وثورة وايلد على البورچوازية الصناعية هى ثورة المفكر الفردى على المموّل الفردى ، ثورة الأديب الذى زاحمه الصحفى فى السوق فـكاد أن يخرجه من الميدان ، ثورة الرسام على المصور الذى سد عليه سبل العيش ، وجعـل المجتمع يهمله ويهمل بضاعته . واشتراكية البورچوازيين أشبه بنعيم لا يسعد فيه إلا الفوضويون .

٣

كان وايلد الهجاء الأول فى العصر الڤـكتورى ، ولـكنه لم يتعرض قط فى هجائه للأشخاص كما كان يفعل الـكساندر بوب ومعاصروه من هجائى القرن

الثامن عشر . بل هجا المجتمع ونظمه الأخلاقيـة والسياسية والاقتصادية وهجا أساليب الفن المعروفة فى عصره ، وتجاوز هجاء المجتمع أحياناً إلى هجاء الطبيعة البشرية ، ولـكن يبـدو أن شكه فى سلامة الطبيعة البشرية شك عارض لاشك أصيل .

ولم يتبع وايلد فى كتاباته الفنية طريقة الوصف والنقد كما كان يفعل دكنز مثلا . بل لجأ إلى السخرية والتعريض ، وله فيهما أفانين مختلفة وقواعد يمكن تبويبها ولـكنها جميعـاً صادرة عن سجية نادرة شحذها طول المران مرسلة إرسالا لأنها جزء من طبعه الهازل الذى لايغضب للعيوب ولا يسكت عليها . بل يفضحها بالنكتة ويشهر بها بالدعابة . وهو يكره أن يمسك عصا المعلم لأن المعلمين فى نظره قوم مملون ، والملل آفة الفن وآفة الحياة جميعاً . ولقد تقسو سخريته بالأشياء حتى تحطم الأشياء ولـكنها لا تبلغ أبداً مبلغ الثورة ذات البرنامج . وهو يستنبط النكتة آنا باستخدام المفارقات وآنا باستخدام النقائض ، وآنا باستخدام ما لاينتظر ، وآنا بالعبارة الطلية المبلورة . والحدود بين الجد والهزل عنده غير واضحة ، لأنه لم يكن مجرد كاتب ماجن عابث ولم يكن مصلحاً إجتماعياً عابس الوجه يحب الاستشهاد ، بل كان بين بين . لهـذا تقرأ أوسكار وايلد فتضحك ، وبعد أن تفرغ من الضحك تتبين أن فكاهته تثير فيك أكثر من الضحك ، تثير فيك التأمل وتدعوك إلى الشك فى سلامة الأوضاع الاجتماعية القائمة على التزمت الأخـلاقى والفـكرى . كذلك كان يمزج الخيال بالواقع فبعض قصصه شبيه بالأساطير وإن كان مدلولها إنسانياً أو اجتماعياً .

ولقد ترك أوسكار وايلد فى برنارد شو أثراً واضحاً من حيث توجيه النكتة وطريقتها ، ولـكن الفرق بينهما عظيم . فشو كاتب دائم الجد رغم مظهره الساخر ، تلمس جده فى كل لحظة من لحظات مرحه ، وشو كاتب « يؤمن » برسالة ويستخدم الفكاهة للدعوة إلى فلسفته الاجتماعية . أما وايلد فجاد ولاه معاً ، يستمتع بالنكتة حتى ولو كانت على حسابه أو حساب مبادئه ، ووايلد لا « يؤمن » برسالة لأن الإيمان عنده تعصب ، والتعصب انغماس فى تيار الحياة وهو يؤثر أن يقف من الحياة موقف المستعرض لمواكبها .

وملـكة وايلد الأولى فى الحوار وهذا يفسر اتجاهه إلى إنشاء الـكوميديات

وقلة إنتاجه فى أشكال الأدب الأخرى . وطلاوة حواره هذه هى التى جعلت منه المحدث الأول فى جيله . وطابعه الأول جمال الصياغة وولتر پاتر الذى علمه فى شبابه كيف يتعبد لجمال الحياة علمه كذلك كيف يتعبد لجمال العبارة .

أما عيوبه فكثيرة منها عجزه عن فهم القلب الإنسانى . ولقــد كان أوسكار وايلد حقاً سيّد من هجا سلوك الناس وأفـكارهم الاجتماعية ، ولا بأس من أن يقال إنه فضح كذلك بعض غرائز الإنسان التى تتخذ صورة المبادئ العالية ، ولـكنه لم ير من الإنسانية إلا جوانبها المؤلمة وعوّض نفسه عن ضياع ثقته فى خير الحياة بحبه لجمال الحياة . وقصوره عن النفاذ إلى مكنونات الطبيعة البشرية ظاهرة نلمسها فى انصرافه عن وصف العواطف البشرية العميقة وتركيز انتباهه على سلوك الناس وهفوات الحياة الاجتماعية . والمواضع التى يتعرض فيها وايلد لوصف العواطف البشرية العميقــة آية فى الرداءة إذا هى قيست ببقية إنتاجه .

ولا شك أن وايلد كان يكرر بعض نـكاته فى كتاباته المختلفة ولـكن هذه زلة تغتفر فى رجل أخذ على عاتقه إضحاك الناس طول حياته .

ولقد اتهم وايلد بالسطحية ولعل منشأ ذلك أنه كان يصرّ على الانفصال من الحياة ومشاهدتها عن بعد كالمتفرج ويرفض الاندماج فيها . اتهم بأنه يخرج عن طبيعته فى كل ما يفعل وما يكتب ، وأنه ما فنئ يتكلف الموقف والمبادئ حتى صار التكلف طبيعة فيه ، ولـكن هذا مفتاح شخصية أوسكار وايلد ومفتاح أدبه ، وقد عرفها فى نفسه ومجدها تمجيداً ، فجعل من التـكلف فلسفة تدرس وفناً يتعب الناس فى إتقانه .

لويس عوض

حفـــــلة استقبال

حضرة صاحب المعـالى عبد الحميـد بدوى باشا

فى يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٥

بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

لأول مرة فى تاريخ مجمع فؤاد الأول للغة العربية احتفل المجمع باستقبال عضو جديد من أعضائه استقبالا له طابع أدبى خاص . وينتظر أن يصبح هذا النوع من الاستقبال تقليداً من تقاليد المجمع فيما يستأنف من حياته الطويلة .

وكان العضو الجـديد الذى استقبل فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر المـاضى حضرة صاحب المعـالى عبد الحميـد بدوى باشا وزير الخارجية ، وقد انتخب فى آخر الدورة المـاضية ، وصدر المرسوم بتعيينه خلفاً للمغفور له محمد توفيق رفعت باشا الذى كان رئيساً للمجمع .

وقد جرت العادة فى الأكاديمية الفرنسية بأن تفتتح حفل الاستقبال بخطبة يلقيها العضو الجديد يشكر فيها زملاءه الخالدين ويثنى فيها على سلفه .

ثم يجيبه زميله الذى كُلِّف استقباله فيثنى عليه ويحلل آثاره .

ولـكن مجمع فؤاد الأول للغة العربية عكس هـذا التقليد وجرى على العادة المصرية المألوفة ، فتكلم الدكتور طه حسين بك ، ثم تكلم حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا وكان رئيساً للجلسة بالنيابة ، ثم تكلم العضو الجديد .

ونحن ننشر النص الـكامل لهذه الخطب تسجيلا لهذا التقليد الأكاديمى الجديد .

خطبة حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

سيدى الزميل العزيز

فى أوائل العام الدراسى سنة أربع وتسعمائة وألف استقبلت مدرسة الحقوق فى القاهرة شابًّا لم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره . ولكنه كان على ذلك جوّاب آفاق ، قد تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر ؛ لأنه كان على حداثة سنه هذه قد خرج من مصر وزار أقطاراً أخرى ، ثم عاد إلى مصر واستقرّ حيث كانت تستقر أسرته فى الاسكندرية ، وأخذ يتم تعليمه — ولا أقول يبدأ تعليمه — فقد علمت أنه ابتدأ تعليمه فى منزل من منازل الوحى الكريم فى المدينة المنورة .

هذا الفتى تخرّج فى مدرسة العروة الوثقى وظفر منها بشهادة التعليم الابتدائى وكان من المتقدمين تقدماً ملحوظاً . ويظهر أنه شغف بهذا التقدم وأمضى بينه وبين التقدم عهداً منذ ذلك الوقت ، فجعل فى المدرسة الثانوية لا ينتقل من فصل إلى فصل إلا كان فى الرعيل الأول . حتى إذا كانت الشهادة الثانوية كان هو السباق وكان أول المتخرجين فى التعليم الثانوى المصرى .

هذا الفتى أقبل فى سنة ١٩٠٤ على مدرسة الحقوق ، ولكنه ظل محتفظاً بهذا العهد الذى قطعه وأمضاه بينه وبين السبق ، فظل سباقاً لزملائه وأترابه حتى ظفر بإجازة الليسانس .

ثم همّ أن يكون محامياً ، ولكنه صرف عن المحاماة لأنه آنس من نفسه ميلاً إلى العكوف على الدرس — آنس من نفسه انصرافاً عن هذه الحياة الموزعة التى تنفق بين يدى الجماهير إلى حياة أخرى يفرغ فيها لنفسه ويعكف عليها مستقصياً أصول العلم الذى أحبه منذ كان طالباً فى المدارس الثانوية .

عند ما كان طالباً فى المدارس الثانوية فى مدرسة رأس التين لم يكن كغيره من الطلاب مشغوفاً بهذا الدرس اليسير الذى يمازجه لعب يسير أيضاً ، ولكنه كان مشغوفاً بالتعمق والاستقصاء والبحث حتى فى هذه السن المبكرة . وقد ظهرت آثار هذا الميل ، فعنى به أساتذته عناية خاصة وشغف به أترابه شغفاً خاصا

وأكبروه وإن كان صغير السن ، وجعلوا يتخذونه لأنفسهم قدوة ، وجعلوا يتخذون سيرته أسوة حسنة لهم . وفُتِن به بعض أساتذته فتنة ظاهرة ، حتى لقد مضت أعوام وأعوام ، واختلفت الطرق بهذا الشاب فى حياته العلمية والعملية ، ثم ذكره أستاذ من أساتذته الانجليز فجأة لأنه رأى بعض أترابه فى بعض مكاتب الوزارات . رأى بعض أترابه فذكر عبد الحميد بدوى ، وقرر ألا ينصرف وألا يعود وألا يترك مصر — وكان على جناح سفر — حتى يجدد العهد بهذا التلميذ النجيب . وفى ذلك الوقت ضرب الميعاد ليلتقى الأستاذ بتلميذه وليجدد الأستاذ ذكرى مدرسة رأس التين الثانوية .

وكان لعبد الحميد بدوى فى المدرسة الثانوية أتراب نابهون ، منهم المرحوم أحمد أمين بك . ويظهر أن التنافس البرىء الرفيع كان هو الذى يصل بين هذين الشابين . فقد كان كلاهما ذكيًّا ، ذكى القلب ، عميق التفكير ، نافذ البصيرة . وكان إعجاب الطلاب والأتراب مقسما بين هذين الشابين . فقد حدث أن أستاذاً من أساتذته الإنجليز استشير أو استؤمر فيهما فأفتى هذه الفتوى الظريفة وهى : أن أحمد أمين أسرع الى اكتشاف المشكلات ، وأن عبد الحميد بدوى أسرع إلى حل هذه المشكلات .

أبى عبد الحميد بدوى أن يكون محامياً . ولكنه اتصل بالنيابة واشتغل نائباً وقتاً قصيراً . ولكنه على قصر هذه المدة التى تولى فيها أعمال النيابة العمومية لم يستطع إلا أن يحتفظ بعهده الذى أمضاه بينه وبين السبق والتفوق . فقد ترافع أمام المحكمة فى قضية سياسية كان الرأى العام فى ذلك الوقت معنيًّا بها أشد العناية ، وقد كانت مرافعته خطيرة حقًّا . وآية ذلك أنه كسب القضية . ولكنه كسب القضية وغضب فى وقت واحد . غضب لشىء أظنه يأسف عليه الآن . غضب لأن خصمه المحامى لقّبه بالشاب . فأى عجب فى أن يغضب شاب لم يتجاوز العشرين من عمره لأنه سمى شابًّا أو لقب بالشاب ! أظن أنه الآن يود لو استطاع سماع الأستاذ اسماعيل الشيمى رحمه الله يسميه فيقول : كما قالت الحكومة على لسان نائبها الشاب .

على أن عبد الحميد بدوى لم يطل العمل فى النيابة ، وإنما سافر إلى فرنسا ليتم درسه هناك ، وفى مدينة جرينوبل أتم دروسه وقدم رسالة الدكتوراه .

وقد قرأت بالأمس التقرير الذى أرسل من جامعة جرينوبل إلى وزارة

المعارف فى سنة ١٩١٢ ، فإذا هذا الشاب لا يزال مصمماً على أن يكون سباقاً ، وإذا هذا الشاب الذى لم يبلغ الخامسة والعشرين بعدُ قد استطاع أن يحمل أساتذته فى جرينوبل على أن يمنحوه — كما يقول الأستاذ العميد — أكثر مما يستطيعون أو كل ما يستطيعون أن يمنحوه . فهم قد منحوه الدكتوراه مع أرفع ألقاب النجاح وأضافوا إلى ذلك تهنئة الممتحنين . ويقول الأستاذ العميد فى تقريره إلى وزارة المعارف المصرية إن هذه الرسالة التى نال بها عبد الحميد بدوى حق الامتياز ، رسالة أساسية فى الفقه المدنى لايستطيع باحث منذ اليوم أن يستغنى عنها إذا أراد أن يعالج هذا الموضوع الذى عالجته . فهو قد استقصى الموضوع استقصاء نادراً حقا ، تعمقه فى الفقه الرومانى واستنبط كيف نشأت هذه الفكرة وكيف استغلت وكيف استنبط منها آثارها المختلفة ، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه من قواعد فى هذا الفقه الرومانى القديم . ثم امتاز عبد الحميد بدوى امتيازاً خاصًّا عند ما درس هذه الفكرة فى الفقه الفرنسى فى القرون الوسطى . وهذا القسم من رسالته كما يقول الأستاذ العميد هو خير ما فى الرسالة ، ولايمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال لكل من يدرس هذا الموضوع . ثم عرض هذه الفكرة فى الفقه الفرنسى الحديث أحسن عرض وتعمقها أحسن تعمق . وإن كان بعض أعضاء لجنة الامتحان كان يود لو استعرض هذه الفكرة فى الحقوق أو الفقه الأجنبى غير الفرنسى ، لكن العميد يضيف : أنه لم يكن لهذا سبيل لأن عبد الحميد بدوى رسم لنفسه خطة معينة للدرس ليس فيها الفقه الأجنبى .

عاد عبد الحميد بدوى موفقاً سباقاً كما تعود أن يكون موفقاً سباقاً . ومنذ ذلك الوقت أصبح عبد الحميد بدوى هو الشاب ثم الرجل الذى عرفناه والذى نعرفه الآن ، وقد كملت خصائصه وتمت مزاياه ، وأصبحنا نستطيع أن نتعرفه وأن نتعرف عقله ومزاجه الفكرى الثقافى وشعوره أيضاً . فهو صاحب فكر وشعور ، وليس من هؤلاء الذين قصروا حياتهم على الناحية العقلية الخالصة .

وأظنه يغفر لى إن تحدثت عن هذه الناحية الشعورية من نواحى حياته الخصبة . فقد يخيل إلىّ أنه حين كان طالباً فى المدارس الثانوية ، وحين كان طالباً فى مدرسة الحقوق ، لم يكن صاحب درس وتعمق للعلم والثقافة فحسب ، ولكنه ارتكب هذه الخطيئة التى يرتكبها كثير من الناس ، فداعب ربة الشعر مداعبة

رقيقة رشيقة لم يلبث أن انصرف عنها . ولست آسف لشىء كما آسف لأنى لم أحفظ ما روى لى من شعره أيام الصبا . فقد أنشدنى بعض من أنشدنى الشعر شيئاً من شعر ذلك الفتى الذى كان يدرس فى المدارس الثانوية وفى مدرسة الحقوق . والذى أذكره أنه كان شعراً عذباً ، وكان شعراً غزلاً فيه كثير من العذوبة والرقة ولكن فيه كثيراً أيضاً من الجزالة والصرامة .

ثم لم يكن عبد الحميد بدوى يكتفى بهذه المداعبة الخالصة بينه وبين ربة الشعر ، بل كان يحب مجالس الشعراء أيضا . فقد حدثت أنه كان فى أثناء هذا الشباب لا يكتفى بالانصراف إلى كتب الحقوق ومجالس الأساتذة ، ولكنه كان يحب لوناً من مجالس الشعراء ، وهو بنوع خاص هذا اللون الشعبى الذى كان يجمع بين الفكاهة الشعبية وهذه السذاجة المصرية الحلوة وبين شىء من البؤس والألم الذى ينضج النفس ويكوّن الرجولة ، ثم هذا النحو من الإحساس الرفيع بحقائق الحياة . وكان عبد الحميد بدوى فيما حدثت يختلف أحيانا الى هذه المجالس كمجلس إمام العبد .

هذا العصر الذى أقبل فيه عبد الحميد بدوى على القاهرة واختلف فيه إلى مجالس الجد فى مدرسة الحقوق ، وإلى مجالس الدعابة فى بعض الأندية حيث كان الشعراء يضحكون ويخفون الألم بهذا الضحك ويداعبون ويخفون البؤس بهذه الدعابة ، هذا العصر كان عصراً خطيراً حقـًا فى تاريخ نهضتنا التى نحياها الآن . كان أشبه شىء بمنحدر مرتفع قد ارتقت إلى قمته جماعة من أعلام الحياة المصرية ، وجعلت جماعة أخرى من الشباب تصعّد من أسفل هذا المنحدر تصعيدا يختلف قوة وضعفاً ، بين هذه الجماعة من يصعدون تصعيداً سريعاً ، وبينهم من يصعدون تصعيداً فيه شىء من البطء والأناة . وكان هؤلاء الذين وصلوا الى القمة ينظرون إلى هذه الجماعة الناشئة المصعدة نظرة فيها كثير جدا من الرفق وفيها كثير جدا من الحب والتشجيع . وربما أضافوا إلى نظرتهم هذه الرقيقة المشجعة إشارات بالأيدى ودعاء بالألسنة يشجع هؤلاء الشبان فى أن يمضوا فى طريقهم وأن يحتملوا جهد التصعيد وأن يستزيدوا من العزم والحزم والقدرة على احتمال المصاعب .

وكان على هذه القمة بين هؤلاء الأعلام جماعة ، لا أظن أنها تضيق إذا ذكرت الآن أو سميت بعض أعضائها . كان على هذه القمة أحمد لطفى السيد باشا

وعبد العزيز فهمى باشا . وكان لطفى السيد بناديه فى الجريدة وعبد العزيز فهمى الذى كان رفيقاً له لا يفارقه وجمع من أصحابهما . كان هؤلاء ينظرون الينا نحن الشبان الذين كنا فى أسفل الجبل نحاول أن نصعد هذه النظرة التى يملؤها الحب والرفق والعطف والتشجيع ، وربما أشاروا إلينا بالأيدى وربما دعونا أن نتابعهم حتى نبلغهم قليلاً قليلاً . وربما تكلفوا الهبوط إلينا ليأخذوا بأيدينا . وكنا جميعا : عبدالحميد بدوى ومحمد حسين هيكل وغيرنا ننظر إلى هؤلاء السادة فى كثير جدًّا من الإعجاب وفى كثير جدا من الحب . وكنا نتحرق شوقاً إلى أن نصل إليهم ونتحدث ونسمع ونستفيد .

وما زال هؤلاء السادة يصعدون ونحن نصعد من ورائهم وهم يلتفتون إلينا بين حين وحين يشيرون ويدعون ويشجعون حتى أتيح لنا أن نبلغ مكانا من هذا الجبل . وإذا نحن رفقاء ، وإذا هم يلحظوننا لا كما يلحظ الآباء أبناءهم الصغار بل كما يلحظ الآباء أبناءهم الكبار . وإذا هم يفرحون إذ يرون أبناءهم ينهضون بهذه المهمة ويحتملون بعض المصاعب ويكابدون بعض الخطوب .

وكان أسرع هذا الجيل الناشئ إلى رضا هؤلاء السادة وإلى إعجابهم وإلى عنايتهم به وإلحاحهم فى العناية عبدالحميد بدوى الذى نستقبله اليوم . كان سابقنا جميعاً إلى رضا هؤلاء السادة ، وهو الذى فاز بالحظوة أكاد أقول من دوننا كافة فآثروه إيثارا غريبا ؛ لأنه بالطبع كان أحقنا بهذا الإيثار .

ولم يكد يعود من أوربا ويستقر أستاذاً فى مدرسة الحقوق حتى أصبح واحداً من هؤلاء السادة . وإذا هو على شبابه أب من الآباء ، وإذا هو يلحظ رفاقه الذين كانوا يرافقونه فى التصعيد كما يلحظهم هؤلاء الشيوخ . وإذا هؤلاء الشباب ، هؤلاء الرفاق الذين بدءوا معه الرحلة ينظرون إليه كما كانوا ينظرون إلى آبائهم وإلى شيوخهم هؤلاء . وإذا هم ينتظرون منه أن يشير إليهم مشجعاً ، وأن يدعوهم بلسانه مشجعاً أيضاً .

وما أنا فى حاجة إلى أن أتحدث عن المناصب التى ارتقى إليها عبدالحميد بدوى ، فهو كان أستاذاً وقاضياً وسكرتيراً فنيًّا لثروت باشا . وهو كان سكرتيراً عامًّا لمجلس الوزراء . وهو كان مستشاراً ملكيًّا ثم رئيساً للجنة قضايا الحكومة ثم وزيراً للماليّة ، وهو الآن وزير للخارجية . كل هذه الأشياء لا غناء فى ذكرها لأن الناس جميعاً يعرفونها . لكن هناك أشياء قليلة هى التى تستحق

أن أقف عندها وأن أتحدث عنها قليلاً ، وهى هذه البيئات التى اختلفت على عبد الحميد بدوى أو التى ألم بها عبد الحميد بدوى . فعبد الحميد بدوى طالب دائماً ، متعلم دائماً . وليس من هؤلاء الناس الذين يعتبرون إجازة الدراسة الليسانس أو الدكتوراه كما كان يقول له الملك العظيم فؤاد ورقة طلاق بينهم وبين العلم . لكن عبد الحميد بدوى لا يبلغ من العلم درجة إلا ارتقى لأرفع منها . ولا يستطيع أن يفهم هذه الحياة الغافلة التى تكثر النظر فى المرآة ، والتى تعجب بما ترى . ولكنه ساخط دائماً ، طموح دائماً ، طامع دائماً ، لا يبلغ شيئاً إلا طلب خيراً منه ، لا يرضى عن قسط يبلغه من علم أو أدب أو ثقافة . فهو متعلم دائماً مهما يبلغ من الرقى فى حياته الاجتماعية ، ومهما يبلغ حظه من العلم والثقافة . وأؤكد لكم أنه أعظم جدًّا مما نظن .

لا يمر عبد الحميد بدوى ببيئة إلا انتفع فى نفسه وعلمه وثقافته وتجربته العقلية بهذه البيئة أكثر مما تنتفع منه هذه البيئة . ومع ذلك أى الناس يستطيع أن يقول إن عبد الحميد بدوى مر فى بيئة من البيئات دون أن يترك فيها أثراً رائعاً .

كان عبد الحميد بدوى متصلا بأرفع بيئة فى مصر من الناحية العقلية ومن ناحية هذا الترف الذهنى النادر فى بلاد الشرق . كان متصلا بثروت ، وكان متصلاً بعدلى ، وكان مرافقاً دائماً للطفى السيد وعبد العزيز فهمى وأمثالهم . وقد تأثر بهذه البيئة فى تكوين ثقافته التى أسميها الثقافة المترفة ؛ فهى ليست الثقافة اليسيرة السهلة التى تنال من قرب لكنها ثقافة متخيرة أشد التخير وأدقه . متخيرة فى نوعها ، وفى شكلها ، وفى صورتها ، وفى طبيعتها أيضاً .

فعبد الحميد بدوى منذ كان طالباً يبحث عن الجيد المختار فى الأدب العربى ، وعن الجيد المختار فى الشعر القديم والنثر القديم ، ويتقن ما استطاع إلى الإتقان سبيلا هاتين اللغتين اللتين نعنى بهما فى مصر وهما اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، حتى بلغ من هاتين اللغتين أقصى ما يستطيع أن يبلغه إنجليزى قادر من لغته الإنجليزية ، وأقصى ما يستطيع فرنسى ماهر أن يبلغه من لغته الفرنسية . ولا أقول هذا مبالغة ولا غلوًّا ، ولكنى أقول عن خبرة وعن شهادة القادرين على أن يشهدوا .

فعبد الحميد بدوى حين يتحدث إلى الإنجليز وحين يتحدث إلى الفرنسيين

يخلبهم أكثر مما يخلبهم الإنجليزى أو الفرنسى، لافى النطق فحسب، فالنطق أيسر الأشياء، لكن فى التعمق فى اللغة وفى إتقانه لأسرارها ودقائقها وأدبها الرفيع . لايفوته من الأدب الانجليزى أو الفرنسى شىء لا فى القديم ولا فى الحديث ولا فيما ينشأ ويظهر بين وقت ووقت .

فعبد الحميد بدوى من أكثر الناس قراءة، ولعله أن يكون أكثر الناس قراءة فى مصر، ولعله أن يكون أكثر الناس قراءة فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية . وهو بهذا استطاع أن يكون لنفسه هذه الثقافة العالية الرفيعة المترفة المتخيرة التى لايستمتع بها كثير من المصريين فى هذا العصر .

وأيسر مايصور لنا هذه الثقافة الممتازة الرفيعة أى أثر من هذه الآثار القليلة التى سمح عبد الحميد بدوى أن تنشر وأن تذاع على الناس . وأؤكد لكم أنى كنت اليوم صباحاً أقرأ محاضرة له عن حرية القول . وأؤكد لكم أنى لا أذكر أنى تأثرت بشىء من هذه الناحية ناحية العلم العميق والدرس المستقصى والظرف فى التعبير، بل الظرف فى التصوير والتفكير، كما تأثرت بهذا الفصل أو بهذه المحاضرة الرائعة التى استقصى فيها عبد الحميد بدوى فى صحف قليلة جدًا . ولكن أى استقصاء وأى دقة ؟ تاريخ حرية القول وما اختلفت على حرية القول من أطوار من الناحية الاجتماعية ومن الناحية السياسية، ثم من الناحية القانونية والدستورية بنوع خاص .

ثم هو على هذا كله لاينتهى من بحثه إلا بعد أن يستقصيه أحسن استقصاء وأدقه بالقياس إلى حياتنا العصرية الحديثة .

وغير هذا من هذه الفصول القليلة التى سمح بنشرها عبد الحميد بدوى يكفى أن يقرأها أى إنسان مثقف ليحصل على فكرة واضحة من هذا النوع من الثقافة التى يستمتع بها عبد الحميد بدوى . فهى كما قلت ليست ثقافة عادية، وليست ثقافة شائعة، وليست ثقافة تمتاز بالسعة والعمق فحسب، ولكنها تمتاز قبل كل شىء بهذا الظرف وهذا الترف وهذا الارتفاع فى النوع والشكل جميعاً .

ولقد كنت أقرأ من فصول عبدالحميدبدوى على قلتها، فأذكر مطلع قصيدة غزلية لبعض الشعراء الفرنسيين ــ ولا أدرى كيف يوجه الغزل إلى عبد الحميد

بدوى ، ولكن هذا المطلع يصور عقله أصدق تصوير – فهذا الشاعر يقول لصاحبته : إن نفسك منظر رائع من مناظر الطبيعة المختلفة . فعبد الحميد بدوى نفسه هذه النفس . نفسه رائعة حقا لأنها نفس كثيرة متعددة ، ليست نفساً واحدة لكنها أنفس لاتكاد تحصى . أنفس ترونها فى الأدب ، وترونها فى العلوم ، وترونها فى الفقه ، وترونها فى الاقتصاد ، وترونها فى السياسة ترونها فيما شئتم من موضوعات المعرفة الإنسانية ؛ فهى ليست غريبة فى أى فرع ، وهى ليست غريبة فى أى مسألة .

فعبد الحميد بدوى إذا تحدث فى مسألة لايتحدث إلا بعد أن يقتلها درساً وبحثاً وتعمقاً واستقصاء . وإذا سمح لنفسه أن يتحدث فى أشياء ، فانما يتحدث عن علم دقيق عميق كأشد ماتكون الدقة والعمق . ولذلك لايشعر السامع له أو المتحدث إليه أو القارئ لبعض ماينشر أنه غريب فى أى بحث أو أى نوع من أنواع المعرفة التى يتحدث عنها .

وعبد الحميد بدوى يذكرنى بأديب فرنسى عظيم . كنت أقرأ أيضا هذا الصباح خطبته فى شكره للمجمع اللغوى الفرنسى عند ما انتخب عضواً من أعضائه ، وهو الشاعر الفرنسي والكاتب الفرنسى « پول ڤاليرى » ، وأخص مايمتاز به پول ڤاليرى أنه صاحب عقل قبل أن يكون صاحب أى شىء آخر . صاحب عقل ، فهو يحكم عقله فى قلبه ، ويحكم عقله فى شعوره ، ويحكم عقله بنوع خاص فى كل مايصدر عنه من لفظ شعراً كان أو نثراً . وليس اصعب من تحكيم العقل فى الشعر ؛ ومع ذلك فپول ڤاليرى هو شاعر العقلاء أو عاقل الشعراء كما تشاءون ، وهو الذى أخضع الشعر لسلطان العقل إخضاعاً تامًّا ، وهو الذى نستطيع أن نقرأ شعره ، فاذا هو يمس قلوبنا ويمس عواطفنا ، ولكنه يمس عقولنا قبل كل شىء .

ثم هو إلى جانب إكباره للعقل ، صاحب ظرف وترف وارتفاع عن هذه الأشياء الشائعة التى تتمثل فيها ضخامة الجماهير وتتمثل فيها عواطف الدهماء .

وپول ڤاليرى يمثل هذه الإرستقراطية العقلية الممتازة . وأؤكد لكم أننى ماقرأت لعبد الحميد بدوى شيئاً ولا سمعته يخطب ولا تحدثت إليه فى موضوع من الموضوعات إلا ذكرت پول ڤاليرى . وكل ما بين الرجلين من الفرق ، أن عبدالحميد بدوى مشغوف بالفقه شغفاً خاصًّا ، وينظر إلى الأدب نظرة فيها شىء

من الحب ولكن فيها شيء من الإشفاق والرفق بهؤلاء الأدباء الذين ينفقون حياتهم فى الكلام .

لست أدرى لو أننا أردنا أن نحصى الأعمال الفنية الرائعة التى قدمها عبد الحميد بدوى إلى جمهور المثقفين أنظفر بشيء قليل أم نظفر بشيء كثير ؟

أما الذين يتتبعون الفهارس ويتتبعون كتب الببليوغرافى فإنهم لا يظفرون لعبد الحميد بدوى بشيء كثير لأنه مقل .

كره المحاماة لأنه بخل بنفسه على الجماهير . وأحسبه كره التأليف لأنه بخل بنفسه على الجماهير لأن يؤلف كتاباً بعد رسالة الدكتوراه ، لكنه ألقى بعض المحاضرات وسمح بنشرها ، فمحصولها المادى فى الفهارس وفى الببليوغرافى قليل . ولكن أهذا حقاً هو الذى يمكن أن نقدر به جهود عبد الحميد بدوى فى الثقافة وفى الفن ؟ أظن لا . وأظننا عند ما نريد أن نحصى أعمال عبد الحميد بدوى يجب أن نذهب إلى محفوظات الدولة ، إلى الوزارات التى عمل فيها ، وإلى رئاسة مجلس الوزراء ، وإلى أقلام القضايا . وهنا يحتاج عبد الحميد بدوى إلى « بيوغراف » يحتاج إلى رجل خاص يخصص نفسه للأعمال الرائعة التى تركها عبد الحميد بدوى فى محفوظات الدولة ، لاتباح للجماهير ولكنها ستباح يوماً من الأيام للتاريخ ، فيعرف التاريخ يوماً خيراً مما نعرف ويثنى التاريخ أحسن مما نثنى .

ليقل القائلون فى عبد الحميد بدوى ما يشاءون . ولكنى الآن أكتفى بأن أقول فى عبد الحميد بدوى أننا حين نستقبله اليوم فى مجمعنا إنما نستقبل صفحة من أقوم وأرفع صحف التاريخ المصرى الحديث . فمنذ نهضت مصر نهضتها السياسية الأخيرة لم يتصل مصرى بإنجليزى لمفاوضة إلا شارك فيها عبد الحميد بدوى ، وشارك فيها أحسن مشاركة وأقومها .

وواضح جداً أيها السادة ، أننا لا نعرف من مفاوضاتنا مع الإنجليز إلا القليل ، وان الذى نجهله وسيعرفه التاريخ أكثر جداً مما نعرفه .

إذاً : فعبد الحميد بدوى وما أبلاه فى مفاوضات عدلى وثروت ومحمد محمود وفى كل الاتصالات التى كانت بين المصريين والإنجليز ، هذا البلاء الرائع قد قدر علينا نحن بحكم الظروف أن نجهله . ولكن ماوصل إلينا من بواكيره ومن بوادره يعطينا فكرة عنه خطيرة حقاً ، ككل شيء يمكن أن يصدر عن عبدالحميد بدوى .

ثم لم يقف بلاء عبد الحميد بدوى فى هـذه الناحية من اتصالنا بحلفائنا الإنجليز ، لـكن عبد الحميد بدوى يذكر دائماً فى كل اتصال بين مصر وبين أية دولة أجنبية منذ ثورتنا الوطنية .

فعبد الحميد بدوى له أعظم الأثر فى الصلة بيننا وبين أوربا فى مسألة إلغاء الامتيازات . وموقفه فى « مونتريه » أو مانعرفه عن موقفه فى مونتريه أظهر وأقوى من أن يحتاج إلى تفصيل .

وعبد الحميد بدوى صاحب الاتصال فى هذه الدقائق التى نجهلها ، وتعرفها الحـكومات المصرية على اختلافها ، وفى تكوين هذه الصلات الدقيقة المعقدة التى تصل بيننا وبين الدول على اختلافها فى كل ناحية من هذه النواحى .

كانت الحـكومة وما تزال الحـكومات المصرية ترجع إلى عبد الحميد بدوى لأنه هو وحده الذى يحسن توجيه الحـكومات فى مثل هذه الأشياء .

وأخيراً ذهب عبد الحميد بدوى إلى سان فرنسيسكو ، وعاد ومعه ميثاق سان فرنسيسكو الذى دافع عنه أمام البرلمان حتى أقره البرلمان .

ولست أدرى أراض أنا أم غير راض عن هذا الميثاق . ولـكنى لا أشك أن عبد الحميد بدوى نفسه ليس راضياً عن هذا الميثاق . وما عرفت عبد الحميد بدوى راضياً عن شىء . ولذلك أقول إنه غير راض . وهنا تظهر المزايا الحقيقية لعبد الحميد بدوى . فهو ليس صاحب خيال ؛ وهو ليس صاحب اندفاع وراء المجردات . لـكنه صاحب خيال بديع بعيد المدى ، وصاحب نظرات واقعية . فهو لا يسترسل مع الخيال كما يهيم الأدباء والشعراء والفلاسفة ، لـكنه لا يستسلم للواقع فيبقى ثابتاً فى مكانه كسير الجناح . وإنما قد كون لنفسه مزاجاً بديعاً من هذه الواقعية والخيالية فى وقت واحد . فهو صاحب خيال بديع ، وهو صاحب ملاحظة دقيقة للواقع . ولذلك ترونه دائماً قانعاً وترونه دائماً طامعاً . وهو من الأشخاص النادرين الذين يجمعون بين الطمع والقناعة والطموح والاعتـدال .

سيدى الزميل العزيز . إن هذا المجمع هو الذى دعاك إلى أن تشرفه بالمشاركة فى عمله الخطير .

لم تسع إليه ، ولم تفـكر فى السعى إليه ، ولم يخطر لك قط أنك ستكون عضواً من أعضائه . وإنما فوجئت بهذه العضوية مفاجأة لأن أعضاء هذا المجمع يقدرونك أكثر مما تقـدر نفسك ، ويكبرونك أكثر مما تـكبر نفسك ،

وينتظرون منك أكثر مما تنتظر من نفسك . وهم قد فاجئوك بهذا الاختيار ، وهم بذلك قد أعفوك من بعض التقاليد الأكاديمية التى ما أظن أنك تتردد فى أن تؤديها لو أنك حرصت على أن تكون عضواً فى هذا المجمع . فمن التقاليد الأكاديمية أن يسعى من يرشح نفسه إلى المجمع وأن يطوف بالأعضاء يستعطفهم ويستعينهم ويطلب منهم التأييد ليظفر بهذه العضوية .

أعفيت أنت من هذا ، وأعفيت من هذا إلى حد أنك لست فى حاجة إلى أن تشكر المجمع ولكن المجمع هو المحتاج ، أو أشعر أنه مضطر أن يشكر لك أنك قبلت عضويته .

فأنت فى رأى نفسك فقيه ، وأنت فى رأى نفسك صاحب قانون واقتصاد وسياسة ، وأنت فى رأى نفسك بعيد — كما تظن أو كما تقول — عن مسائل اللغة وأساليبها ودقتها وسلامتها أو غير هذا من الموضوعات التى يعنى بها هذا المجمع .

أنت فى رأى نفسك كذلك . ولكنك — وأستطيع أن أقولها الآن بكل شجاعة — مخطىء كل الخطأ فى هذا الرأى . فما أعرف بين المثقفين الممتازين من المصريين أقدر منك على تحديد الألفاظ . وما أعرف بين المثقفين الممتازين أقدر منك على تحديد المعانى قبل أن تختار لها اللفظ . وقد كان أناتول فرانس يقول : إن الكلمات إنما هى المعانى . واللغة التى ليس لها معان لا يمكن أن توجد فيها الكلمات . وأنت تشعر بهذا أدق الشعور وأدقه وأعمقه . وأبغض شىء إليك اللفظ الذى لا يدل على شىء ، وأبغض شىء لديك هذه الألفاظ العامة الغامضة التى لا ترسم معانيها رسما دقيقاً محدداً بحيث لا تكون موضع الجدل . فأنت من هذه الناحية أقدر المثقفين على هذا التحديد الذى يحتاج إليه المجمع ، الذى عند ما يريد أن يضع معجما لغويًّا أو يحدد مصطلحاً لا أظن أن أحداً يستطيع أن يشاركك فى هذا إلا أن يكون أستاذنا عبد العزيز باشا فهمى . فكلاكما حريص كل الحرص على دقة الألفاظ ورسم الخواطر رسما يوشك أن يكون نظريًّا ، وكلاكما يريدها أن ترى رأى العين أو تلمس بالأيدى .

ثم أنت فيما ترى صاحب فقه . وأظنك توافقنى على أن أحداً لم يخدم اللغة العربية فى تاريخها القديم كما خدمها الفقهاء . فهم الذين مهدوا هذه اللغة ويسروها وجعلوها حقًّا لغة علم وفلسفة وتفكير عقلى عميق دقيق .

كل شىء فيك كان يؤهلك لتكون عضواً فى هذا المجمع : ثقافتك الواسعة العميقة . ترفك العقلى الممتاز . حرصك على الدقة والتعمق . حرصك على التصوير الصحيح . بغضك للألفاظ الغامضة . حبك للألفاظ المحددة الواضحة . شعورك المترف . ذوقك المصفى . طبعك النقى . عقلك الذكى . قلبك الكبير .

كل هذا كان يؤهلك لتكون عضواً فى هذا المجمع . وكل هذا الذى دعانا لأن نفاجئك بهذه العضوية .

فاذا كان لى أن أقول شيئاً هو أن أهنىء المجمع بأنك أصبحت عضواً فيه ، وأن أهنئك بأنك طوفت ما طوفت ، ذهبت إلى الحجاز ناشئاً وستذهب إليه قريباً إن شاء الله . ذهبت إلى أوربا وأمريكا ، واختلفت بك الأندية ، واضطربت فى حياتك أشد ما يضطرب به الناس فى الحياة . ثم عدت آخر الأمر إلى هؤلاء الأصدقاء — هؤلاء الأصدقاء الذين لحظوك وأنت شاب تصعد فى الجبل تصعيداً رفيقاً ، وكانوا ينظرون إليك محبين مشجعين . وهؤلاء الأصدقاء الذين صعدوا معك فى الجبل ، فشاركوك فى مشقة هذا التصعيد . ثم شاركوك فى الوصول إلى هذا المركز ، الذى تستطيعون فيه جميعاً أن تخدموا مصر . ثم هم يرمقونك فى شىء كثير جداً من الاكبار والاعجاب ، ومن الغبطة أيضاً ، يتمنون أن يتاح لهم بعض ما أتيح لك من الأسباب التى أدت بك إلى هذه المنزلة الرفيعة .

كلمة حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا

اسمحوا لى – وإن كان برنامج الحفلة لا يأذن لى بالكلام بعد الأستاذ الدكتور طه بك حسين إلا أن عبارة الأستاذ الدكتور طه أتى فيها ما يضطرنى اضطرارا ألا أكتم شهادة أعرفها ، وأنا ممن لا يكتمون الشهادة قطعاً .

قال الأستاذ طه فى آخر عبارته إن عبد الحميد بدوى باشا وإياه كانا ممن يصعدان فى الجبل كيما يدركا القمة التى وصل إليها من سبقوه فى السن ويسميهم الشيوخ .

ثم قال فى عبارته الأولى إن هؤلاء الشيوخ كانو يتلقون من وصل إلى القمة من هؤلاء المصعدين الشبان ، يتلقونه على اعتبار أنه ابنهم الأكبر .

الواقع فيما يتعلق بعبد الحميد بدوى باشا - وأترك الدكتور طه بك - أؤكد لإخوانى أنى وقد تفضل الأستاذ طه بك فذكرنى من بين هؤلاء الشيوخ، وقد قبلت قوله هـذا لأنى أنا شيخ حقـًا لأنى فى الخامسة والسبعين. أؤكد لكم أن عبد الحميد باشا بدوى حينما وصل إلى القمة تلقـّاه هؤلاء الشيوخ الذين يشير إليهم الدكتور طه بك. تلقوه على أنه ليس ابنهم الأكبر، بل شيخهم الأكبر.

لا أقول هـذا بغير دليل، لأنى ما تعودت أن أقول خلاف ما أعتقد، وخلاف ما الدليل قائم لدىَّ عليه.

عبد الحميد بدوى باشا لم أتصل به كثيراً فى شبابه، وفى مراحله الأولى التى أشار إليها الأستاذ طه بك. وإنما اتصلت به فى سنة ١٩٢٥ حينما كنت وزيراً للحقانية، وكانت اللجنة الاستشارية - لجنة القوانين - تعقد تحت رئاسة وزير الحقانية. كان رئيس قلم القضايا فى ذلك العهد الأستاذ الكبير «كازيلى» وكان معه من المستشارين رجال أقوياء جدًّا فى فقه القانون. كان معه «راتليه» و«روستيه» وكان معه من الفقهاء الأجانب الكبار، وكان معه عبد الحميد بدوى. فالذى أشهد به وأقرره أنهم كانوا إذا تناقشوا فى مسألة من المسائل وأخذ الرأى فيها يضطرب، كان عبد الحميد بدوى يفوقهم جميعاً رأيا، وكانوا جميعاً يخضعون لما يبدى من الرأى. تأتى الكلمة فكل يبدى فيها رأيه وكل يناقش فى رأيه هذا. وعبد الحميد بدوى متى أبدى رأياً أيده نخضع لرأيه الكل. وهذه شهادة أقررها كما أقررها بين يدى الله.

لذلك لا تظنوا أن الأستاذ طه بك بالغ أية مبالغة فيما وصف به عبد الحميد بدوى باشا من حال كان عليه فى شبابه، أو عند ما تقدمت به فى السن. بل عبد الحميد باشا بدوى شأنه هو هذا الشأن الذى يعتبره فيه الشيوخ شيخاً لهم كما قلت. وهذه هى الشهادة التى أردت أن أوجهها أمام حضراتكم.

خطبة حضرة صاحب المعالى عبد الحميد بدوى باشا

سادتى

إن مجمعكم الموقر ليبدو فى أوائل عقــده الثانى ركناً من أركان نهضة هذه البلاد كأنه وهى أبعد منه عهداً وأطول عمراً كان قريناً لها منذ قامت . وليس هذا من خدعة النظر أو من تصوير الخيال ، وإنما الحاجة الشديدة إليه هى التى جعلته غداة إنشائه قد ركب فى بنية تلك النهضة وائتلف مع نسيجها ، فهو جزء منها لابد منه ولا غنى عنه . غير أنه لم يكن ليبلغ تلك الغاية لو لم يكن قد ألف من جهابذة أسبغوا عليه من فضلهم ، وأفاضوا من عملهم ، ما اتسق به واقع الحال مع ما عقد عليه من آمال .

وليس هذا مجال القول فى تاريخ المجامع اللغوية وأثرها فى تطور اللغات . ثم إنه سبقنى إليه فاضل من الزملاء إذ عالج موضوعاً لم يدع مقالا لقائل . وقد أدرك الناس أن اللغات سواء قيل فى نشأتها إنها توقيف أم قيل إنها اصطلاح — كائنات حية ، تعرض لمفرداتها الولادة والموت ، والتغير والتحول ، تارة فى أشكالها وصورها الظاهرة وطوراً فى معانيها ، كما تعرض لهـا فى جملتها الولادة والموت والصحة والعقم . وهى أبداً فى انتقال من حال إلى حال . وقد يلوح أن الأمر فى هذا الانتقال فوضى ، ولــكنه يجرى فى الواقع على نظام من قوانين نفسية وأخرى اجتماعية وغيرها صوتية ، وعلى سنن من طبائع الحياة لا يعسر إدراكها وتقصيهـا . وهى فى هذا الانتقال عرضة دائماً للاعوجاج والشطط ، فهى بحاجة إلى من يقوّم ويسدد ويصحح . وكثيراً ما يقوم بذلك الموهوبون من الــكتّـاب والشعراء أو العلماء الذين يتوفرون على الأبحاث اللغوية . ولــكن ذلك كله لا يغنى عن الجماعة تتداول وتتبادل الرأى وتمحص الوقائع وتستخلص الحقائق . فإن أنشئ مجمع لغوى فإن وظيفته تــكون معدة حاضرة .

وإن يكن أى بلد فى أى زمن ، يطيب حالا ، ويصيب خيراً ، بإنشاء مجمع لتدبير أمر لغته ، فإن إنشاء مجمع للغة العربية ، فى مصر ، وفى الآونة التى أنشئ فيهـا ، جدير بأن يعتبر من الأقدار السعيدة والأحداث الفريدة .

ولست بالقائل إن لغتنا أفضل اللغات وأوسعها ، فإنما يستطيع ذلك من وعاها ووعى غيرها ، وأحاط بها جميعاً إحاطة كاملة ، فكان قادراً على أن يرسل فيها حكما يبين الفاضل والمفضول . ولكنى أشعر ، فى غير زهو أو مكاثرة ، بأنها عزيزة علينا ، وأنها لم تعدلها فى نفوسنا لغة أخرى مهما غنيت بالآثار ، ولها بوصف أنها لغة الكتاب عزة فوق عزة وسلطان على النفوس لا يجارى .

ولكن هذه اللغة العزيزة ظلت قروناً طويلة فى حال أشبه بالسبات العميق لأن أبناءها كانوا فى مثل تلك الحال . واللغة وآثارها ليست إلا خلاصة للمدنية التى هى أداة للتعبير ووسيلة التفاهم فيها ، ورمز تلك المدنية ومظهرها . وإنما تنتعش اللغات وتزدهر بما تمد به من أفكار وصور ، وما ينفث فيها من روح ، ويبعث فيها من حياة .

ومن طبائع عصور التأخر أن يعظم فيها شأن اللغة الدارجة والعامية ؛ فإن انكماش الخاصة يجعل لها الغلبة والسيادة . على أنه بالرغم من أن تلك اللغة قلما تدوّن ومن أنها من أجل ذلك يسهل زوالها أو تناسخها فإن حاضرها ينطوى على صور وأخيلة ومجازات لا تجافيها البراعة أو الإبداع . أما اللغة المكتوبة فقد انعكس عليها ما أدرك الأمم العربية من خمول وتأخر وعقم بالأفذاذ .

وبعد فإن اللغة العربية كانت بطبيعة أصولها تعيش بمعزل عن اللغات الأخرى . واللغات كغيرها من الكائنات الحية تنتفع بالتلقيح والتوليد ، وتزدهر بالمنافسة والتقليد .

نعم ! اتصلت العربية باليونانية حين نقلت عن هذه الأخيرة المؤلفات العلمية والفلسفية . غير أن اللغة العربية إذا كانت قد أفادت بهذا الاتصال فى مادتها العلمية فقد بقيت حيث كانت من ناحية الأدب والفن . ومضت تنمو وتتطور بملكاتها الخاصة ، وبقدر غير كبير من التأثر بملكات اللغات الأخرى ، وأنتجت عصراً لم يخل من الابتكار ومن روائع الآثار .

وقد يكون التأثر بتلك اللغات جاء من طريق نقل بعض آثارها ، مما لم يبلغنا خبره على وجه التحقيق ، أو من انتقال بعض أهل تلك اللغات إلى الإسلام ، أو اشتراكهم مع المسلمين فى بعض شؤون الحياة . ومهما يكن من ذلك كله فإن اللغة العربية كانت طوال تلك القرون فى نواحى الأدب والفن تكاد تعيش مكتفية بنفسها مستقلة عن غيرها .

ولكن الأمر ليس كذلك فى أيامنا هذه . فإن اللغة العربية لم تعد تستطيع أن تعتزل غيرها من اللغات . وقد نشأت مدنية اصطلح على تسميتها بالمدنية الغربية ، محلها البلاد التى تدين بالمسيحية ، وقوامها مزاج من التعاليم الخلقية المسيحية ، ومن طائفة من عادات وتقاليد ونظم وطرائق فى المعيشة والتفكير ، مصدرها المدنيتان اليونانية والرومانية ، وصور من حياة القرون الوسطى ، وآثار من المدنية العربية ، كل ذلك جعل يتفاعل ويولد فى ظل حوادث التاريخ جديداً تلو جديد حتى انتهى إلى صورتها الأخيرة . ولهذه المدنية لغات عدة ، ولكل منها آداب جليلة . اشتقت كل أسرة منها من مصدر قديم ، بينها كثير من وجوه التشابه ، كما أن لكل منها طابعاً خاصا .

وقد دانت الدنيا فى العصور الحديثة لهذه المدنية وأهلها ، وهبطت تلك المدنيــة بلاد الشرق تستعمر تارة ، وطوراً تفرض نفسها ، بفضل ما خلقته من سهولة المواصلات وسرعتها ، وما ابتدعته من وسائل النفوذ والتأثير .

وظلت المدنية العربية بخير ما بقيت بعيدة عن الاحتكاك بالمدنية الغربية وآثارها . وإن يكن ذلك الخير ، أن اللغة بقيت محفوظة فى بطون الكتب ، قلَّ أن تتصل بها الحياة ، وأن ماعداها من آثار تلك المدنية أخذ يدركه الأفول . ولكن الغير والأحداث ، لم تجعل لهــا مناصاً من الدخول فى غمرة المعترك العالمى . وهى إما تركت نفسها تغزوها المدنية الغربية فلا تُبقى منها على قليل أو كثير ، وعند ذاك يمحى طابعها الخاص ، وتتقطع الأوصال بينها وبين ماضيها . وإما اعتصمت بركن من البقاء ، وعملت على الملاءمة والتوفيق بين مقوماتها وبين ما تأتى به المدنية الغربية من مزايا وفوائد . وهو هــذا الطريق الأخير الذى أخذت به مصر وغيرها من البلاد العربية .

وليس ما قدمت جديداً عليكم أو غريباً عنكم ، وإنما أردت أن أسوقه تمهيداً لبسط معضلة فى أمر اللغة وتطورها .

ذلك أن العربى الذى يأخذ من المدنية الغربية بسبب ، لا يسعه أن يتجنب نوعاً من الازدواج النفسى والعقلى . فهو يحس بنفسه العربيــة ضروباً من الأحاسيس ، وهو فى الوقت نفسه — وبقدر ما يكون قد أصاب من آداب لغة غربية أو أكثر ومن فنون أهل تلك اللغة أو اللغات — يتذوق ويحس أذواقاً وأحاسيس أخرى ، ولا يجد سبيلا إلى استشعارها أو الإعراب عنها إلا بما نفذ

إلى نفسه من وسائل تلك اللغة أو اللغات وآداب أهلها وفنونهم . فإذا أراد أن يحيل تلك الأذواق والأحاسيس عربية ، ألفى دون ذلك صعوبات غير قليلة .

كذلك لا يسع ذلك العربى نفسه أن يتجنب فى سياق الحكاية أو الترسل أو التدليل بعض المعانى والصور التى يكون قد ألفها من ممارسة آداب أجنبية. وقد تكون نابية فى العربيـة ، لا لأن العربية لا يتسع صدرها لمثلها ، ولـكن لأن النقل المادى أو الحرفى يجعلها كذلك . ولا شك فى أن العربيـة تستسيغ مثل تلك المعانى والصور ، لو صُبّت فى قوالب عربية . ولعل القوالب موجودة ولـكنها تحتاج إلى تحقيق واستكشاف .

وقد استحدثت المدنية الغربية رقيًّا كبيراً فى العلوم والفنون وفى شؤون الحياة . وكان من آثار ذلك الرقى ، أن نزل علينا وابل من الألفاظ والاصطلاحات التى تحكى الفرق بين ما بلغته المدنية العربيـة ، حين وقفت وأصابها الركود ، وبين ما وصلت وتصل إليه المدنية الغربية ، منـذ مضت تركض ركضاً فى استفتاح مغاليق العلوم ، واستكشاف المجهول من أسرار العالم وقوانينه ونظمه.

ونفذ هـذا السيل الجارف من الألفاظ والاصطلاحات إلى الألسنة بصور تختلف باختلاف مصادرها ، وتتفق فى العجمة والغرابة والوحشية . وتعرّض اللسـان العربى الصحيح للاختلاط والتشويش . ولم يكن بد إذاً من أن تتولى هيئة منظمة قديرة حفظ ذلك اللسان والقيام على سلامته . وللكتّاب والنقاد فى هـذا الشأن فضل وأى فضل ، فهم هداة الأمة ومقومو لسانها بما يكتبون وينقدون . غير أن الخطر أكبر من أن يجتزأ فيـه بهذه الوسيلة ، وأجل من أن تهمل معه وسائل توحيد العمل وتركيزه ، وتجميع القوى والـكفايات ، فى مجمع يرصد ويحقق وينتهى إلى توصيات ؛ فإن تلك الوسائل جديرة بأن تهيىء لتلك التوصيات ، ما يجب لها من الهيبة والاحترام ، ومن الذيوع والانتشار .

وقد عنى المجمع بطائفة كبيرة من هذه الألفاظ والاصطلاحات ، ووضع لها ما يقابلها من الألفاظ والاصطلاحات العربيـة السليمة . وهو ماض فى معالجة غيرها وفى وضع ما يجب لمعرفة اللغة وضبطها من معاجم . وجهده فى كل ذلك مشكور وإن ظل أكثره مجهولا . ولو قيس بالوقت الذى سلخه فى القيام به كان أجدر بالشكر والثناء .

وأكبر ظنى أن العناية بهذا الغرض من أغراض المجمع ، لا تنافى معالجة الازدواج الذى أشرت إليه . فإن الأمر فيها لا يعدو تحديد ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب ، تجعل اللغة ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر . وقد جعل هذا التحديد فى مرسوم إنشاء المجمع من أولى غاياته .

ذلك أن اللغات الغربية تتضمن صوراً من الكلام ومعانى وأساليب وأخيلة ليست من ذوق اللغة العربية ، وإن تكن طرائق التفكير الحديثة تسيغها بل تقتضيها فى بعض الأحايين. فما لم تهضم اللغة العربية ، بحسب أصولها وأوضاعها ، تلك الصور والمعانى والأساليب والأخيلة وتتمثلها وتحيلها عربية الوجه ، ظل الازدواج قائماً وكيان العربية مهدداً .

وعندى أنه قد لا ينقص اللغة العربية ما ينبغى من أسباب الأداء لتلك الصور والمعانى والأساليب والأخيلة ، ولكن المتداول بيننا من مادة اللغة لا يلوح أنه يفى بمثل هذه الحاجة .

وقد يكون من الحق أن اللغة العربية لم تنته إلينا بكليتها ، وأن الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وأن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله . ولكن ما علينا من ذلك . وإنه ليكفى أن ننتفع بما انتهى إلينا انتفاعاً صحيحاً لجعل لغتنا صالحة لما نريد لها ، متسعة لكل قديم وجديد . وها نحن أولاء فى العصور القريبة منا نرى الأمة تتخذ لغة من اللغات ، ولا تزال بها تضيف إليها وتنقص منها ، وتغير وتحول وتستحدث فى ألفاظها وتراكيبها ، فإذا بالفرع يختلف عن الأصل دون أن يعزب على أهل الأصل فهم اللغة الجديدة أو العكس ، وإذا بهذا الاختلاف لا يخل بما لكل منهما من حسن السبك ومتانة النسج — تلك هى قصة اللغة الانجليزية فى أمريكا .

وكما أن الاستقلال السياسى يجب أن يكون قبلة كل بلد يعرف قدر نفسه ويحترمها ، من غير أن يحول ذلك دون قدر من التعاون والتعاضد الدولى . كذلك يجب لكل لغة أن تستقل بأوضاعها وبصورها وبأساليبها الخاصة ، من غير أن يحول ذلك دون الاستعارة من غيرها من اللغات والتأثر بالآداب الأخرى . وليس من الاستقلال فى شىء أن تقرأ عبارات وصيغاً لا تفهمها على وجهها إلا إذا قرأت ، من خلال الكساء العربى الذى يطالعك ، ما أريد نقله من عبارات

أو صيغ اجنبيــة . ومما يؤسف له أن تكون دواعى السرعة فى الكتابة من أسباب هذا البعد عن رسوم العربية فى الخطاب .

ولا شك فى أن القادرين من الكتّاب لا يقعون فى مثل هذا الخلط ، ولكن قدراً من التنظيم والتوحيد والتشاور جدير بأن يحفظ للغة سلامتها ، ويبقى عليها مع افتنانها ، قوتها وبهجتها . وهو ما قمتم وتقومون به إن شاء الله جماعة وأفراداً .

وقد تقدمنى فى هذا المحل كبير من كبراء مصر والرئيس السابق لهذا المجمع . عرفته فى صدر حياتى العامة بعد حوادث الثورة المصرية — وكنت إذ ذاك قاضياً وكان مستشاراً بمحكمة الاستئناف بدائرة النقض — فى مجالس المغفور له ثروت باشا ، وهو من تعرفون كبير مكانته وصادق أثره فى التاريخ المصرى ، ومن لا أنسى أبد الدهر فضله علىّ . وكان رفعت باشا زميلا لثروت باشا وخلفه فى وظائف وزارة العدل . وتولى بعد ذلك الوزارة عدة مرات ، وكان نصيبه فى أكثرها وزارة المعارف ولعلها كانت أحب الوزارات إلى نفسه ، ثم تولى رئاسة مجلس النواب أكثر من مرة وعقدت له رئاسة هذا المجمع ، وربما أخطأته رئاسة أخرى كانت منه قاب قوسين أو أدنى .

ويكفى لعرفان قدره أن اسمه كان فى صدر الأسماء التى عند ما تمس الحاجة إلى رجل قدير أو عند ما يفتقد الأكفاء . واشتهر فى خاصة حياته بشغفه بالأدب وبأنه يقرض الشعر ، وكان ذلك نادراً فى حياته . ولعل أمره فى ذلك لم يزد على الهواية ؛ فقد كان لا يكتب أو ينظم القصيدة إلا فى المناسبات الخاصة ، أو حين تضطره الظروف لإلقاء خطبة مثلا .

وإن قارئه ليتبين أنه يعنى بتخير الألفاظ وبجزالة الأسلوب عنــاية تتجاوز المألوف حتى بين الأدباء . وكان يسعفه فى ذلك سعة علمه باللغة ومفرداتها . وربما دعاه تبحره فيها إلى إيثار الغريب حين يجده أحسن أداء أو أصح وضعاً . وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها ، وقد يرميه البعض بالتشدد . ومن سنن الزمان أن يكون خلفه فى هــذا المجمع من دعاة الترخص . على أنى لا أقول بالترخص إلا بقدر التيسير وفى حدوده . وإنما يستطيع أن يتشدد من كان مثل سلفى فى حظه من العلم باللغة ، وفى توفره على دراستها وولعه بالتنقيب فيها .

وقد جاء اختياركم لى للمحل الذى كان يشغله ذلك الأديب الكبير شرفاً أعتز به على وجه الزمان . وما كنت لأطمح له ولكن فضلكم أبى إلا أن يجاوز قدرى ويسبق أملى . فلن أفيكم حقكم من الشكر على هذا الاختيار أوأفى زميلى وزير المعارف على عرضه واستصدار المرسوم به . وإنى لأدعو الله أن يبارك فى عمل المجمع وأن يحوطه بعطف حضرة صاحب الجلالة الملك وتأييده . حفظه الله ذخراً لمصر ، وجعل عهده عهد يمن ورخاء .

الانسان والعالم

فى نظر الراغب الأصفهانى

ما الإنسان ؟ ولماذا وجد على ظهر الأرض ؟ وما الغاية من حياة الإنسان ؟ وما مصير العالم ؟ وما صلة الفرد بالمجتمع ؟ هذه كلها أسئلة تطوف بذهن كل شخص اليومَ ، وطافت بأذهان الناس منذ عرفوا التفكير ، وسوف يعرضها الإنسان لنفسه فى المستقبل ما دامت الحياة موجودة .

وإذا كان العلم الحديث قد سجل تقدماً عظيما منذ القرن الماضى ، إذ أصبحت علوم الأقدمين مما لا يؤبه لها ولا يعتد بها ، فإن الأخلاق أو العلم بما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان ، والفلسفة وهى العلم بالأسباب الأولى والغايات الأخيرة من الحياة ، لم يتقدما كثيراً عما وصل إليه القدماء . ونقصد بالعلم الحديث علوم الطبيعة والحياة ، وهى التى تعتمد على مشاهدة الظواهر الكونية وتسجيلها واستنباط القوانين التى تحكمها ثم تسخيرها لمصلحة الإنسان .

وقد لا يخلو من فائدة أن نرجع إلى آراء المفكرين الذين نظروا فى مسائل الأخلاق والفلسفة ، وهى مسائل أصبحت شبه ثابتة فى تاريخ البشر . ومن الخير لنا فى نهضتنا الحديثة أن نلتفت إلى الوراء قليلاً لنشهد آثار أعلام الفكر من العرب والمسلمين .

وأحد هؤلاء الأعلام الذين لم يلتفت إليهم كثير من المحدثين فيما أعتقد : أبو القاسم الحسين بن محمد بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى .

١

كان العصر الذى يعيش فيه الراغب الأصفهانى ، وهو القرن الخامس الهجرى إذا تجاوزنا عن السنتين اللتين قضاهما فى مستهل القرن السادس ، كان عصراً

زاهراً من الناحيتين العلمية والأدبية ، ولو أنه كان متأخراً سياسيا . فمنذ القرن الرابع ، بل قبل ذلك أيضا ، انحلت الخلافة العباسـية ، هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، المتسعة النواحى ، فقام على أنقاضها دويلات كثيرة فى شتى الجهات ، نفوذ الأمراء فيهـا هو النفوذ الأول ، ولم يبق للخليفة فى بغداد إلا الاسم . وكانت الدولة الفاطمية فى مصر هى صاحبة السلطان .

وظهرت على المسرح الإسلامى ألوان من الثقافات المتعارضة فى أصولها ، بعضها عن الهند ، وبعضها الآخر عن الفرس ، وبعضها الثالث عن اليونان . ونحن نعلم أن الترجمة بدأت منذ القرن الثانى ، واستمرت قوية طول القرن الثالث ، وأثمرت فى القرن الرابع ، الذى يعد بحق أزهى عصور المسلمين حضارة . ولم يكن من السهل أن تصهر هذه الألوان المختلفة من الثقافات فى بوتقة الإسلام ، فلم يكن من الغريب أن تقرأ لابن مسكويه مثلا فى القرن الرابع كلاماً فلا تشك أن كاتبه يونانى إلى جانب آراء مستمدة من الشريعة الإسلامية الخالصة . كان الإسلام حديث عهد بهذه الأفكار الغريبة عنه . فإذا بلغنا القرن الخامس رأينا هذه الأفكار الغريبة أصبحت مألوفة ، وعاشت فى صحبة ومودة مع الأفكار الإسلامية الصميمة ، وامتزجت آراء الفرس والهند واليونان بشريعة المسلمين امتزاجاً لا تحس معه تلفيقاً أو توفيقاً ، مما تجده ظاهراً عند أولئك الذين ألفوا فى القرن السابق .

على أن المقدرة على تمثيل المعلومات المختلفة لا تتوقف على الزمن وحده ، بل على حرية الكاتب ونفاذ فكره وقدرته التركيبية التى ينظر منها إلى الحيـاة . وهناك مؤلفون عاشوا بعد الراغب ، واستفادوا من كتبه ، ومع ذلك لم يكونوا قادرين على هضم أو تمثيل الآراء الصادرة عن بيئات مختلفة . ومن هؤلاء الغزالى ، حجة الإسـلام الذى نال شهرة عظيمة لا يزال يتمتع بها حتى الآن ، فإنك تجد فى أغلب مؤلفاته الأخلاقية كالإحياء فصولا غريبة كل الغرابة عن الروح الإسـلامى ، وتحس وأنت تقرؤها أنك قد انتقلت من جو إلى آخر ، ومن أسلوب إلى أسلوب .

وليس الأمر كذلك مع الراغب الأصفهانى ، لأنه لم يبتغ شهرة ، ولم يطلب قرباً من ذوى النفوذ ، كما أنه أراد وقد أوشكت حياته على الفنـاء أن ينظر فى أمور هذا الإنسان ، وصلته بالعالم الذى يعيش فيه ، نظرة تجمع بين ما اطلع

عليه من فلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، وأدب الفرس ، ودين المسلمين ، إلى خبرة واسعة وتجربة صادقة .

لهذا كله تجد فى كتاب الذريعة آيات من القرآن ، وأحاديث للرسول ، ومأثورات لعلى بن أبى طالب ، ولمحات من تفكير سقراط وأفلاطون ، إلى جانب أشعار تدل على قدم راسخة فى الأدب وذوق رفيع فى الفن .

ومن الواضح أن الراغب يقصد من تأليف هذا الكتاب نفع العامة أو الجمهور ، ولهذا نهج الأسلوب السهل . ومن اليسير أن نتصور الطبقات التى انقسم إليها المجتمع فى عصره ، فهم الأمراء ومن فى منزلتهم ، والعلماء ، والعامة . ولقد قسم الراغب المجتمع أقساماً مختلفة بحسب وجهات النظر ، فقال : الناس حزبان خاص وعام ، فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات . والناس من وجه آخر ثلاثة ، خاصة وعامة وأوساط . فالخاص هو الذى يسوس ولا يساس ، والعام هو الذى يساس ولا يسوس ، والوسط هو الذى يسوسه من فوقه ، وهو يسوس من دونه . والناس من وجه آخر ثلاثة أحزاب ، أصحاب الشهوات ، وأصحاب الكرامة والرياسة ، وأصحاب الحكمة . ومن وجه آخر ، ملكى وشيطانى وإنسى . فالملكى الذى يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده ، والشيطانى الذى يستعمل القوة الشهوية ، والإنسى الذى يخلط عملا صالحاً وآخر سيئاً .

وسواء أخذنا بتقسيمات الراغب ، أم بالتقسيم الذى اقترحته من قبل مما ينطبق على الواقع ويستمد منه ، فمن السهل علينا أن نتصور أن المؤلف سوف ينتصر لطبقة العلماء . ذلك أن المجتمع الإسلامى بدأ فى الانقسام إلى طبقات منذ القرن الأول الهجرى ، مع أن الإسلام فى جوهره دين الديمقراطية الصحيحة ، أو دين الطبقة الواحدة ، كما هو واضح من القرآن وهو الأصل الأول من أصول الدين ، ومن سيرة الرسول عليه السلام الذى كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ، ويشارك قومه كبيرهم وصغيرهم فى كل شىء . ولما ظهرت طبقة الأمراء ، على الخصوص فى الدولة العباسية التى جرت فى ذلك على سنة الفرس ، كانوا يقدمون العلماء ، ونقصد بهم علماء الدين بطبيعة الحال ، ويقدمونهم عليهم ، وينزلون لهم عن الصدارة ؛ لأن الخلفاء والأمراء كانوا أنفسهم من العلماء الذين يعرفون للعلم حقه ويقدرون له منزلته . حتى إذا بدأ المجتمع فى الانحلال والفساد ،

نزلت درجة العلماء ، فاحتاج أحدهم وهو الراغب الأصفهانى أن يدافع عنهم ، وهو فى هذا الدفاع إنما يدافع عن نفسه أيضا . ولو كانت منزلة العلماء فى الدرجة الأولى كما كانت من قبل ، ما كان بالكتّاب حاجة إلى التنبيه على ذلك وإلى الدفاع عن أنفسهم .

قال الراغب فى خطبة الكتاب : « كن أيها الأخ عالماً ، وبعلمك عاملاً ، تكن من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقال : « واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً » . وقال : « وان أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : مات خزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر » .

٢

لم وجد الإنسان وما غايته من الحياة ؟

هذه هى المسألة المشكلة حقاً . ولقد اختلفت إجابات الناس عنها باختلاف الأمم والعصور والثقافات . غير أن إحدى هذه الإجابات ما تجده عند أصحاب الديانات السماوية ، وما تجده فى الإسلام واضحاً لا سبيل إلى الشك فى تأويله .

فالغاية من خلق الإنسان عبادة الله ، وفى ذلك قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ » .

ولقد سادت فى هذا العصر الذى نعيش فيه موجة من الإلحاد أو الزندقة أو الشك ، فأنكر الناس أو شكوا فى وجود الله ، لأن إثباته لا يقوم على الأدلة العلمية المعتمدة على الملاحظة والتجربة . ومن الثابت أن أهل أوربا على الخصوص انصرفوا عن العبادة فى الكنائس ، وأن بعض الدول قامت تعارض الدين معارضة صريحة ، ونعنى روسيا السوفيتية بالذات . ولكن الحرب الأخيرة غيرت النفوس وحولت الناس من المادية المسرفة فى الإلحاد إلى شىء من الروحانية والإيمان بوجود قوة عليا تسير الكون : ولقد عادت روسيا السوفيتية إلى الاعتراف بالأديان .

لهذا السبب أحب أن أهمس فى آذان المعجبين بالحضارة الأوربية الحديثة أن يتمهلوا فلا تبهرهم بما فيها من بريق يخدع البصائر والأبصار ، وعليهم أن

يلتفتوا قليلا إلى القدماء فقد يجدون عندهم شيئاً يقنعهم ويغذى نفوسهم.

قال الراغب إن الإنسان وجد لثلاث : لعمارة الأرض فى قوله تعالى « واستعمركم فيها ». وعليه تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره. والثانى لعبادة الله. والثالث خلافة الله فى الأرض، كما قال تعالى « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ». وخلافة الله فى الأرض هى الاقتداء بالبارى على قدر طاقة البشر فى السياسة باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة هى : الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس فى الحكم، والاحسان والفضل.

هذا الأسلوب من التفكير يختلف عن تفكير غلاة المتصوفة الذين أرادوا إذلال الجسم وطلب الفقر والاقتصار على السعى إلى الآخرة. وقد أشار الراغب الأصفهانى إليهم فى خلال كتابه اشارات كثيرة، ونعى عليهم هذا الاتجاه، وأنكر منهم هذا التفكير. ولقد أُثر عن المسلمين بالباطل أنهم يزهدون فى الدنيا وينصرفون إلى الكسل ويدعون إلى التوكل. ولكننا نرى هنا أن الراغب يقرر أن لابد للإنسان من تحصيل مأكله وملبسه ومسكنه، فليس له سبيل إلى ثباته فى الدنيا إلا بما يسد جوعته، ويستر عورته، ويقيه من الحر والبرد، على أن يكون ذلك من الوجه المباح، كما قال تعالى « إنَّ لكَ ألاَّ تجُوعَ فيها ولا تَعْرَى ».

فأنت ترى أنه يجمع بين الدين والدنيا، بل يجعل الدنيا سبيلا إلى الآخرة. وإنى أشارك المؤلف فى الرأى بأن الاقتصار على الدنيا وحدها لا يصلح غاية للإنسان. وأشاركه فى أن إهمال الدنيا والإسراف فى النظر إلى الدار الآخرة مما لا يتفق مع الطبيعة البشرية.

قال فى آخر الكتاب فى فصل عنوانه مراعاة أمور الدنيا والآخرة : إن الناس فى ذلك ثلاثة أصناف، صنف منهم المنهمكون فى الدنيا بلا التفات منهم إلى العقبى. وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا. وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما، وهذا الصنف هم عند الحكماء الأفضلون ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة، ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذى هو أشرف الأحوال.

فإذا كان الأمر كذلك فإن « التكسب فى الدنيا، وإن كان معدوداً من المباحات لكنه واجب من وجه ». وأحب أن تنظر معى إلى النص السابق الذى

نقلته عن الراغب ، والذى يجعل التكسب واجباً ، فقد قيل إن عمر كان إذا نظر إلى ذى سيماء سأل أله حرفة ، فإذا قيل لا ، سقط من عينه . فإذا كان الراغب الأصفهانى يقرر مبدأ وجوب التكسب والعمل بالحرفة فقد سبق مذهب الشيوعية الحديث بقرون دون أن يدعى أنه أتى بمذهب جديد . والأمر كما ترى واضح لا يحتاج إلى مذهب يقرره ، وثورة تعينه على القيام . ولعل الذين ينادون بالاشتراكية ، والعدالة الاجتماعية ، وهذه الألوان الجديدة من المذاهب ينظرون فيما قال صاحبنا وسوف يجدون جديدهم قديماً .

٣

ما الإنسان ؟ أهو جسم فقط ، أم روح فقط ، أم جسم وروح ؟ أكبر الظن أن الراغب استقى كلامه فى النفس الإنسانية من أفلاطون مع إضافة بعض الحكم الإسلامية . وعنده « أن وجود النفس لا يحتاج إلى أن يدل عليه لوضوح أمره » . وليست هذه القضية فى مثل الوضوح الذى يؤكده . ومن المعلوم أن ديكارت الفيلسوف شك فى وجود كل شىء حتى وجود نفسه ، فقد يكون هناك شيطان ماكر يخدعه . وانتهى من الشك إلى إثبات وجود نفسه المفكرة فى جملته المشهورة « أنا أفكر ، إذاً أنا موجود » . أما فلاسفة المدرسة الانجليزية من أمثال هوبس وهيوم ، فقد شكوا فى وجود النفس ، وأنكروها إنكاراً ، وقالوا هى أسطورة جاءت إلينا مع علوم القدماء ، وليس لها سند من الوجود الواقعى . وانتهى علماء النفس المحدثين لا إلى إنكار النفس ولا إلى إثباتها بل قالوا هذه مسألة تدخل فى باب الفلسفة وليس للعلم أن يسأل عنها ، وإنما يبحث علم النفس فى السلوك الظاهر للإنسان .

ومن النظريات المشهورة المتصلة بالإنسان نظريته الثنائية التى تجعل الجسم فى ناحية ، والنفس فى ناحية أخرى . ومذهب ديكارت يؤكد هذه الثنائية تأكيداً شديداً . ويذهب الراغب الأصفهانى هذا المذهب ، فعنده أن ماهية الإنسان جسم ونفس ، بصر وبصيرة . وكما قال بعض الحكماء « قد ركب الله تعالى الإنسان تركيباً محسوساً معقولاً على هيئة العالم ، وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود فى العالم » .

وقوى الإنسان هى الغذاء والحس والتخيل والنزوع والتفكير . والفكر أعلاها ، وله أفعال تختص به هى الروية والفكر والاعتبار والقياس والفراسة . والفكر استخراج الغوامض ، وبالاعتبار تحصل التجربة ، وبالقياس ارتباط المجهول بتوسط المعلوم ، والفراسة الاطلاع على الأسرار .

ولقد سبق أن شبه أفلاطون النفس الإنسانية بعربة يجرها جوادان ، أحدهما مطيع والآخر جموح ، ويقودها سائس . أما السائس فهو العقل ، وأما الجوادان فأحدهما القوة الشهوية ، والآخر القوة الغضبية . ويشبه الراغب الإنسان فى بدنه ، بمثل والٍ فى بلده ، وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة ، والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح ، والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة ، والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب للميرة خبيث ماكرٌ ، يتمثل للوالى بصورة الناصح ، وفى نصحه ذنب العقرب ، ويعارض الوزير فى تدبيره . وكما أن الوالى فى مملكته متى استشار فى تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث ، وأدب صاحب الشرطة وجعله مؤتمراً لوزيره استقام أمر بلده ، فكذا النفس متى استعانت بالعقل فى التدبير ، وأدبت الحمية ، وسلَّطته على الشهوة وقواها استتب أمرها .

ويرجح الراغب الأصفهانى إمكان تغيير الخلق ؛ فقد روى فى المأثور « حسنوا أخلاقكم » . وأن الله خلق الأشياء على ضربين أحدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والأرض . والثانى خلقه خلقة وجعل فيه قوة ترشح الإنسان لإكماله وتغيير حاله ، وإن لم ترشحه لتغيير ذاته . وهذه هى نظرية التطور نحو الكمال التى يتغنى بها المحدثون . وقد أشار إليها الراغب إشارة أخرى فى آخر الكتاب بمناسبة الأفعال وضروبها فقال عن السموات والأرض إن الله أبدعها إبداعاً « ولم يخلقها خلقة ناقصة فى ابتداء نشأتها ثم كملها شيئاً فشيئاً كالحيوان والإنسان والنبات » . ونحن لا ندعى أن هذه النظرية شبيهة كل الشبه بنظرية التطور الحديثة ، ولكن فيها ما يشعر بأن الأنواع لم تخلق من أول الأمر خلقة كاملة ، فهى إذاً ليست ثابتة أو مغلقة كما كان يعتقد المناطقة وعلى رأسهم أرسطو .

ومن الأسباب الدالة على إمكان تغيير الخلق أنه لو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ؛ ولما جوز العقل أن يقال للعبد لم فعلت ولم تركت . ثم إننا قد وجدنا فى بعض البهائم

هذا ممكناً ، فالوحشى قد ينتقل بالعـادة إلى الناس ، والجامح إلى السلاسة .
غير أنه إذا كان فى الإمكان تغيير الخلق ، فللوراثة أثر فى الطباع تجعل تغييرها صعباً . وفى ذلك يقول إن « الأخلاق نتائج الأمزجة ، ومزاج الأب كثيراً ما يتأدى إلى الابن كالألوان والخلق والصور . ومن أجل تأديها إليه قال صلى الله عليه وسلم « تخيَّرُوا لِنُطفِكم الأَكْفَاء » .
والخير ثلاثة : نافع ، وجميل ، ولذيذ . وسبيل الوصول إلى السعادة هو الجمع بين مختلف الفضائل ، خصوصاً الفضائل النفسية . والمال والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة هى الأشياء النافعة فى بلوغ الفضيلة الحقيقية ، والسعادة الأخروية .
وبعد لا أريد أن ألخص لك جميع فصول الكتاب ، وأن أعلق على كل رأى جاء فيه ، ولكنى أقول إن المؤلف راقنى بحسن تفكيره ، ونظرته الواسعة إلى المجتمع الإنسانى ، حتى لتجد فيه بدايات لابحث فى الصناعات وأقسامها كما فعل ابن خلدون من بعد ، ولأنه لم يكن مسرفاً فى اتخاذ جانب واحد من جوانب الحياة بل تحرّى الحكمة والعدالة ، فجاء كتابه سفراً يصح أن يكون من الأسفار الجليلة فى الأخلاق .

احمد فؤاد الاهوانى

من وراء البحار

پول سارتر

شغلت المجـلات الإنجليزية التى اطلعنا عليها فى البريد الأخير — كما شغلت المجلات الفرنسية — بالكاتب الفرنسى « پول سارتر » الذى خص هذا العدد من مجلة « الكاتب المصرى » بمقال بديع فى « تأميم » الأدب . ومن أهم ما قرأناه عن پول سارتر وفلسفته مقال نشر فى عددين متتاليين من مجلة « هوريزن » تلك المجلة الإنجليزية التى تسـير فى طليعة التيارات الأدبية فى انجلترا والعالم ، وهو بحث مفصل لفلسفة پول سارتر . ويجب ألا ننسى أن پول سارتر فيلسوف بمهنته قبل أن يكون أديباً روائيًّا . وهذا المقال لا يمكن الاقتباس منه ، فهو خليق بالقراءة والدرس ، وتجده فى عددى يوليه وأغسطس من تلك المجلة .

ونشرت مجلة « سكروتينى » وهى المجلة الأدبية الإنجليزية العريقة التى تصدر أربع مرات فى السنة بحثاً أرسـله إليها الكاتب « هـ . أ . ميسون » المقيم بسويسرا عن « المذهب الوجودى والأدب » وهو مذهب پول سارتر نفسه . ولعل أوضح بيان لمذهب سارتر لمن لم يطلع على كتابه « الكائن والعـدم » هو ما كتبه سارتر فى إحدى الصحف السويسرية واقتبسه مؤلف هـذا المقال » :

« لكل شىء عنصران : خلاصة ووجود . فالخلاصة معناها مجموعة ثابتة من الصفات . والوجود معناه شىء من الظهور الفعلى فى العالم . والكثير من الناس يعتقدون أن الخلاصة تسبق الوجود ، فحبوب الباقلة مثلا تنمو وتستدير حسب ما هو معهود فى حبوب الباقلة ، والخيار تكون كذلك لأنها تشترك فى صفات الخيار . وأساس هـذه الفـكرة من الدين ؛ فما دام الذى يبنى منزلا يجب أن يعرف تماماً أى نوع من الأشياء سيقوم بعمله ، لذلك كانت الخلاصة سابقة للوجود . . . على أن المذهب الوجودى يقرر أنه فيما يتعلق بالإنسان ، والإنسان وحده ، نجد الوجود سابقاً على الخلاصة .

« ومعنى هذا أن الإنسان يوجد أولا ، ثم بعد ذلك يكون هذا أو ذاك . وفى عبارة واحدة أن الإنسان هو الذى يخلق خلاصته حين يلقى بنفسه فى غمار العالم ، وحين يتألم ، وحين يناضل . وعندئذ يتحدد تدريجيًا ، ويظل هذا التحديد مفتوح الباب ، فلا نستطيع أن نقول ماذا كان عليه هذا الإنسان قبل موته ، وماذا كانت عليه الإنسانية قبل زوالها » .

وفى ضوء هذه النظرية بحث الكاتب مؤلفاته الأدبية لا سيما روايته La nausée ومسرحيته Les mouches .

وقد عنيت المجلات الفرنسية ببحث قصتيه الحديثتين L'âge de raison و Le sursis ويمكن القارئ أن يجد عنهما بحثاً سهلاً فى مجلة « الآداب الفرنسية » فى عدد ٢٥ اكتوبر ، وقد وصل أخيراً إلى مصر وكتبه الناقد لوى پارو .

ماذا فى ألمانيا ؟

لقد خفت صوت ألمانيا حتى لم يعد يسمع اسمها فى العالم بعد أن شغلت مسرح العالم بأسره ست سنوات متتالية ، فلم نعد نعرف عن ألمانيا شيئاً ، كيف يعيش أهلها ، وكيف تقوم إدارتها ، وكيف تدار أمور الألمان الذين يزيدون على سبعين مليوناً .

على أن مجلة « العالم اليوم » التى يصدرها المعهد الملكى للأمور الدولية نشرت مقالا عن الإدارة فى ألمانيا وكيف تدار فى هذه الأيام :

لكى نتبين مجال العمل يجب أن نعود إلى الوراء فنتذكر المراحل التى تم بها احتلال ألمانيا . فأول احتلال رسمى لأرض ألمانيا كان فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ولكن لم تسقط مدينة كبيرة فى أيدى الحلفاء قبل ٢١ أكتوبر حين احتلت « آخن » وعدد سكانها ١٦٠ ألفاً . ولم يتقدم الحلفاء بعد ذلك تقدماً كبيراً حتى مارس سنة ١٩٤٥ وقد درّبوا فى هذه الفترة عدداً كبيراً من الموظفين العسكريين على إدارة الأمور فى تلك المنطقة التى احتلوها استعداداً للاحتلال القادم .

وفى ٧ مارس سنة ١٩٤٥ عبر الحلفاء نهر الراين وتغير الموقف وأخذت تسقط

فى أيديهم مدن كبيرة يومياً حتى احتلوا ثلثى ألمانيا ووجدت الحكومة العسكرية التى كانت تنتظر سقوط البلاد تدريجياً أنها مثقلة بالعمل دفعة واحدة .

ومما يجب ذكره أن العمل الإدارى يكون فى بادئ الأمر محدوداً ، فان العمل الأول الذى يقع على عاتق المحتلين لجهة من الجهات هو إزالة الألغام من البيوت والحقول ، وإصلاح أنابيب المياه والغاز ، ونقل الموتى من الأنقاض والقبض على فلول الجيش ، وجمع الأسلحة والآلات اللاسلكية ، والبحث عن مخازن الأطعمة والمحافظة عليها وغير ذلك من الأعمال . وقبل أن تتم هذه الأعمال تجد أعمالا أخرى تتراكم وهو ذلك الطوفان من الناس الذين هجروا دورهم والأسرى الفارين وما يحتاجون إليه من طعام ومأوى وعناية طبية .

فاذا بحثنا عمل مندوب السلطة العسكرية وجدناه من غير شك مثقلا بالأعمال . ولكن لننظر عمله وفاقاً للتقسيم الإدارى الألمانى .

فنحن نعلم أنه حسب تقسيم ألمانيا يدير البلاد الصغيرة والمناطق الريفية « برجر مايستر » وهو شبيه بالعمدة عندنا ، فمندوب السلطة هو الذى يختاره الآن . ولا ريب فى أن السلطة وجدت كثيرين من هؤلاء العمد الذين يتعاونون معها ، ولم تجد فى الكثيرين نزعة نازية ولذلك أبقتهم فى عملهم يديرون البلاد على ما ألفوه . على أنها فى البلاد التى هى أكبر من ذلك والتى يلقب رئيسها باسم « اوبر برجرمايستر » فى النظام الألمانى ، اضطرت السلطة إلى تغيير كل واحد منهم ، لأن النازية كانت متغلغلة فيهم .

والطريقة التى تعتمد عليها السلطة فى اختيار من يحل محل هؤلاء هى إما المعلومات التى سبق أن حصلت عليها من قبل ، أو معلومات تجدها فى المدينة نفسها ، أو أن تجد عمدة قد أقام نفسه وهو يدير الأمور فى حزم ؛ إلا أنها تفضل الذى يتقدم به الأهالى ويطلبون تعيينه ففى ذلك أمل للمستقبل . ولقد تألفت فى بعض المدن جماعات لهذا الغرض ، فكانت السلطة تبحث أول الأمر حالة هذه الجماعات ؛ إذ أن السلطة لا تريد أن تتدخل فى المنازعات الحزبية .

على أن السلطة العسكرية تجد صعوبة كبيرة فى اختيار ألمان يصلحون لأعمال « أوبر برجر مايستر » أى المحافظ ، أو لأعمال « لاندرات » أى مأمور مركز . إذ مثل هذه الأعمال تتطلب صفات لا توجد بسهولة فيمن بقى من الألمان وتجد فى تقارير السلطة العسكرية أمراً غريباً بشأن المدن ؛ فمثلا المدينة (١)

تعداد سكانها العادى ٢٧ ألفا وهى الآن ٨ آلاف ، والمدينة (ب) تعداد سكانها العادى ٣٨ ألفاً وهى الآن ٧٥ ألفاً . ومعنى ذلك أن الموظفين فى المدينة الأولى فروا من دورهم ومعهم جميع السكان البازين من محامين ومدرسين ورؤساء الكنيسة إلى غير ذلك ، وأن الإدارة فى المدينة الثانية غير قائمة ولكن بسبب الزحام وانهيار النظام . وقد يكون بين المهاجرين أناس قادرون ولكنهم غير مسجلين ولا يعرفهم أهل المدينة ولا يعرف بعضهم بعضا ، ثم هم لا يهتمون إلا بالعودة إلى مدينتهم الأصلية .

فالمشكلة أمام السلطة العسكرية فى المدينة الثانية لا تقل عنها فى الأولى . ثم هنالك المسائل الشائكة التالية :

١ — السلطة : هل يكون للادارة المقامة سلطة كافية ؟ فى هذا الأمر تستطيع السلطة العسكرية أن تؤيد العمدة كثيراً .

٢ — المالية : تتألف الإيرادات المحلية من جهتين : الضرائب المحلية وإعانات الحكومة . وكان انهيار الحكومة مما وقف المورد الثانى . وتحاول السلطة العسكرية أن تستعمل الضرائب التى تجمع للدولة فى الأمور المحلية . وعلى كل حال تعمل السلطة العسكرية على ألا تقف الأعمال الحيوية بسبب قلة المال ، وفى الوقت ذاته لا تتدخل فى الأمور المالية .

٣ — البوليس : من المؤكد أن رجال البوليس كانوا مشبعين بالروح النازية ، ولذلك بدلوا جميعاً ، وعين رجال آخرون .

٤ — المنافع : هنا الفنيون أكثر فائدة من الموظفين . والطريقة المثلى التى اتبعت إنشاء لجنة من الفنيين ورجال الأعمال برياسة أحد الإداريين .

٥ — الطعام : ثمة فترة من الوقت يجب فيها على السلطة المحتلة العناية بأمر الطعام ، فإذا ما مرت تلك الفترة القصيرة ، أقيم مكتب خاص تحت إدارة العمدة للعناية بهذه المسألة ويقال للألمان صراحة إن عليهم تدبير معاشهم .

٦ — مراقبة الأسعار : لقد تعود الألمان على النظام فلم يحدث انهيار خطير فى مستوى الأسعار .

أما الوظائف التى هى أعلى من ذلك كمدير المقاطعة « أوبر برسيدنت » فهذه قد زاد عددها وزيدت أهميتها ؛ إذ عهد إليها فى المسائل الاقتصادية كما عهد إليها فى إدارة بعض المكاتب التى كانت تابعة رأساً لحكومة برلين .

ظهر حديثا

الأداة الحكومية للأستاذين ابراهيم مدكور ومريت غالى (دار الفصول للنشر)

هم هذا الكتاب أن يظهر أثناء الحرب ، ولكن الرقابة حالت دون ظهوره كما أراد صاحباه ، فوزع خفية على بعض الخاصة ، ثم هم أن يظهر مرة أخرى قبيل انتهاء الحرب فوقفت منه الرقابة موقفها الأول ، ثم أتيح له الظهور آخر الأمر بعد أن انتهت الحرب وألغيت الأحكام العرفية . وهو كتاب قيم أقل ما يوصف به أنه يضع أدوات الحكم ووسائله كلها موضع النقد المفصل والتشريح الذى لا يريد أن يخفى شيئاً ولا أن يهمل شيئاً . وسخط الناس على وسائل الحكم شائع فى كل وقت ، وهو طبيعى ملائم لحقائق الحياة الواقعة . فالذين يخافون الحكام يسخطون عليهم غاضبين مرة وساخرين مرة أخرى . والذين يحبون الحكام يشفقون عليهم هازلين مرة وجادين مرة أخرى . ولا يمكن أن ترضى أمة حية مثقفة عن وسائل الحكم فيها مهما تكن هذه الوسائل من الدقة والاستقامة والإتقان . فالسآمة علامة النفس الشريفة كما كان يقول قاسم أمين . والسخط دليل على الطموح . والأمة التى لا تسأم ولا تسخط ضئيلة الحظ من الحياة .

من أجل هذا لا نشارك المؤلفين فى تشاؤمهما الشديد حين يذكران أداة الحكم فى مصر . فأداة الحكم عندنا فى حاجة إلى الإصلاح وإلى الإصلاح الكثير العميق ما فى ذلك شك ، ولكنها فى أكثر بلاد الدنيا تحتاج إلى الإصلاح وتتعرض للنقد ، وينالها الإصلاح فى لين مرة وفى عنف أخرى بحكم هذا النقد المتصل والذى يجب أن يتصل . والمؤلفان متشائمان من غير شك وإن كانا ينكران التشاؤم الذى يقدم عليه الشيوخ يأساً وضعفا ، ويقدم عليه الشباب طموحاً وتعجلا للمنفعة . هما متشائمان ، فإذا دل كتابهما على شىء فإنما يدل على أن مصر ليس فيها شىء يعجب أو يروق . فاقتصادها فاسد كل الفساد ، وحياتها الاجتماعية سيئة كل السوء ، ووسائل الحكم فيها لاتغنى شيئاً ،

وقد تضر كثيراً . وماننكر أن فى هذا كله شيئاً من الحق . وما ننكر أن مصر فى حاجة إلى أن يعاد بناؤها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . ولـكن الأمور فى حاجة إلى أن يؤخذ فيها بغير هذا التشاؤم الذى قد يصور الرغبة فى العمل ولـكنه يصور اليأس من العمل أيضاً .

ولو أتيح الحـكم للمؤلفين لـكان من الممكن جداً أن يكون كتابهما شيئاً وتنفيذهما لما فى هذا الـكتاب شيئاً آخر . والشيء الذى ليس فيه شك هو أن المؤلفين الأديبين قد جلسا على النهر ونظرا للسفينة فى وسطه تعصف بها الريح ، ففكرا وقدّرا وأشارا ، ولسنا ندرى أيسمع لهما الملاح أم يضع أصابعه فى أذنيه .

وهما بما فـكرا وقدرا وأشارا قد فتحا للشباب أبوابا يلجون منها إلى النقد السياسى والإدارى . وهما قد يخطئان وقد يصيبان فى هذا الفصل أو ذاك من فصول الـكتاب ، ولكن خطأهما لا يغير شيئاً من إخلاصهما فى النصح وتوجيهما للمصلحة العامة وتوفيقهما الكثير إلى تشخيص الأدواء ، وتوفيقهما أحيانا إلى وصف الدواء . وليس هذا بالشيء القليل . وللفنيين وحدهم أن يناقشوا ما فى الكتاب من رأى . فأما نحن فنقدمه إلى القراء مثنين عليه حاثين على قراءته ، ونتمنى أن يكون المؤلفان فى الحلقتين الباقيتين من هذه السلسلة أحرص على توخى الدقة فى اللفظ وتجنب الإهمال فى الاستعمال . فكتابهما يزيد على ثلاث مئة صفحة وهما يقولان إنه أسطر . وهما ينكران أن يكون الإصلاح الاجتماعى غاية ليثبتا أنه ثمرة . وما نكاد نعرف الفرق بين الغاية والثمرة . وهذا النحو من إرسال الألفاظ فى غير توخٍّ للدقة فى معانيها شائع فى الـكتاب شيوعاً شديداً ، لعل مصدره أن المؤلفين يتأثران بلغة الصحف أكثر مما يتأثران بدقة الفن الذى يكتبان فيه .

الاسلام والمرأة للأستاذ سعيد الأفغانى (مطبعة الترقى بدمشق)

وهذا كتاب آخر همّ أن يظهر منـذ أعوام ولـكن أحداث الدهر أضاعت نسخته قبل أن تقدم إلى المطبعة ، فاضطر الأستاذ المؤلف أن يعيد إنشاءه وأسدى بذلك إلى البحث العلمى وإلى الأدب يداً مشكورة حقا . فالـكتاب قيم جليل النفع على صغر حجمه . وأكاد أقول إنه قيم جليل النفع لصغر حجمه ؛ فقراءته ميسورة يقدم عليها القارئ فى غير تردد ولا إشفاق . فإذا بدأ القراءة لم يدع

الكتاب حتى يتمه لأنه سمح فى تعبيره كما أنه سمح فى تفكيره ، ليس فيه تكلف ولا تعمل ، وليس فيه هذا التحايل الذى يلجأ إليـه كثير من المؤلفين حين يعرضون لمثل هذا الموضوع الجديد القديم الذى يتصل بالدين من جهة وبالحضارة الحديثة من جهة أخرى ، وإنما استقبل المؤلف موضوعه فى أناة مطمئنة وثقة راضية ، وسار فى عرضه سيراً رفيقاً سهلا فوفق منه إلى ما أراد . وقد أراد أن يعرض على المعاصرين حكم الإسلام فى المرأة ، ومقدار ما أسدى إليها من صنيعة ، ومقدار ما أتاح لها من حرية ، وما رفعها إليه من مكانة المساواة الصحيحة بينها وبين الرجل . ولم يرد أن يضيع وقته ووقت القارئ فى التماس الأدلة من هنا وهناك وعرض النصوص التى تقبل الأخذ والرد ، وإنما اعتمد على القرآن الكريم وما صح من الحديث الشريف . واستخلص من هذين المصدرين المطهرين حال المرأة المسلمة ، فإذا هى حال خير من حال المرأة فى كثير من الحضارات القديمة والحديثة ، وإذا هى حال ملائمة لما يطمح إليه الإنسان الكريم من استكمال الشخصية والكرامة فى هذا العصر الحديث . فللمرأة شخصيتها الكاملة ، ولها حقوقها المدنية والاجتماعية والاقتصادية كأحسن ماتطمع المرأة الحديثة فى هذه الحقوق . فإذا كانت هناك خصائص قد يَزْوَرُّ عنها التفكير الحديث فإنما هى أمور قضت بها ضرورة التطور ، وهى فى نفسها خليقة أن تلائم حاجة الناس إذا فكروا فأحسنوا فى التفكير .

فتعدد الزوجات مثلا حقيقة إنسانية لم يبرأ منها القدماء ولاالمحدثون . وقد أحاطها الإسلام بقيود تلغيهـا إن عرف الانسان كيف يحترم هذه القيود . فالإسلام قد رسم المثل الأعلى ووضح السبل إليه ، ولكنه ترك للإنسان الفرصة التى تمكنه من أن يصفى طبعه ويهذب غريزته ويرقى بنفسه إلى حيث أراد الله لها من الطهر والكمال .

وأروع ما فى الكتاب أنه يصور الحياة الإسلامية كاصفى ما يصورها القرآن وكأرقى ماتصورها السنة النبوية ، فيصل بتصوره هذا إلى العقول والقلوب جميعاً .

ويوشك مؤلف الكتاب أن يكون قد توخى سيرة الجامعى الذى يقدم إلى الجامعة رسالة يريد أن ينال بها درجة الدكتوراه ؛ فهو يضع الموضوع بين يديه محدداً بين المعالم ، ثم يلتمس الوسائل إلى تحقيقه متحرياً الدقة ما استطاع إليها سبيلا حتى يبلغ ما يريد فى هذا الإيجاز البديع . ولو أن الأستاذ المؤلف كان

أكثر إلماماً بالحضارات الأجنبية قديمها وحديثها لتجنب بعض الخطأ اليسير أو بعض التعجل فى الحكم على أقل تقدير ، ولكنه اعتمد فيما يظهر على كتب لم تصدر عن تحقيق دقيق ، فتورط فى بعض الخطأ الذى لا يغض من كتابه وإن كان يحسن ألا يتورط فيه . فما نعلم أن اليونان والرومان بعد أن تحضروا مثلا كانوا يقتلون نساءهم أو يبيعونهن . وما نعلم أنهم كانوا يذهبون فى تعدد الزوجات المذهب الذى صوره المؤلف فى حاشية من حواشيه نقلاً عن هذا المؤلف الهندى أو عن ذاك المؤلف الروسى .

من سير النبلاء جزء مخصوص بأبرر امرأة فى تاريخ الاسلام عائشة بنت أبى بكر الصديق ، لمؤرخ الاسلام الامام الحافظ الحجة شمس الدين الذهبي ، قدم له وضبطه وعلق عليه ناشره الاستاذ سعيد الافغانى (مطبعة الترقى بدمشق)

وكأن الأستاذ سعيد الأفغانى كان يتقدم لنيل الدكتوراه من السوربون فنشر كتاب الإسلام والمرأة على أنه الرسالة الأولى ، ثم نشر هذا الكتاب الثانى على أنه الرسالة الإضافية . وهذا الكتاب الثانى كما يظهر من عنوانه جزء من سير النبلاء للحافظ الذهبى نشره الأستاذ سعيد الأفغانى وضبطه وعلق عليه . فالثناء عليه ثناء على مؤلفه الذهبى وعلى الذى أتاح لنا قراءته . وقد استنسخ الأستاذ هذا الجزء من نسخة مخطوطة فى مكتبة حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن حفظه الله .

وللأستاذ أمنية نشاركه فيها مخلصين ، وهى أن ينشر كتاب الذهبى كله ؛ فهو من أعظم الذخائر الإسلامية فى التاريخ والحديث . والأستاذ يتمنى أن يتفضل صاحب الجلالة الإمام أو صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود بإباحة هذا الكنز النفيس للمسلمين وللعلماء كافة . أما نحن فنتمنى أن يتفضل حضرة صاحب الجلالة الإمام فيأمر بإرسال هذا الكتاب القيم إلى مصر وتنهض دار الكتب المصرية بنشره فيما تنشر من كنوز الأدب العربى ، على أن يقوم على ضبطه وتصحيحه الأستاذ سعيد الأفغانى ، فقد أثبت بنشره لهذا الجزء وبالجزء الآخر الذى نشره عن ابن حزم أنه أقدر الناس ، على هذا الضبط والتصحيح .

ط حسين

فيصل بن الحسين أصدرته مديرية الدعاية العامة ببغداد (مطبعة الحكومة)

هذا كتاب عن فيصل بن الحسين الهاشمى ، أول ملوك العراق ومؤسس نهضتها الحديثة ورأس الأسرة المالكة فى العراق اليوم . . .

. . . وتاريخ فيصل بن الحسين هو فصل بليغ من تاريخ ذلك الجهاد الدائب الذى بدأه العرب منذ أواسط القرن الماضى ، ليثبتوا به أن الأمة العربية التى اجتمعت لها كل أسباب المجد فى ماضيها العريق ، لم تزل أهلا لحمل تبعات المجد فى الحاضر وفيما يُستقبل من الأيام . . .

. . . بل إن تاريخ فيصل بن الحسين هو كالمقدمة من ذلك التاريخ الكبير الذى سيخطه المستقبل بيمينه للأمة العربية التى لم تزل على سنن الجهاد الذى رسمه له فيصل الأول لاسترداد حقها فى الحرية واعتلاء مكانتها بين الأمم الجديرة بالحياة . وحَسْبُك من هذا التاريخ الكبير أن تكون مقدمته هى سيرة ذلك البطل العظيم : فيصل بن الحسين !

وإنه لمن دلائل التوفيق أن يصدر هذا الكتاب فى الوقت الذى اجتمعت فيه بلاد الجامعة العربية لتوكيد ميثاق مشترك يجمعها على أمل ويوحّد طرائقها إلى غاية ، ليكون صدوره فى هذه المناسبة تحية كريمة لروح ذلك الزعيم العربى الذى رفع صوته فى الشرق والغرب باسم الجامعة العربية قبل أن تكون الجامعة العربية . فلم يكن جهاده الدائب فى عمره القصير إلا النواة لهذه السرحة الفينانة ، ولم تكن سيرته منذ بدأ إلى حيث انتهى إلا إرهاصاً لهذا الحدث الجليل الذى يؤرخ به العرب اليوم حوادث الأيام فى تاريخ نهضتهم الموفقة بعون الله .

والحق أن تاريخ الملك فيصل الأول ليس تاريخ ملك من أصحاب العروش والتيجان ، ولا هو تاريخ زعيم من أصحاب المبادئ كان له يوما صوت وصيت ، ليس ذلك فحسب ، ولكنه تاريخ الأمة العربية كلها فى حقبة من الدهر خطت فيها أول خطاها إلى الحرية والاستقلال . وقد انتهت حياة فيصل بن الحسين وانطوى تاريخه على الأرض منذ اثنتى عشرة سنة ، ولكن أثره فى الذهنية العربية الحديثة لم يزل يملى على التاريخ ما يكتبه ولن يزال ؛ فهذا الذى نراه اليوم أو نسمعه من أنباء النهضة العربية ، هو رجْع الصدى البعيد لتلك الصيحة التى

أطلقها فيصل منذ ثلث قرن أو يزيد ، حين كانت الأمة العربية تحت وطأة الحكم العثمانى قد اعتقلت لسانها الأحداث فلا يُسمع لها إلا مثل صوت المختنق يلفظ آخر أنفاسه ؛ ولم يكن هناك من يهتف باسم العروبة إلا فيصل بن الحسين ، فى الأندية الخاصة ، وفى المحافل العامة ، وفى مجلس المبعوثان العثمانى باستانبول حيث كان فيصل العربى نائباً عن لواء جدة . . . . . . وكان له إلى هذا الصوت الصريح جهادُه الصامت لإيقاظ روح العروبة ، استعداداً للوثبة التى يهيئ لها أسبابها حين يحين الأوان . وقد حان ذلك الأوان عندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى ، فرفع راية العروبة وقاد الكتائب العربية فى طريق النصر والحرية ، وخطّ بذلك الصفحة الأولى فى تاريخ الوحدة العربية . . .

ونحن هنا فى مصر قد لايدرك الكثير منا — على الوجه الصحيح — ماذا كانت الدوافع الحقيقية التى دفعت الحسين بن على وأولاده إلى الوقوف فى صفوف البريطانيين ليحاربوا الدولة العلية ، فى الوقت الذى كانت فيه عواطف المصريين جميعاً نحو تركيا . ولعل كثيرا منا — فى ذلك الوقت — قد ساءهم أن ينتقض العرب على الأتراك فى أيام محنتهم فيكونوا من أسباب انهيار الإمبراطورية العثمانية . . . لعل كثيراً من المصريين قد ساءهم ذلك ، لأن البريطانيين فى تلك الأيام الخالية لم يكن موقفهم من المصريين بحيث يحمل أحداً فى مصر على الرضا عن مسلك بريطانيا أو الاطمئنان إلى ماتعد به ؛ فقد كان المصريون إذن — من سوء ظنهم بالإنجليز — فى موقف يدعو إلى الحذر والتربص وتمنى الأمانى من مطلع الشرق . فلما جاءتهم أنباء الثورة العربية، ولم يكونوا على علم بأسبابها ودوافعها الوطنية ، ظنّوا ماظنوا ، ولم ينظروا إلى هذه الحركة على أنها أول جهاد العرب لحريتهم واستقلال بلادهم ، والتخلص من ذلك الكابوس العثمانى الذى يهدد العرب جميعاً بالفناء أو الاندماج فى الجنس التركى ، بل نظروا إلى تلك الحركة من حيث هى معاونة لبريطانيا التى اغتصبت حق المصريين فى الحرية والاستقلال وعاملتهم معاملة الأرقاء والعبيد . . . ثم لم يلبث أن انهتك حجاب الصبح ، فإذا العرب صفوف متراصة تحت رايتهم ، يقودهم إلى الأمل المنشود فيصل بن الحسين ملك سوريا الكبرى ، ثم ملك العراق الناهضة فيما بعد ، وإذا المصريون يعرفون لفيصل بن الحسين حقه من الإجلال والتكريم ! . . .

صحيح أن الإنجليز لم يفوا للعرب بما وعدوا ، ولايزالون ، ولايزال حلفاؤهم

الفرنسيون حتى اليوم يحاولون أن يجدوا تفسيراً لما وعدوا به العرب غير ما كان يفهمه العرب يوم وثبوا وثبتهم إلى جانب الحلفاء ؛ ولكن العرب على كل حال لم يكونوا على نية الغدر والخيانة ، وإنما كانوا يسعون لبلوغ مأملهم فى الاستقلال والحرية . فإذا كانوا لم يبلغوا حتى اليوم كل ما كانوا يأملونه ، فلا بد أن يبلغو يوما ما ، مادام معهم الإيمان والصبر كما كان يقول فيصل بن الحسين فى بعض حديثه . . .

* * *

ذلك هو فيصل الأول كما يصوره هذا الكتاب الذى بين يدىّ ، والذى أصدرته مديرية الدعاية العامة بالعراق منذ قريب ، تخليداً لذكرى فيصل واعترافاً بجميله على العرب . ولقد يقع فى وهم أحد ممن لم يقرءوا ذلك الكتاب أنه — قد أصدرته مديرية الدعاية الرسمية فى حكومة بغداد — كتاب من تلك الكتب (الرسمية) التى تصدرها الحكومات عن الملوك وؤساء الدول : ليس فيه إلا (الصورة الرسمية) كما يراد أن يراها الناس ، لا كما هى فى رأى الناس ومرأى أعينهم . وقد كنت أنا أحسبه كذلك قبل أن آخذ فى قراءته ، فما كدت أتناوله من أولى صفحاته حتى رأيت شيئا غير ما كنت أنتظر ، فمضيت فى قراءته لم أقف إلا عند آخر صفحة منه ؛ ثم لم يزدنى ماقرأت فيه إلا يقيناً بأن فيصل بن الحسين — زعيم النهضة العربية الحديثة — كان رجلا مهما يبلغ الواصفون من وصفه فلن يبلغوا أدنى منازله من العظمة . . .

وقد جمع الكتاب إلى ما جمع من سيرة الملك فيصل الأول ، طائفة من خطبه وأحاديثه والوثائق الرسمية التى تتصل بتاريخ عصره ؛ فهو كتاب أدب ، وكتاب تاريخ . وهو إلى هذا وذلك سيرة بطل من أبطال العروبة يندر مثله بين طبقات الرجال ! .

ع .

في مجلات الشرق

الكتاب

صدر فى أول نوفمبر الماضى العدد الأول من مجلة « الكتاب » التى تصدرها دار المعارف للطبع والنشر بالقاهرة . ونحن نقتبس العبارة الآتية من كلمة الأستاذ عادل الغضبان رئيس تحرير المجلة ، يبين بها الغاية من إنشاء مجلة « الكتاب » ، يقول :

« أما هدفنا فأن نضطلع بخدمة العرب عن طريق نشر الثقافة ، ووسيلتنا إلى ذلك الهدف رأىٌ حر وقلم نزيه نقدم بهما إلى القراء ثقافة عامة مستمدة من أروع ما تفتقت عنه أذهان الشرقيين والغربيين ونبضت به قلوبهم وابتدعه خيالهم وأنتجته عبقريتهم . هذا إلى عناية قصوى بالكتاب العربى نعرضه للجمهور عرضاً صحيحاً ونصوّره لهم تصويراً صادقاً بعدسة النقد أو التعريف على ما يحتمله المقام . . . وأما سياستنا فاعتزاز بعربيتنا وزهو بالعقل العربى دون انتقاص لسواه من العقول ، وبناء أدبنا الحديث على أركان أدبنا القديم متأثرين بالعصر الذى نعيش فيه ومستحدثاته ، ومفرغين المعانى العصرية فى قوالب من بلاغتنا التى مرت عليها العصور وهى حيث هى قوة وجدة وكمالا . . . »

ونحن نرحب بالزميلة الكريمة ، ونتمنى أن توفق دار المعارف فيها إلى مثل ما وفقت إليه من أعمالها الجليلة المختلفة من النجاح فى خدمة الثقافة والأدب .

أدب العراق فى القرون المظلمة

يتحدث الأديب على الخاقانى فى مجلة « الغَرِى » التى تصدر فى النجف — العراق ، العدد الثانى من السنة السابعة — عن الأدب العراقى المنسى ، فى إبان العهد التركى فيقول :

« الأديب حينما يحاول أن يتصل بالأدب الجاهلى والأموى والعباسى على

ماهنالك من بعد الزمن يجد المصادر متوافرة لديه والكتب مبسوطة أمامه بجلاء .
ولكن — ويا للأسف — حينما يحاول أن يتصل بأدب القرون الثلاثة الماضية والثلث الأول من هذا القرن لايجد أمامه كتاباً يكفل حياة الشعر والشعراء بصورة واضحة إلا إذا عزم على معاناة التتبع والتنقيب من المجاميع المخطوطة والدواوين النادرة والكتب الأثرية . . . . ولقد عثرت على ١٤٨ ديواناً مخطوطاً فى مختلف أرجاء العراق مبعثرة هنا وهناك . . . يملك المعظم منها من لايمتّ لها بصلة ذوقية . . . إن هذا التراث المجيد لايزال معتقلا فى رفوف القماطر وفى زوايا البيوت السود قد اكتسى من الأتربة بثوب كثيف يذهب بها بعد حين إلى الأرض فتأكلها . وبذلك نضيّع مجداً ونفقد تاريخاً ، وقد علم الجميع أن من لاماضى له لاحاضر له . . . »

وبعد أن يورد الأديب الخاقانى طائفة من مختاراته لبعض الشعراء المنسيين فى ذلك العصر يقول :

« صرخت وكتبت ، بل أعولت إعوال الثكالى فى المجالس والأندية وعلى صفحات معظم الصحف الوطنية . . . وتابعت الصرخة تلو الأخرى منذ خمسة عشر عاماً إلى اليوم ، حتى تحقق لدىّ من جراء التتبع تأليف أربع مجلدات من كتابى «دليل الآثار المخطوطة فى العراق » سجلت فيه مجموعة ضخمة من النوادر المخطوطة فى مختلف الفنون والعلوم » .

هل ينقذ الأدب الانسانية

وفى العدد الحادى عشر من السنة الرابعة من مجلة «الأديب » — بيروت — يتحدث الأستاذ خليل هنداوى عن مهمة الأديب فى توثيق الروابط الإنسانية ، يقول :

« فى نهاية كل حرب يفكر الإنسان فى الوسائل الناجعة لتجنبها . . . فما هو موقف الأدب — وهو الدين الثانى للإنسانية — من هذه الأزمات المتلاحقة ؟ هذا الدين الذى يستطيع أن يقرب الإنسان من الإنسان ويضم أمة إلى أمة . . . . » ويمضى فى حديثه حتى يقول : « أنا أفهم رسالة الأدب

القومى فى توجيه حياة الأمة . . . ولـكننى لا أفهم أن تـكون رسالة الأدب عسكرية تفرض إرادتها ، ولا عاطفية مجنونة تسيرها أنانية عاصفة ، لاتعترف لغيرها بما تعترف لنفسها ، وتتخذ القومية ذريعة إلى إثارة شهوة الفتوح وبناء المجد على الدماء والأشلاء . إننى أتقبل من الأدب القومى مالا يخرج عن الأدب الإنسانى . والأدباء الإنسانيون أنفسهم الذين بشروا بالدعوة الإنسانية والأدب الإنسانى هم قوميون قبل أن يكونوا إنسانيين ؛ لأن الذى لايتاح له أن يحس آلام شعبه الذى هو من لحمه ودمه ، جدير به ألا يحس آلام الإنسانية . . . . . الأدب قد يكون قوميًّا وإنسانيًّا ، وهو صادق بوجهيه ، متحد فى غايتيه . إن هؤلاء الأدباء مسئولون إلى حد بعيد عن الأزمات النفسية فى الشعوب ، وهم لايقدرون عبثهم — يوم يعبثون — بالقلوب ، والعواطف ، بينا أولئك العلماء فى مخابرهم يكشفون عن أقسى ماخزنته الطبيعة من أسرارها . . . ، إنهم مسئولون عن مستقبل الإنسانية لأن القيم الروحية والاجتماعية بأيديهم . . . »

نظرات فى شعر المرأة

وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال بهذا العنوان للأستاذ عبد الغنى العطرى صاحب مجلة الدنيا ، يقول فيه :

« والمرأة فى نظرى شاعرة بالفطرة ، لما تملـكه من رقة العاطفة ودقة الشعور . وإذا كنا نجد شعر المرأة العربية معدوما أو فى حكم المعدوم فالسبب فى ذلك يرجع إلى أمرين : أما الأول فهو البيئة التى فرضتْ عليها العزلة وصرفتها عن التفـكير فى غير شؤون البيت . وأما الثانى فهو إتلاف ما كان بعض نساء العرب يقلنه من شعر ، لأن البيئة كانت ترى فى اشتغال المرأة بالشعر خروجا على الحياء وروح الحشمة . . . . . . ، أما شعر المرأة الذى وصل إلينا فلا يتميز بعمق الفـكرة وبراعة المعانى ، ولـكنه فى جملته عاطفة مشبوبة وحس مرهف ونفس تسيل حزناً لفقد الأب أو الأخ أو الزوج ، وتعبير عما تحس به حولها من ألم وفرح ، وغيرة وحسد ، وحب وبغض ، وحسرة على زوج أو كره لرجل . وشعرها قصير النفس ، أكثره مقطعات وأبيات متفرقة ، على أنه لايخلو من

القصائد المطولات . . . . . . ، وبعد فإن أكبر ميزة لشعر المرأة الذى وصل إلينا ، ذلك الشعر الذى يبدو فيه الطابع النسوى الخالص الذى نجده فى شعرها والذى يجعلنا نلمس شخصية المرأة من خلال شعرها ونرى أثر الأنوثة فى أدبها . أما شعرها الذى تحاكى به الرجل فى ضخامة القوافى ووعورة الألفاظ ، والذى لا نجد فيه رقة الأنوثة ولا نعومة المرأة فما أجدره أن يكون بعيداً عن روح المرأة كل البعد ، لأن أثر التقليد فيه ظاهر ؛ وما أجدر الأدب الذى لا يمثل شخصية صاحبه ولا يصور عصره أن يموت . . . »

الأدب العربى والمصريات

وفى العدد الثامن والعشرين من مجلة « الأصداء » التى تصدر فى دمشق ، تتحدث الأديبة مرزية القوتلى عن أديبات العربية فى مصر تقول :

« فى مصر نهضة نسائية فى الأدب والاجتماع ، لكنها أضأل بكثير مما كنت أصوره لنفسى قبل سفرتى الأخيرة إلى ديار النيل . فما فى بضعة الملايين اللواتى يؤلفن نصف سكان مصر سوى بضعة أسماء تكاد لاتتعدى أصابع الكف عدًّا ، انحصر الأدب بهن وحديث الأدباء عنهن . وكلما عنّ لأديب أو أديبة أو مجلة أو صحيفة أن تلتفت إلى النهضة النسائية لفتة ما ، لم يجد أمامه سوى الوجوه نفسها ؛ فهناك الدكتورة درية شفيق ، والآنسة أمينة السعيد والدكتورة الأيوبى ، وقليلات غيرهم ، فإن رغبت فى الخروج قليلا عن حلقتهن المعروفة صعب عليك الوقوع على سيدة تكتب بحيث يمكن أن تنعت بنعت الأديبة . . . . . . ذلك لأن المحظوظات من فتيات الأسر الراقية لايزلن حتى اليوم يُعرضن عن المدارس الوطنية وينهلن من المعاهد الأجنبية . . . . ومهما يكن عدد الأديبات المنتجات فى مصر ضئيلا فسيكون لهن أثرهن البعيد فى نشر الأدب الحديث بين الطبقات النسائية ! »

ثم تمضى الكاتبة الأديبة فى موضوعها ، فتهيب بالمصريات أن يقبلن على المدارس الوطنية ، وأن يدعون الحكومة إلى العناية بهذه المدارس ، حتى تنال من نفوس الأمهات والآباء منزلة المدارس الأجنبية فى مصر ، تلك التى يؤثرها المصريون على المدارس المصرية ويكلون إليها تعليم بناتهم !

قضية الجلاء والاستقلال

وفى العدد ١٥، السنة الرابعة، من مجلة «الطريق» التى تصدر فى بيروت يتحدث الأستاذ خالد بكداس عن قضية الاستقلال والجلاء فى البلاد العربية، ويسائل عن سر النشاط والزيارات التى بدت فى حركات بعض السياسيين العرب فى الشهر الماضى، ويتوجس شراً من وراء ذلك، ويخشى أن تكون هناك مساومات على حساب قضية بعض الأقطار العربية . . .، ويقول:

« سمعنا أحاديث كثيرة عن مستقبل الجامعة العربية، وعن ميثاق سعد أباد، وعن مشروع كتلة شرقية يتم فيها « التناسق » بين سياسة الجامعة العربية وسياسة تركيا والأفغان، وسمعنا أشياء أخرى، ولكننا لم نسمع كلمة أو همسة عن شيء واحدهو: استقلال الأقطار العربية وجلاء القوات الأجنبيه عنها . . . »

العمل المنتج

وفى العدد ١٦ من « الطريق » يتحدث الأستاذ واصف بارودى عن العمل المنتج باعتباره سبيلا إلى السعادة. فهو يرى أن الذين يفكرون فى السعادة ويعنّون أنفسهم فى التماس أسبابها هم المتبطلون والفارغون، وهؤلاء هم أبعد الناس عن إدراك السعادة الحقيقية، لأنهم من فكرهم فيها وسعيهم لها فى هم وعناء وسخط؛ وإنما يسعد أولئك الذين يعملون دائبين عملا منتجاً، لأنهم فى غمرة العمل لا يجدون فى أنفسهم ذلك الفراغ الذى يعنتهم بالتفكير فى أمر أنفسهم؛ يقول:

« أسمعت بتلك الحسناء الفاتنة، وقد شغف بها كل إنسان، ولكنها تأبى أن تكون إلا لمن لا تشغل له فكراً ولا يوجه للحصول عليها أدنى اهتمام؛ فهى تقترب من الإنسان بقدر ما يبعد عنها فى تفكيره، وتزداد فراراً منه وبعداً كلما جد وجاهد فى سبيل التمتع بروعتها وبهائها وطمأنينة النفس بها . . . هى غريبة الأطوار حقًا، ولكنها هكذا وجدت، وهى لمن يزهد فيها.

« أتدرى من هى تلك الحسناء الفاتنة الغريبة الأطوار؟ . . . إنها السعادة ! . . . »

تنشر دار الكاتب المصرى طائفة من الكتب العربية التى قام بوضعها أدباء معروفون كما تنقل إلى هذه اللغة أشهر الكتب الأوربية والأمريكية وتقوم كذلك بنشر الكتب العربية القديمة والمخطوطات وستصدر الدار قريباً الكتب التالية :

البخلاء (للجاحظ)

تحقيق وشرح الأستاذ طه الحاجرى (المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق)

العقيدة والشريعة فى الاسلام (لجولدتسيهر)

نقله إلى اللغة العربية الأساتذة

محمد يوسف موسى (المدرس بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف)

على حسن عبد القادر (مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن)

عبد العزيز عبد الحق (المدرس بكلية الشريعة)

من حولنا

وهى قصص مصرية من تأليف الأديب المعروف الأستاذ سعيد العريان

حكايات فارسية

للدكتور يحيى الخشاب (المدرس بمعهد اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول)

طعام الآلهة

للكاتب الإنجليزى ه . ج . ويلز

نقله إلى اللغة العربية الأستاذ محمد بدران

المقامر

للكاتب الروسى دستويفسكى

نقله إلى اللغة العربية الأستاذ عبد الفتاح شكرى عياد

الباب الضيق

للكاتب الفرنسى أندريه جيد

نقله إلى اللغة العربية الأستاذ نزيه الحكيم

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية